الأندلس..
الوجه الآخر للتاريخ

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: الأندلس ... الوجه الآخر للتاريخ
المـــؤلـــف: د. عبد اللطيف عبد الغني مشرف
موضوع الكتاب: تاريخ
عدد الصفحات: 288 صفحة
عدد المـــلازم: 18 ملزمة
مقاس الكتـاب: 24 × 17
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-443

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

الأندلس..
الوجه الآخر للتاريخ

د: عبد اللطيف مشرف

دكتوراه في التاريخ
وباحث في معهد العلوم الإنسانية
جامعة إسطنبول صباح الدين زعيم

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى روح أبي، الرجل الاستثنائي في كل شيء، رغم بساطته إلا أنه كان ذكيًا لمحًا رجلا مجتهدًا من صغره حتى لحظة خروج روحه، إلى من جرع الكأس فارغًا ليسقيني قطرة حب، إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم، إن الرجال تربي رجالا وأنت علمتني أن أكون رجلًا، شكرًا أبي، علمتني أن الصدق منجاة لازمتني، فكنت وما زلت الأب والحبيب الذي لا أنساه، وسأظل أبره إلى أن يجمعنا الله بك على الحوض المرصود إن شاء الله، فإنت من جعلتني لا أقيم الرجال إلا بميزان طباعك، منك تعلمنا يا أبي أن للنجاح قيمة ومعنى، ومنك تعلمنا كيف يكون التفإني والإخلاص في العمل، ومعك آمنا أن لا مستحيل في سبيل الإبداع والرقي، لذا؛ فرض علينا تكريمك بأن أهدي هذا الكتاب لك، وأن يجعله الله في ميزان حسناتك أنت ووالدتي، بارك الله لنا فيها ورزقها الصحة والعافية، تلك الإنسانة التي ساندتك وتحملت من أجلنا كل الصعاب وكل مشقات الحياة حتى لا تجعلنا أجراء عند أحد، فإنتم ستظلون تاجا على رأسي، سأظل أذكركم بالدعاء والخير إلى لقاء بيننا.

فأعظم ما أقدمه لكم هو علم ينتفع به، ولعله يكون سببًا في نهضة أمة الإسلام، فأنت لآخر أنفاسك كنت تعمل من أجلنا، ولم تترك الأرض والفأس إلا لمرضك الشديد، جعله الله في ميزان حسناتك، وجعلنا خير خلف لك، وبارين بك إلى يوم القيامة، وأن يجعلنا سببًا وأن يدعوا لك الجميع ويقرأون الفاتحة على روحك الطاهرة، ويدعون لك ولوالدتي بالصحة والعافية.

أهدي هذا الكتاب لأخوتي وأهلي، ولكل حر صاحب قضية وصاحب فكر وحلم لعقيدته وأمته ووطنه، أهديه لكل من علمني حرفًا ولكل من ساندني بكلمة ولكل صديق آزرني في شدتي، ولكل روح سكنت روحي، أهديه إلى كل ميت من أموات المسلمين لم يجد من يدعو له، فأتمنى من كل قارئ أن يقرأ الفاتحة على روح أبي – رحمه الله – وعلى روح أموات المسلمين.

تمهيد

اختلف المؤرخون في تسمية شبه (الجزيرة الأيبيرية) باسم (الأندلس)، وتنوعت الآراء حول ذلك، حيث يقول ابن خلدون، وغالبية من المؤرخين العرب، أن (الأندلس) سميت بهذا الاسم نسبةً إلى «أندلس بن يافث بن نوح»، الذي هو أول من عمرها، وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه: «أن أول من سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلشبشين معجمة ثم عرب هذا الاسم بعد ذلك بسين مهملة»، وهكذا، فإن أول من سكنها بعد الطوفان قوم عرفوا بـ(الأندلس)، فعمروها وتداولوا ملكها دهرًا طويلًا، ثم يستمر في القول، ويذكر سبب خلاء أرض (الأندلس) من البشر، فيقول: «إن سكان (الأندلس) كانوا مجوسًا، وعقابًا لهم حبس الله عنهم المطر، وتوالى عليهم القحط، فهلك أكثرهم، وفر منها من أطاق الفرار، فخلت أرض (الأندلس) من الناس مائة سنة، ولكن كان للإدريسي وجهة نظر أخرى، حيث ذكر في كتابه (نزهة المشتاق) أن ما خلف الجبل المسمى بالشارات «Sierra Morena» في جهة الجنوب يسمى إسبانية، وما خلف الجبل في جهة الشمال يسمى قشتالة «Castilla» وذكر عبد الرحمن الحجي في كتابه (التاريخ الأندلسي) أن: «أصل مصطلح (الأندلس) مأخوذ من قبائل الوندال «Vandalos»، التي تعود إلى أصل جرماني.

حيث احتلت شبه (الجزيرة الأيبيرية) خلال القرن الثالث، والرابع، وحتى الخامس الميلادي، وسميت باسمها فأندلسيا «Vandalusia»، أي بلاد (الوندال)، ثم نطقت بالعربية (الأندلس).

ونحن نتفق مع الرأي الأخير الذي قال: بأن تسمية (الأندلس) من كلمة (الوندال)، و(الوندال) هم شعوب جرمانية، حكموا في مناطق جنوب إسبانيا.

عبرة من التاريخ

كانت (أوروبا) ساحات من القتال في العصور الوسطى، يحكمها قبائل بربرية، هدمت معالم حضارة (روما)، ونشرت الخوف، والرعب، في كل مكان داخل القارة، عاشت حياة الجهل، والفقر والمرض، عاشت حروب الصراع العقائدي ما بين (الوثنية والنصرانية)، حتى جاء العرب وفتحوا (الأندلس)، فكانت كالسراج المنير لـ(أوروبا)، والمنقذ لها من غرقها في الضياع، فتعلموا العلم، والنهضة، والحياة المتزنة، وبناء الدول، من المسلمين، فلا عيب أن تتعلم؛ ولكن العيب أن تعرف جهلك، ومقامك، وتستكبر! فتقول إني بخير، وصاحب معرفة، ولا تتعلم! فتبقى في الضياع بين الناس، والجميع يتقدم وأنت ثابت في مكانك، فهكذا حال أمتنا اليوم بين الأمم؛ فنحن أمة كانت ذات تاريخ عميق، وضارب في المنطقة، عندما عرفت قيمتها، وتمسكت بعقيدتها، فحكمت (الأندلس) من الصين شرقًا للأطلسي غربًا.

***

(جغرافية (الأندلس)

(الأندلس) هي بلاد واسعة المساحة، تقع في شبه (الجزيرة الأيبيرية)، التي كانت تتمثل في هضبة متوسطة الارتفاع بمعدل 600 متر عن سطح البحر، وهي تشمل اليوم دول (إسبانيا) أي البرتغال الواقعة جنوب غرب أوروبا، وتفصلها عن (أوروبا) سلاسل (جبال البرتات) أو-البيرينية-، التي تعرف اليوم بسلسلة (جبال البرانس) التي تفصل بين (إسبانيا) و(فرنسا) من ناحية الشمال، فتمتاز (الأندلس) بموقع جغرافي فريد، حيث يتميز موقعها بقربه من البحار، والأنهار من هذه المياه، ويمتاز موقع (الأندلس) الجغرافي بقربه من المياه، سواء البحار أو الأنهار، ولعل أهم هذه البحار البحر المتوسط (بحر الروم قديمًا) الذي يحدها من الناحية الجنوبية، ومن المحيطات المحيط الأطلسي (بحر الظلمات قديمًا)،

الجنوب الغربي، والغرب، والشمال، ويوجد بداخلها العديد من الأنهار، ولعل أشهرهم (نهر الوادي الكبير) «Guadalquivir» أشهر أنهار (الأندلس)، وعليه تقوم أهم المدن (الأندلسية) ومنها [قرطبة، إشبيلية، بياسة]، وفي الشمال يقع (خليج بسكاي) أهم الخلجان على المحيط الأطلسي، وغرب أوروبا، تمتلك (الأندلس) تضاريس متنوعة، ومتباينة، تمتد هذه التضاريس إلى عدة مناطق من خلال سلاسل الجبال، التي تمتد منها جنوبًا غربًا، إلى شمال شرق البلاد؛ وهذا ما جعل المدينة تمتلك تباينات مذهلة، بدءًا من (جبال الألب) التي تتخللها الوديان الضيقة، بالإضافة إلى احتوائها على الصحاري القاحلة، والسهول الخصبة، التي تدعم مزارع الفاكهة شبه الاستوائية.

***

فلنتعلم من الجغرافية.

اكتسبت (الأندلس) مكانة جغرافية، واستراتيجية، وحضارية مهمة جدًا؛ ذلك من خلال موقعها، وطبيعة الجغرافية المكانية، ولذلك؛ كانت من أهم معابر الحضارة، والاتصال بين الشرق والغرب، وشكلت أهمية كبرى في قضية الصراع، والسيادة السياسية بين الشرق والغرب، فالعامل الجغرافي، والطبيعة، لهما دور مهم في حياة الدول، وتشكيل حضارة الشعوب، وتشكيل وعي وقضية الإنسان، والأنهار، وتنوع التضاريس، من أهم عوامل واستقرار ونهضة الحضارات، فلنتعلم كيف نحافظ عليها ونستغلها ونحميها.

***

أحوال شبه (الجزيرة الأيبيرية) قبل الفتح الإسلامي

ذكر المؤرخون الإسبان أن تاريخ شبه (الجزيرة الأيبيرية) إلى فترة متأخرة من التاريخ، قد ذكرها المؤرخون في فترة اشتباك حضارة أهل (قرطاجة) مع

(الرومان)، ثم جاء (الرومان) إلى هذه المنطقة؛ لتكون يومئذٍ إقليمًا تحت سيطر الحضارة الرومانية، وانتشرت به الديانة النصرانية، والفنون الرومانية، ثم ضعف الوجود الروماني؛ نتيجة الهجمات التي قامت بها القبائل الجرمانية.

تعرضت شبه (الجزيرة الأيبيرية) لهزات سياسية، متمثلة في مجيء القوط الغربيين إلى شبه الجزيرة، فأقاموا بها دولتهم التي بقيت، حتى قضى عليها عرب المسلمين عام 91هـ 711م.

مرت شبه (الجزيرة الأيبيرية) في زمن حكم القوط بظروف سياسية صعبة، كانت هذه الظروف تنبئ بقرب سقوط الدولة، ومن هذه الأمور الأحداث التي كانت في محيط الأسرة المالكة، التي كان يتولى شؤونها رجال محصورون في أسرة معينة، وكان رجال الكنيسة، والأمراء، هم من يتحكموا بالاختيار لهذا النظام، ولهذا كانت تحدث القلاقل، والفتن، والدسائس، عند موت الملك، لقد كانت الحالة العامة قبل الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة خلال ثلاثين عامًا تقريبًا، تؤذن بالانحلال، كان عصر القوط عصرًا مشحونًا بالفوضى، والاضطرابات، وأصاب المدن اضمحلال عام؛ نتيجة لاضطراب أمور الدولة، وعدم الإحساس بالأمان، وأخذت بعض مدن (الأندلس) الكبرى تضمحل وتتحول إلى مدن صغيرة، بل إن بعضها تحول إلى قرى وحصون، واختفى البعض الآخر اختفاء تامًا؛ ويرجع السبب في شمول البلاد بالفوضى، والاضطرابات، وفساد المجتمع، وقيامه على الطبقات.

وفي الحقيقة، أن القوط عندما فتحوا إسبانيا لم يغيروا كثيرًا من نظم المجتمع التي كانت سائدة في العصر الروماني، فظلت طبقة النبلاء القديمة على ما كانت عليه من غنى ونفوذ، وظلت طبقة التجار، والزراع، وصغار الملاك، تعيش تحت رحمة الأغنياء، واستمر العبيد والأرقاء يفلحون الأرض للأغنياء، ويدخلون في مجموع ما يقتنيه هؤلاء من ممتلكات.

وعلى هذا النحو، يمكننا أن نميز شبه (الجزيرة الأيبيرية) القوطية، بين طبقتين (طبقة الأحرار – طبقة العبيد)، وهما طبقتان محاجزتان لا يمكن الربط بينهما، ولو حتى عن طريق الزواج.

* * *

عبرة من التاريخ

مهما بلغت الدول من مكانة، وثروات، فإن مصيرها الزوال إذا ظهر فيها عدة أمور منها: دولة الفرد الواحد، أو العائلة الواحدة، أو الحزب والتنظيم الواحد، بل إن الدول تبنى بجهود الجميع، وحق مشاركة الجميع في البناء من خلال دولة المؤسسات، وإذا ظهر فيها الظلم الاجتماعي الواضح، واختفاء الطبقة المتوسطة، فمن هنا يظهر الاضطراب، والسخط العام، ثم الثورات، وضعف الدول، تبنى الحضارات؛ بتوفير عامل الأمن للفرد بشتى أنواعه: الاجتماعي، والوظيفي، والاقتصادي، والسياسي، فمن هنا يبدع، ويزيد الانتماء، والولاء لوطنه، وعدم تداخل الأمور السياسية، والدينية في مهام بعضهم بعضًا، ولكن لكل منهم وظيفة ومهام، تكون السياسة لإدارة الدولة المدنية، والدين يكون لحفظ المجتمع، وأخلاقه، وحفظ توازنه، فمن هنا يتم التوازن، ومساعدة بعضهما بعضًا في البناء، لا في صراع الحكم.

* * *

موجز تاريخ (الأندلس) من الفتح لمقدمات السقوط.

مرت بلاد (الأندلس) بعصور متعددة، كان من أبرزها العصر الذي حكم فيه المسلمين المنطقة، وقد بدأ التفكير في فتح بلاد (الأندلس) في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ، ولكن لم تنجح محاولات القائد عقبة بن نافع في ذلك الوقت، وبالرغم من ذلك، فهذه المحاولات اندرجت ضمن التاريخ الذي

شكل لمحة عن بلاد (الأندلس).

وتجدد التفكير في فتح بلاد (الأندلس) في عهد (الدولة الأموية)، التي أسسها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ولم يكن فتح (الأندلس) بمرحلة واحدة! بل مر بعدة مراحل متتالية.

أول مرحلة عام 91هـ

وذلك عندما طلب موسى بن نصير الإذن من الخليفة الوليد بن عبد الملك بدخول (الأندلس)، وذلك عقب الاتفاق مع حاكم (سبتة) يوليان، الذي كان قد طلب مساعدة موسى بن نصير، حاكم شمال أفريقيا ضد حاكم (إسبانيا) القوطي لذريق.

***

حقيقة تاريخية

في الواقع والحقائق التاريخية، ليس هناك ما يدعم قصة مناشدة يوليان لموسى بن نصير، وربما كان هذا الفتح نابع من قضية (الدولة الأموية) في الفتوحات، ونشر الدين الإسلامي، وتوسيع ممتلكاتهم، فأكثر الفتوحات الإسلامية حدثت في عهد (الدولة الأموية)، وجاء التفكير في (الأندلس)، بعد إرساء حكمهم، وسيطرتهم على منطقة (المغرب العربي).

وتولى موسى بن نصير قيادة هذه المنطقة، فكان فتح (الأندلس) امتدادا طبيعيا للفتوحات الإسلامية في هذه المنطقة، وخصوصًا قرب موقع (الأندلس) من (المغرب العربي)، وإيمان قادة المسلمين بقضيتهم، وعقيدتهم، وحبهم للجهاد في سبيل الله؛ مما شجعهم وجعلهم يعزمون الأمر على الفتح، وما يؤكد ذلك بعيدًا عن المناشدة؛ هو إرسال حملة طريف الاستطلاعية.

***

ثم وجه القائد العام لفتح (بلاد الأندلس) موسى بن نصير حملة استطلاعية، بقيادة القائد طريف بن مالك، وكانت هذه الحملة هدفها الرئيسي معرفة أحوال تلك البلاد المقبلين على فتحها، تكونت الحملة من أربعمائة رجل، ومائة فرس في أربعة مراكب، نزل طريف عام 91هـ بجزيرة تقابل (الأندلس) تعرف بالجزيرة الخضراء، فغزا الجزيرة، واستولى عليها، وسميت بطريف نسبةً إليه، حيث عمل على استطلاع أحوال المنطقة وما يليها، فكون فكرة عامة عن المنطقة، والطبيعة الاستراتيجية، والجغرافية لأرض (الأندلس)، وقد كان للحملة أثر في صياغة لمحة عن بلاد (الأندلس).

***

المرحلة الثانية لفتح (الأندلس) عام 92هـ

عندما استجاب موسى بن نصير لـيوليان، فأرسل بن زياد على رأس جيش من 7 آلاف جندي، وما زال المكان الذي نزلت فيه قوات بن زياد تحمل اسمه (جبل طارق)، وكانت بداية مؤشرات فتح بلاد (الأندلس) عام 92هـ، عندما انتصر جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد. على جيش (القوط الإسباني)، والذي كان بقيادة لـزريق، وهذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، وقد أمدت التاريخ بنصر مهم، ساهم في عملية فتح (الأندلس)، وبداية تاريخ جديد يكتب!

***

فلنتعلم من مواقف التاريخ

يجب التخطيط في حياتنا، وكتابة أهدافنا، واستطلاع الأمور، ومعرفتها جيدًا قبل الخوض في المعركة، معرفة عدوك، وطبيعته، وفكره، فـهي أقوى أدوات المعركة، بل والسبب الأقوى في التفوق عليه، وأيضًا عدم الاستخفاف به، وبقدراته، وعدم الانعزال عنه وعن أفكاره، ثم التخطيط له جيدًا، حتى تضع

في الحسبان الأدوات، والوسائل، والأفكار المناسبة، لتتغلب على عدوك، فـأول عدو للإنسان هو غباؤه، وثاني عدو هو كبرياؤه، وعدم مشاورة أصحاب الأمر والمعرفة، هذا المنطق يؤخذ به على مستوى الأفراد وسياسات الدول، كن صاحب هدف، وكن صاحب قضية، وخذ من قادة المسلمين، ومن تاريخ الأمة الإسلامية الهدف، والقضية، والثقة في الله وفي النفس، ثم قاتل الحياة، واجتهد لأجل هذا الهدف وستصل، فـلكم في طارق بن زياد، وموسى بن نصير خير مثال.

❋ ❋ ❋

وبعد الانتصارات التي حققها طارق بن زياد على القوط في بداية الفتح، جمع لذريق حاكم طليطلة، جيشًا مكون من مائة آلف مقاتل، واتجه إلى الجنوب لقتال المسلمين، أرسل طارق بن زياد إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد، وشرح له ما حقق من انتصارات، وأن النصارى جهزوا جيشًا جرارًا لقتالهم، فـأرسل له خمسة آلاف مقاتل، أغلبهم من العرب، بـقيادة طريف بن مالك، اختار طارق بن زياد منطقة (وادي الرباط) أو ما يعرف بوادي لكة لقتال جيش لذريق، في 28 رمضان عام 92هـ.

حيث دارت معركة شرسة بين الطرفان استمرت لمدة ثمانية أيام، وانتهت بنصر مؤزر للمسلمين! حتى إن هذه المعركة عرفت بأنها من أشرس المعارك التي دارت في التاريخ الإسلامي، وبعد نجاح طارق بن زياد، وانتصاراته، توجه نحوه القائد العام لفتح (الأندلس) موسى بن نصير، وابنه عبد العزيز بن موسى؛ لاستكمال الفتح لكامل مدن (الأندلس) عام 93هـ، وقد كان لـطارق بن زياد، وموسى بن نصير دور مهم في فتح (الأندلس)، وإرساء معالم الحضارة الإسلامية على هذه الأرض، ويذكر اسم طارق بن زياد إلى الآن، حيث أطلق اسمه على أهم المضايق المائية التي تفصل بين المغرب، وإسبانيا حاليًا، وهو مضيق (جبل طارق).

❋ ❋ ❋

جدل تاريخي ودعوة للأمل

هناك جدل تاريخي في كثير من أحداث الفتح الإسلامي لـ(لأندلس)، ولعل أبرزهم هو حرق طارق بن زياد لسفن الحملة بعد عبور المضيق، وقوله لجنوده: «الآن البحر خلفكم، والعدو أمامكم». من وجهة نظري أن هذه القصة لم تحدث؛ وذلك لمعرفة المسلمين لطبيعة الأرض، والعدو، عن طريق حملة طريف، وثانيًا: طارق بن زياد قائد ذكي، ويعرف أنه في أرض بعيدة عن مواقع المسلمين، فربما لم تحقق الحملة مراده، فيضطر للعودة؛ مما يجعله يحتفظ بهذه السفن.

الجدل الثاني: هو غيرة موسى بن نصير من نجاحات قائده طارق بن زياد، وهو ما جعل موسى بن نصير يعبر، ويستكمل هو الفتح، فهذه الواقعة تداولها المستشرقون للحط من قيمة الفتح، فليس هناك من الأمور التي تجعل موسى يغير من طارق وهو قائده العام، وصاحب الرأي والفكرة!

ولكن دعونا من هذا الجدل ونقر بحقيقة واقعة، وهي إتمام الفتح، ونجاح جيش المسلمين بعد معارك طاحنة، وتنظيمه للدولة، والحقيقة الثانية أن التاريخ لا ينسى من ذاكرته الأبطال الحقيقيين، فطارق وموسى بن نصير يخلدهما التاريخ إلى يومنا هذا، وإلى الأبد؛ لأنهما رجال وضعوا بصمتهما في الحياة، فكن ذا أثر، وذا بصمة في الحياة، حتى يذكرك الجميع للأبد.

***

أحوال (الأندلس) بعد الفتح الإسلامي

بعد المعارك التي دارت بين المسلمين والقوط، ونجاح المسلمين في الفتح، بدأ المسلمون في تدبير شؤون البلاد، وإرساء القانون، والمساواة بين الجميع، وعرفت هذه الفترة بالتسامح، والمعايشة بين الجميع من حيث نصارى، ومسلمين، ويهود.

دعوة وحقيقة مشرقة غائبة

وبعد هذه المعارك، بدأ سكان (الأندلس) بالدخول في الإسلام دون حدوث معارك كبيرة تذكر، أو إبادة قام بها المسلمون اتجاه السكان الأصليين لـ(لأندلس)، وذلك لتسامح الفاتحين معهم، وقدرة الفاتحين على تنظيم أحوال (الأندلس) المختلفة بسرعة، وبدقة عالية.

ولعل يذكر أحد المؤرخين الإسبان سبب دخول الكثير من نصارى (الأندلس)؛ هو قرب مذهبهم (الأريوسي) من العقيدة الإسلامية؛ مما ساهم في تفهمهم، وشعورهم بقربهم من العقيدة الإسلامية، لذلك؛ كان هذا من العوامل التي ساهمت في دخول العديد من النصارى في الدين الإسلامي، بل واندماجهم التام في هذا البناء الجديد الذي ساهموا فيه. مسامحة، وعدل المجتمع الإسلامي في (الأندلس)، فهو أقوى سلاح لدعوة الآخر وهو الفكر المتزن، والنهضة الحقيقية، والعلمية، والتعايش، والتسامح، والأخلاق، من هنا سيبحث الآخر عنك، ويؤمن بما تؤمن به.

***

ازدهرت (الأندلس) في فترة حكم المسلمين بشهادة المؤرخين الإسبان قبل العرب، وبشهادة العمارة، والمباني الموجودة، والشاهدة على الحضارة إلى يومنا هذا في جنوب إسبانيا، حيث عرفت بالهندسة المعمارية، والعلم، والثقافة، حرص الفاتحون المسلمين على تعليم من يريد من النصارى الدخول في الإسلام بحريته، على تعليمهم تعاليم الدين الإسلامي الصحيح، ولم يعتد المسلمون على الكنائس، وعملوا على المساواة بين الجميع.

وإلغاء ما كان يعرف بالطبقية بـحكم القوط، وتعلم سكان (الأندلس) اللغة العربية، وكانوا يتفاخرون بتعلمهم لها، ويقدر الباحثون الإسبان أن ثلاثين بالمئة من مفردات اللغة العربية دخلت إلى اللغة الإسبانية، حتى إن الموسيقى الإسبانية

تعد خليطًا من الموسيقى (الأندلسية) والشعر العربي (الأندلسي)، وكانت نهضة (الأندلس) في زمانها وعصرها، هي النهضة الأكثر تميزًا، وتطورًا في العالم، فانتشرت المباني المعمارية الجميلة التي ما زالت صامدةً إلى اليوم، وتبهر زائريها من جمالها، ودقتها! وأنشأوا القناطر في جميع المناطق، واشتهرت بصناعة السفن والأسلحة، كانت (الأندلس) مركز للعلم يأتي إليه الناس من جميع الأرجاء، وما تزال كثير من القلاع، والقصور، والمساجد، شاهدةً إلى هذا اليوم.

فـتشير إلى فترة الازدهار التي كانت عليها (الأندلس) بأن الحكم الإسلامي، مثل: (جامع قرطبة، وقنطرة قرطبة، وقصر الحمراء، وجنة العريف في غرناطة، ومسجد الأندلس في مالقة، قصر الجعفرية في سرقسطة، قلعة شريش في إشبيلية) وغيرها من الآثار الإسلامية الكثيرة.

***

فلنتعلم كيف نأسس دولة وحضارة؟

إن العلم وتشكيل الوعي، واحترام العلماء، وفكر وعقيدة الآخر، أول خطوات البناء، وصحة الإنسان، والاعتناء به ثاني خطوات البناء، ودمج الجميع في كيان واحد وفقًا لقانون يطبق على الجميع ثالث الخطوات، وبناء اقتصادي، وعسكري وحضاري رابع الخطوات، ثم التسامح، والتعايش الفكري، وإرساء الأخلاق، وفهم الشعوب، وتلبية احتياجاتها، ورغباتهم، وتوفير الأمن والمأمن الاقتصادي، والاجتماعي والعقائدي، كل ذلك يساهم في بناء الدول، وتلاحم الأفكار، وتوحيد نسيج المجتمع، وغرس الولاء؛ مما يساهم في بناء فرد فعال مقتنع بذاته ودولته، فيدافع عنها، ويعطيها كل ما يملك وهو راض ومحب. ومن هنا ينطلق البناء، وتصنع الحضارات، وقوة الشعوب.

***

⏮ ويمكن تلخيص نتائج الفتح الإسلامي للأندلس في عدة نتائج، أهمها:

1 – **من ناحية الأحوال السياسية**: فقد غير الفتح أوضاع السكان بشكل عام، فبعد زوال الحكم القوطي، تجمع زعماء القوط في منطقة جيليقية في الشمال الغربي، وتركوا ممتلكاتهم، وأموالهم للمسلمين، وأبقى المسلمون على الذين ساعدوهم، فـأعيد يوليان إلى حكم سبتة، كما سمح لبعض النبلاء والإقطاعيين، الذين استغلوا الناس تحت اسم (النظام الإقطاعي) في بعض المناطق بالاحتفاظ بأراضيهم، أما الأراضي التي تركها أصحابها بفعل الفرار، أو القتل في المعارك، فقد صدرت، ووزعت على المسلمين.

2 – **من ناحية الأحوال الاقتصادية**: أحسن المسلمون معاملة أهل البلاد الذين تعرضوا للاضطهاد في العهد القوطي، فسمح للمزارعين ممارسة الزراعة مقابل دفع الخراج، واعتنق كثير من رقيق الأرض والعبيد الإسلام؛ لأنهم وجدوا فيه التسامح الذي كانوا ينشدونه، واعتنق الإسلام عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا عن إيمان ثابت.

كما سمح المسلمون لليهود، الذين أعانوهم في عملية الفتح بامتهان التجارة، وأمنوهم على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، ومنحوهم حرية التملك، وعمل كثير منهم في العلوم، والآداب، والطب، والفلسفة، فكانوا أكثر الطوائف استفادةً من الفتح.

3 – **من الناحية الاجتماعية**: أن مصادرة ممتلكات النبلاء، وممتلكات الكنيسة، أدت إلى زيادة عدد صغار المزارعين زيادة ملحوظة؛ فكان الفتح الإسلامي وقيام (الخلافة الأموية) في (الأندلس) خيرًا على (إسبانيا)، فقد أحدث ثورة اجتماعية، وقضى على مساوئ العهد القوطي، التي كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون.

***

حقيقة من معالم التاريخ

عندما كنا أمة لنا قضية، وهمة في نشر الدين، والخير وصلاح الناس، ورفعة الأمة، وهبنا الله قادة مخلصين ورجال صنعوا التاريخ، وأهل علم، وحكمة، علموا الدنيا مفهوم الحضارة والإنسانية، فانتشر الخير، والعدل في كل أرض يطأونها بأقدامهم، لأن هذا الدين جاء برسالة سلام، وتسامح مع الجميع، جاء لينشر الخير ويمحو الفساد، جاء ليبني لا يهدم.

***

الفصل الأول
(الأندلس) ما بين (الدولة الأموية) وملوك الطوائف

تمهيد

كانت الحضارة الإسلامية وما زالت مزيجًا متنوعًا من الثقافات، حيث شملت العديد من الأنظمة والبلدان، التي امتدت من شمال (إفريقيا) إلى غرب (المحيط الهاديء)، ومن (آسيا الوسطى) إلى جنوب (الصحراء الكبرى)، حيث تم إنشاء الإمبراطورية الإسلامية الواسعة في القرنين السابع، والثامن؛ نتيجة قيام سلسلة من الفتوحات الإسلامية، إلا أنها تفككت وانهارت، ثم تمت إعادة ازدهارها لأكثر من ألف عام.

لذلك؛ ومن خلال هذه الفترة الطويلة، احتضنت الحضارة الإسلامية العديد من الثقافات والشعوب، فقد تم إنشاء مدن عظيمة، وشبكة تجارية واسعة، بالإضافة إلى تحقيق تقدم كبير في مجال الفلسفة، والعلوم، والطب، والهندسة.

تشكلت معالم الحضارة الإسلامية؛ عندما تمكن المسلمون خلال عام من فتح أغلب المدن (الأندلسية) على يد القائد طارق بن زياد، ليلحق به بعد هذه الانتصارات موسى بن نصير على رأس جيش أكبر ليساهم في فتح باقي المدن، ويعين في الحفاظ على استقرار الأمر للمسلمين في (الأندلس)، وتحقق المراد في غضون ثلاث سنوات وبضعة أشهر، واستقرت أمور (الأندلس) تحت حكم (الخلافة الأموية).

ليستمر بعد ذلك حكم الحضارة الإسلامية في (الأندلس) لمئات السنين،

وامتد حكم المسلمين في (الأندلس) لثمانية قرون، عاشت فيها الحضارة الإسلامية في (الأندلس) سنوات من الازدهار والقوة والمنعة، وعانت في سنواتٍ أخرى من الضعف، والتشتت، والفرقة، والهوان الذي ازدادت في السنوات الأخيرة مع سيطرة (الإسبان) على المدن (الأندلسية) الواحدة تلو الأخرى، إلى أن خسر المسلمون مدينة (غرناطة) معقلهم الأخير في (الأندلس)، وتقسم مراحل الحضارة الإسلامية في (الأندلس) إلى عدة أقسام، هي:

1 – مرحلة الولاة: يعينهم الخليفة الأموي، واشتهر منهم عبد الرحمن الغافقي الذي استطاع توحيد القبائل العربية في (الأندلس) تحت رايته، وجاهد لاستكمال فتح (الأندلس) إلى أن استشهد في معركة (بلاط الشهداء).

(الأندلس) اسم أطلقه المسلمون على شبه (الجزيرة الأيبيرية) في الفترة ما بين أعوام 711ه إلى 1492م، وقد تأسست بداية كـإمارة في ظل (الخلافة الأموية)، ثم تبعهم عليها ملوك الطوائف، ثم وحدها المرابطون والموحدون، قبل أن تنقسم إلى ملوك طوائف مرة أخرى، وانتهى حكم المسلمين فيها نهائيًا؛ بدخول فرناندو الثاني ملك الإسبان مملكة غرناطة في 2 يناير 1492م.

2 – عهد (الدولة الأموية): استطاع الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل الهروب عبر إفريقيا، والمغرب، وصولًا إلى (الأندلس).

وتمكن من توحيد القبائل تحت حكمه مؤسسًا الإمارة الأموية التي امتدت من 138 هـ حتى سقوطها عام 422 هـ، وعاشت (الأندلس) فيها سنين المجد، وفيها اتضحت معالم الحضارة الإسلامية في (الأندلس)، وخلالها أعلن عبد الرحمن الثالث الناصر نفسه خليفة عام 316هـ في ظل ضعف الخلافة العباسية، واستمرت (الأندلس) حتى سنة 107هـ 726م، تحت حكم (الخلافة الأموية) في دمشق بوصفها واحدة من الولايات التابعة للحكم الأموي لما يقارب أربعين عامًا.

وبعد أن سقطت دولة بني أمية فرعبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بلقب (صقر قريش) إلى (الأندلس)، وأسس الخلافة الأموية في (الأندلس) بشكل مستقل عن الخلافة العباسية التي كانت قائمة حينها، واستمرت هذه الخلافة ما يقارب ثلاثة قرون من الزمن، وبحسب المؤرخين فإن (الخلافة الأموية) في (الأندلس) قامت عام 138هـ وانتهت عام 422هـ، وتولى حكم (الأندلس) في فترة الخلافة الأموية تسعة عشر خليفة أموي.

❊ ❊ ❊

تعلم من رجال صنعوا التاريخ

يبقى الحنين للوطن والقلب متعلق به مهما أحرزنا من المكانة والملك، فالوطن شيء نبت فينا، فدومًا لا يفارقنا، فهو في القلب يسكن، فما أجمل حب الوطن، وأقسى أيام الغربة، حتى ولو كانت رغدا ونعيما، فاجعل علمك، وهدفك أولًا لوطنك.

ولا تتمن غربة بعيدة عن الأوطان والأهل، هكذا علمنا عبد الرحمن الداخل، عندما رأى نخلة مفردة في (الرصافة) حي في قرطبة، تتمايل وتشكي شجنها، فتذكر وطنه وحن إليه، وكتب هذه الأبيات:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي
يسح وتستمري السماكين بالوبل

❊ ❊ ❊

كانت(الأندلس) بوصول عبد الرحمن الداخل تعيش حالة من الاضطراب السياسي، والتمزق الاجتماعي، نتيجة الصراعات بين الفاتحين من المشرق والمغرب، وساد فيها الحكم القبلي، فخاض عبد الرحمن الداخل العديد من المعارك، أهمها معركة (المصارة) التي وقعت في منطقة قرب قرطبة، واستطاع فيها هزيمة القيسيين، وبويع بعدها أميرًا لمنطقة (الأندلس)، ودام حكمه عليها حتى عام 172هـ.

❋❋❋

تعلم من التاريخ كيف تكون قائد ويحترمك حتى الخصوم؟

وقد أجمل ابن حيان مؤرخ (الأندلس) الكبير صفاته في تلك العبارات القوية، حيث قال: «كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، تم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا مقدامًا، بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغًا، مفوهًا، شاعرًا، محسنًا، سمحًا، سخيًا، طلق اللسان».

ويكفي شهادة ألد خصومه وهو أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي، قال يومًا لبعض أصحابه صقر قريش من الملوك قالوا: «أمير المؤمنين الذي راض الملك، وسكن الزلازل، وحسم الأدواء» فهم يقصدونه، فقال: لا، فقالوا: معاوية، فقال: لا، فقال: صقر قريش، «عبد الرحمن بن معاوية، الذي تخلص بكيده عن سنن الأسنة، وظباة السيوف، يعبر القفر، ويركب البحر، حتى دخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه، فمصّر الأمصار، وجنّد الأجناد، ودوّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة شكيمته، فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه بحر».

❋❋❋

وكان أول ما عمل عليه منذ توليه حكمها عام 138 هـ، تغيير نظامها الداخلي، فتحول نظام الحكم فيها، من نظام قبلي إلى دولة يسودها الحكم الشخصي.

فعمل على الإطاحة بزعامات القبائل القيسية، واليمانية، وساعده في ذلك أعوانه الذين يكنون له الخضوع والطاعة، ونظم شؤون (الخلافة الأموية) في (الأندلس).

خصائص الخلافة الأموية في (الأندلس)

أصبحت عاصمة (الدولة الأموية) في (الأندلس) مدينة (قرطبة)؛ وذلك لما تتمتع به من مميزات طبيعية، وجغرافية، ثم تحولت الخلافة الأموية في (الأندلس) بإعلان عبد الرحمن الناصر لدين الله نفسه في ذي الحجة 316 هـ - يناير 929م خليفة قرطبة، بدلًا من لقبه السابق أمير قرطبة، وهو اللقب الذي حمله الأمراء الأمويون منذ أن استقل عبد الرحمن الداخل بـ(الأندلس)، اتخذ الأمويون البياض شعارًا لهم.

وفي الحقيقة هي مختلف على لونها بين الخضرة والأبيض، ولم يتفق عليها من المؤرخين، وكانت مصنوعة من الكتان، واحتجابهم عن الناس بشكل كبير، وتوريث الخلافة فيما بينهم.

تميزت (الأندلس) في فترة بني أمية بنشاط تجاري، وثقافي، وعمراني ملحوظ، وأصبحت (قرطبة) أكثر مدن العالم اتساعًا بحلول عام 323 هـ - 935م، وشهدت (الخلافة الأموية) في (الأندلس) تشييد الكثير من روائع العمارة الإسلامية في (الأندلس)، ومنها (الجامع الكبير) في (قرطبة) الذي يعد من أشهر المعالم الإسلامية في (الأندلس).

كما شهدت فترة حكم الأمويين نهضة في التعليم العام، جعلت عامة الشعب يجيدون القراءة والكتابة، في الوقت الذي كان فيه عِلية القوم في (أوروبا) لا يستطيعون ذلك!

***

النظام الوزاري في (الدولة الأموية) في (الأندلس)

نظام الوزارة في (الأندلس)، كان نظام الوزارة أيام (الخلافة الأموية) في (الأندلس) يشبه إلى حدٍ كبير التشكيل الوزاري بالعصر الحالي، وكان رئيس الوزراء في البداية الخليفة نفسه، ثم تطور النظام، فأصبح الحاجب هو رئيس الوزراء الفعلي، وقد أشار ابن خلدون إلى نظام الوزارة في (الأندلس) بقوله: «وأما دولة بني أمية بالأندلس، فـأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافًا، وأفردوا لكل صنفٍ وزيرًا، فجعلوا لحسبان المال وزيرًا، وللترسيل أي البريد وزيرًا، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرًا، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرًا، وجعل لهم بيتا يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك، كلٌ فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم، وبين الخليفة واحدا منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب، ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها، فأكثرهم يومئذٍ يسمى الحاجب».

***

كأنك ترى: عندما يكون لك فكر ستصل، فـبالفكر، والعلم تبنى الدول، فالإدارة الناجحة دومًا تحتاج إلى عقل، وفكر، فما تراه اليوم من إدارة الدول، وتسلسل حكومي، من رئيس وزراء الحاجب، ووزراء، ومساعدين، كان لأهل (الأندلس) وحضارتهم السبق في تنظيمه، ووضع أسسه الأولى، من أجل تنظيم، وترتيب أحوال الدولة، وللمساندة الحاكم لتلبية احتياج الشعب، وليس لتلبية احتياجاته ورغباته هو، فلا يوجد دول فقيرة! بل توجد إدارات فاشلة، وفكر فقير وضعيف، ولا يمتلك الرؤية، فـتكون النتيجة دول فقيرة وضعيفة وفاشلة.

***

يدين نظام الوزارة في (الخلافة الأموية) في (الأندلس) في وجوده، وتنظيمه للأمير عبد الرحمن الأوسط 206 238هـ 822 852م، أما قبل ذلك فلم يكن هناك تنظيم حقيقي لهذا الجهاز، فالأمير عبد الرحمن الداخل لم يتخذ الوزراء، بل اتخذ مجموعة من المعاونين، والمستشارين الذين توسم فيهم الإخلاص، والوفاء، والكفاءة، واختصهم بمجالسته، وبذل المشورة له عندما يطلب منهم ذلك، ومنهم: (أبو عبده، حسان بن مالك وابنه عبد الغافر، شهيد بن عيسى بن شهيد، وثعلبة بن عبيد الجذامي) وغيرهم.

***

فلنتعلم معنى رغبة الحاكم في الصلاح

الحاشية الصالحة تساوي حاكما صالحا، وفساد الحاشية من فساد وضعف رؤية الحاكم، فإذا كانت النية بناء سيكون صاحب المجلس والأمر من أهل العلم، والحكمة، والكفاءة، والصلاح. وإذا كانت النية بالنسبة للحاكم سلطة وحكما! سيكون الاختيار من نصيب المتملقين المنافقين، والجهلة، وضعاف الفكر والرأي، ففي الأولى تجد نتيجتها متمثلة في حضارة، وصلاح الجميع، وفي الثانية تجد نتيجتها متمثلة في الفقر، والضعف، والمهانة، وخيانة الأمانة ومن ثم هلاك الجميع.

***

وقد ذكر ابن الأبّار، أن الأمير عبد الرحمن الداخل قد استوزر ولديه سليمان، وهشام، بالإضافة إلى كل من (عبد الله، وإبراهيم، وحكم أبناء عبد الملك بن عمر بن مروان)، وذكر ابن عذاري أن عدد وزراء الأمير هشام الرضا كانوا ثمانية، بينما كان عددهم لدى ابنه الحكم الربضي خمسة وزراء.

عندما جاء عبد الرحمن الأوسط، تطور نظام الوزارة، فقسمها إلى عدة وزارات مختلفة، وألزم الوزراء الحضور يوميًا إلى بيت الوزارة، الذي خصصه لهم في قصر الإمارة؛ وذلك من أجل مشاورتهم في جميع أمور الدولة.

ومن وزرائه (عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، وعيسى بن شهيد) وغيرهما، ولم يكن لأولئك الوزراء في البداية مجلس خاص بهم يجتمعون فيه، فقد كان الأمير يستدعيهم متى شاء، إلا أن الأمير عبد الرحمن الأوسط نظم تواجدهم، وأصبح تنظيمه هذا معمولاً به إلى نهاية الدولة، فألزم الوزراء المجيء إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في النوازل، وأفردهم بيتا لهم في قصره، يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائك، وبذلك أصبح للوزراء عمل رسمي يزاولونه بشكل يومي، ومجلس خاص بهم، يمارسون فيه أعمالهم كلٌ حسب اختصاصه.

أهم الأحداث والثورات التي وقعت في فترة الخلافة الأموية

شهدت الخلافة الأموية في (الأندلس) العديد من الأحداث التاريخية المهمة في تاريخ (الدولة الأموية) ذاتها، وفي تاريخ (الدولة الأموية) في (الأندلس) التي حكمت ما يقارب ثلاثة قرون امتدت من 138 422 هـ إلى 755 1031م، وكانت ميزة العديد من هذه الحوادث التاريخية، أنها وقعت في شهر رمضان المبارك.

ثورة أهل الربض

من أهم الأحداث التي شهدتها فترة حكم الأمويين في (الأندلس) هي وقعة الربض، التي حدثت في رمضان 202هـ، كان الـحكم بن هشام في حكمه في قرطبة.

وأوقع الظلم بالكثير من الناس، خاصة العلماء، ولما ضاق أهل العلم من طغيانه، وإعوجاجه، دبروا ثورة عليه عام 198ه، وفشلت ثورتهم، فأمر الحكم بصلب اثنين وسبعين رجل منهم؛ فأوقع فعله البغضاء في قلوب العامة، ومع ازدياد ظلم الحكم وجنوده، قام العامة، خاصة سكان ربض (شقندة) من أهل قرطبة بثورة أخرى عليه في 13 رمضان 202هـ، بعد فرض ضرائب باهظة على

التجار، فتعرض له العامة وهو يمر من سوق الربض، ولم يتمكنوا منه، فأمر الحكم بالقبض على عشرة من زعمائهم وصلبهم!

❋ ❋ ❋

تعلم من أهل العلم

عندما تقرر الوقوف في وجه الظلم وأهله، وخصوصًا إذا كنت ذا علم ووعي، فاعلم أنك ستخون، وتهان، وسيتم تكفيرك، أو اتهامك بالجنون، أو النفيً، ولكن إياك أن تسكت عن الظلم؛ من أجل أن يقال عليك أنك رجل سلام، وتنأى بنفسك على حساب عقيدتك، ووطنك، فإذا فعلت فستكون مزحزح العقيدة، وسقيم الوجدان، وقليل الهمة والوطنية، فلك في وقوف علماء (الربض) في وجه ظلم الحاكم خير دليل، فسيظل التاريخ يذكر الحاكم بظلمه، ويظل يذكر العلماء بشجاعتهم، ورفضهم الظلم وإيمانهم بقضيتهم.

❋ ❋ ❋

نتيجة لهذه الإجراءات التعسفية التي قام به الحاكم كما ذكرنا من قبل، استغل الناس مشادة حدثت بين أحد مماليك الحاكم، وبين حداد يصقل السيوف، قتل على أثرها المملوك الحداد، فزحف الناس إلى القصر، وقتلوا الحاكم وحراسه، وقد بعث الحاكم قائده عبيد الله البلنسي وحاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في قوة قاتلت الثائرين، وطردتهم من فناء القصر، ثم واصلت القتال حتى دخلت ربض شقندة، وأشعلت فيه النار، فتفرق الثائرون، وأحاط الجنود بالثوار وقتلوهم، ونهبوا دورهم لثلاثة أيام متتالية، وفر عدد كبير من أهل الربض، وأمر الحاكم بصلب 300 ثائر على النهر، وفي اليوم الثاني أمر بهدم الربض القبلي للثوار حتى صار مزرعة، ولم يعمر طول مدة بني أمية، وتتبع دور الثائرين ضده بالهدم والإحراق، وبعد ثلاثة أيام أمر برفع القتل والأمان، على أن يخرجوا من قرطبة، فلجأ عدد منهم إلى طليطلة، واتجه 15000 منهم إلى الإسكندرية.

وكان ممن هرب من أهل الربض إلى طليطلة الفقيه يحيى بن يحيى ثم أمنه الحكم، وطالوت بن عبد الجبار المعافري، أحد من لقي مالك بن أنس، استخفى عند يهودي أحسن خدمته، ثم انتقل إلى الوزير الإسكندراني واثقًا به، فسعى به إلى الحاكم وأمكنه منه، ورق له الحاكم وسامحه على جرأته عليه، وإقراره بغضه إياه لظلمه، ونقص الإسكندراني في عين الحاكم.

***

عبرة وعظة

عندما تحارب الدولة العلماء، ولم يصغ الحاكم لأهل العلم، وعندما يستهان بالعلم، وأهله، فاعلم أن هذه الدولة على وشك الهدم والانهيار، وسيكون عنوانها الجهل، والظلم، والفقر، والمرض، وعندما يصمت الشعب على ظلمه فيكون من نصيبه جور السلطان، وضيق حاله المادي والمعنوي، وسوء الحال.

***

هزيمة الفرنج

هزيمة الإفرنج بـ(الأندلس) أمام عبد الرحمن بن الحكم رمضان 210هـ، سيّر عبد الرحمن بن الحكم سرية إلى (ممالك الفرنج) في سفح جبال البرنتيه، في رمضان لعام 210 هـ، وكان عليها عبيد الله بن البلنسي، فدخل بلاد الإفرنج، وتردد فيها بالغارات، والسب، والقتل، والأسر، وقاتلهم حتى انهزموا، وكثر القتل فيهم.

وفتح تلك الممالك فتحًا عظيمًا، كما فتحت جنود عبد الرحمن، بقيادة فرج بن مسرة (عامل جيان) حصن القلعة من أرض العدو، واستمر فيها بالغارات منتصف شهر رمضان، وهناك أحداث عديدة أخرى وقعت في فترة حكم الأمويون في (الأندلس) مثل:) حرب بين موسى بن موسى عامل تطيلة، وعبد

الرحمن بن الحكم رمضان 228 هـ، سرية لب بن محمد بن لب على ألبة رمضان 291هـ، والصراع والحروب بين قادة الأمويين والنصارى أمثال (ألفونسو الثالث، وسانشوا الأول ملك نافارا).

ثورة عمر بن حفصون

جعلت الظروف العصيبة التي عاشتها الإمارة الأموية الطامعين في الحكم يدعمون أي شخصية يرون فيها القدرة على إعادة الإمارة إلى مكانتها السابقة داخليًا وخارجيًا، فكان عبد الرحمن الثالث أنسب شخص رأوه، وهكذا نفذت إرادة جده الأمير عبد الله الأول أبو عبد الله محمد بن عبد الله دون معارضة الأعمام، وبقية أفراد العائلة، وبويع عبد الرحمن الثالث في قرطبة في اليوم نفسه الذي توفي فيه جده، يوم الخميس في 16 تشرين الأول 912م، وكان لا بد من سحق الثورات، والقضاء على زعمائها؛ لاستتباب الأمن، لذلك؛ وضع عبد الرحمن برنامجًا استند إلى مبدأين:

1 – التأكيد على التسامح، وإسقاط كافة الجرائم، التي اقترفت بحق الدولة في حال إعلان الولاء للسلطة المركزية.

2 – الوعيد، والإنذار بالقضاء على الثائرين، والعابثين من البلاد، والمتحالفين مع القوة الأجنبية.

وقد وجد عبد الرحمن استجابة من بعض الثائرين، إلا أن عمر بن حفصون وحلفاءه ظل متجاهلًا نداءه؛ مما دفع بعبد الرحمن إلى تجريد حملات عسكرية لسحقه؛ فهاجمهم في معاقلهم، ثم انتقل للقضاء على إمارة (بني حجاج) في إشبيلية، وبني ذي النون في الثغر الأعلى.

الثورة في عيون المؤرخين

ورد عند ابن عبد ربه في (العقد الفريد): «ثم ولي المنذر بن محمد يوم الأحد، لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، ومات يوم السبت في

غارة له على بربشتر لثلاث عشر، بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، وهو ابن ست وأربعين، وكان أشد الناس شكيمة، وأمضاهم عزيمة، ولما ولي الملك بعث إليه أهل كلكلة بجبايتهم كاملة، فردها عليهم، وقال: استعينوا بها في حربكم، فإنا سائر إليكم إن شاء الله، ثم غزا المارق المرتد عمر بن حفصون، وهو بحصن قامرة، فأحدق به، وبخيله ورجله، فلم يجد الفاسق منفذًا، ولا متنفسًا فأعمل الحيلة، ولاذ بالمكر والخديعة، وأظهر الإنابة، والإجابة، وأن يكون من مستوطني قرطبة بأهله وولده، وسأل إلحاق أولاده في الموالي، فأجابه الأمير على كل ما سأل، وكتب لهم الأمانات، وقطع لأولاده الثياب، وخرزت لهم الخفاف.

ثم سأل مائة بغل يحمل عليها ماله، ومتاعه إلى قرطبة، فأمر الأمير بها، وطلبت البغال ومضت إلى ببشتر، وعليها عشرة من العرفاء، وانحلّ العسكر عن الحصن بعض الانحلال، وعكف القاضي، وجماعة من الفقهاء، على تمام الصلح فيما حسبوا، فلما رأى الفاسق الفرصة انتهزها، ف - فسق ليلًا وخرج، فلقى العرفاء بالبغال فقتلهم، وأخذ البغال وعاد إلى سيرته الأولى، فعقد المنذر على نفسه عقدًا ألا أعطاه صلحًا ولا عهدًا، إلا أن يلقى بيده وينزل على عهده وحكمه، ثم غزاه الغزاة التي توفى فيها، فأمر بالبنيان والسكنى عليه، وأن يرد سوق قرطبة عليه فعاجله عن ذلك». وفي عام 929م ضم بطليوس إلى (الدولة الأموية)، وأعاد طليطلة إليها في آب 932م، كما عادت مناطق الثغر الأعلى، وانتهت بذلك النزاعات الدموية التي عاشتها الدولة في تلك الفترة.

***

تعلم من التاريخ صفات القيادة

من صفات القيادة الحزم في الأمور الصعبة، سرعة اتخاذ القرار، والدراية بكيفية إدارة الأزمات، وإيجاد الحلول التي تناسب الجميع، وتكون بين الشدة واللين، وذلك لتحتوي الثائرين وتضرب بيد من حديد على المفسدين، ولكن

ليكن ذلك من أجل بناء الدولة، لا من أجل بناء العروش على حساب طموح وأحلام الشعوب.

***

نهاية حكم الأمويين في (الأندلس)

في أوائل 929م لقب عبد الرحمن نفسه بـ(أمير المؤمنين)، وأضاف إلى اسمه اللقب الشرفي: (الناصر لدين الله)، واستمر هذا اللقب في عهده وعهد خلفائه من بعده، حتى قضى على دولة الأمويين في عام 1031م، وبهذا خرج عبد الرحمن الناصر عن الأصل النظري للمذهب السني للخلافة، القائل بأن الخلافة بوصفها مؤسسة دينية، ودنيوية لا يمكن أن تتجزأ، إلا أنه وضع هذا العمل في موضع الاجتهاد، وأجاز الفقهاء السنة بتعدد الخلافة؛ في حالة وجود مصلحة عامة للمسلمين، خلف الحكم المستنصر والده عبد الرحمن الناصر لدين الله، وبايعه في اليوم التالي لوفاة والده في قصر الزهراء إخوته وسائر الوزراء ورجال الدولة وكبار قادة الجند، وعمل الحكم المستنصر على عدم تغيير القواعد السياسية التي وضعها والده، واستمر على نهجه في الحكم، لكنه لم يكن بحزم والده وقوته؛ مما دفعه إلى إلقاء العبء على وزيره جعفر بن عثمان المصحفي فقد واجه بداية حياته السياسية مشكلة تحديد العلاقة مع الممالك والإمارات النصرانية في شمال (الأندلس)، من واقع التقلبات السياسية السريعة لملوكها وأمرائها، وكانت هذه العلاقة تتخذ منذ أواخر عهد عبد الرحمن الناصر طابعًا وديًا، وبخاصة مع الملك الليوني شانجة، ولكنها انقلبت إلى عدائية بعد وفاته، وتقرب (أوردیو الرابع) منافس شانجة المخلوع من الحكم المستنصر، وحصل منه على وعد بمساعدته لاسترداد عرشه، فبادر شانجة فورًا بإرسال سفارة إلى قرطبة، قابل أعضاؤها الحكم المستنصر.

وأبدوا أمامه رغبة ملكهم بالاعتراف بحكمه، والتعهد بتنفيذ الاتفاقية التي وقعت مع عبد الرحمن الناصر، فاكتفى الحكم المستنصر بما تعهد به الملك الليوني،

الذي نكث مرة أخرى، بعد موت أردونيو، بما تعهد به للحكم المستنصر، وتكوين حلف ضده يجمعه مع ملك قشتالة، وأمراء نبرة، وبرشلونة، ومن جهته نهض الحكم لمواجهة موقف النصارى المعادي في الشمال، فأعلن التعبئة العسكرية في البلاد، وقد حققت الانتصارات الإسلامية الأمان لمناطق الحدود، من واقع فرض الهدنة على الممالك النصرانية، وأرسلت الممالك والإمارات سفارات إلى قرطبة، إما بهدف المساعدة، أو لتجديد الصداقة والمودة.

***

كأنك ترى

السلام بدون قوة تحميه فهو استسلام، وعدم استغلال السلام في البناء، والنهضة، وخير الشعوب، سيكون ذلك بمثابة خنوع واستسلام، فقراءة عدوك وسيفك القاطع دومًا على رقبته يجعله يحترمك ويخضع لك دومًا، فها هو الموقف التاريخي السابق والسياسة المتغيرة دومًا، ونقض العهود، والاستهانة بها صفة دائما لأي عدو، فهو يخضع، ويحترمك عندما تكون أقوى منه وسيفك يسبقه دومًا، ويستهين بك في ضعفك، ويتصيد الفرصة دومًا من أجل اقتناصك وأخذ مكانك ومكانتك، فهكذا هي حال السياسة دومًا، واليوم نرى تحولت عزتنا هذه إلى انكسار في القيمة والمكانة، وتحولت العديد من الدول إلى أداة في يد الغرب! فالغرب يفرض السلام وقتما يشاء، ويشعل الحرب وقتما شاء؛ لأننا فقدنا القضية والسيف الحاد العادل، بعدما كانت الكلمة كلمتنا والرأي الأول لنا، وليت التاريخ يعود.

***

انتقل الحكم المستنصر من قصر الزهراء إلى (قرطبة) بعد أن أصابه المرض، وعين ابنه هشام البالغ من العمر أحد عشر عامًا وثمانية أشهر وليًا لعهده في 5 شباط 976م، فكان أكبر خطأ اقترفه الحاكم المستنصر بحق ولده والدولة

معًا، مع وجود أمراء آخرين مؤهلين لتولى الحكم؛ فقد فرضت وصاية محمد بن أبي عامر الإلزامية على هشام، فهيمن هذا القائد على مقدرات الدولة، ولم يكن للخليفة هشام غير الاسم، وانتقل حكم الدولة من الأسرة الأموية إلى الأسرة العامرية، وبذلك انتهى حكم (بني أمية) لـ(لأندلس) عمليًا بوفاة الحكم المستنصر، وبدأ عهد الأسرة العامرية التي استمدت شرعيتها من حماية الخليفة هشام والحكم باسمه.

***

عبرة من التاريخ لأصحاب السلطة

عندما يسند الأمر لغير أهله، ويفضل الولد على مصلحة البلاد والشعوب، ويتملك الهوى ممن بيده الأمر، ويفضل مصلحته ومصلحة أهله على الحق وأهل الكفاءة، يكون الثمن غاليا، وهو السقوط للجميع، ويتدهور حال الشعوب، وتصنع الأزمات، وينقلب الحق باطلًا، والباطل حقا، ويعم الظلم في الأرجاء، ويصبح الحق ضائعًا، يقدم سوء الظن، ويغيب الفهم، وتتحجر العقول، ويستقوى المنافقون، ويغتر بهم ضعيف الهمة وصغير العقل، فعندما تختار فاختار أهل الحق، والعلم، والكفاءة، واعلم، فمن عمل لله، تولاه الله.

***

وقد استمرت (الدولة الأموية) في (الأندلس) رسميًا حتى عام 422 هـ/ 1031م، حيث سقطت الخلافة وتفككت إلى عدد من الممالك؛ بعد حرب أهلية بين الأمراء الأمويين الذين تنازعوا الخلافة فيما بينهم؛ مما أدى بعد سنوات من الاقتتال بـتفكك الخلافة إلى عدد من الممالك المستقلة.

***

كأنك ترى دروس التاريخ بعينك

المظالم والخلافة الأموية في (الأندلس)، وقد عرفت (الخلافة الأموية) في (الأندلس) وجود بعض المظالم في العصر الأموي، التي كانت سببًا من أسباب زوال دولة بني أمية في (الأندلس)، بالإضافة إلى تغير نمط الحياة الاجتماعية في العديد من المدن (الأندلسية)، خاصة (غرناطة)، فغرق أهلها في ملذات الحياة، واتباع الشهوات، وشهدت حياتهم الكثير من المجون والإسفاف، والابتعاد عن المنهج الصحيح للدين الإسلامي، كل ذلك دفع بالأمويين إلى الإسراف في المظالم والمعاصي، فأدى ذلك إلى انتهاء الخلافة الأموية في (الأندلس)، وقيام الطوائف، وتشتت المسلمين، وتسليم أمرهم لحكم (بني الأحمر) لهم، الذين كانت على يدهم نهاية الدولة الإسلامية في (الأندلس)، فنرى الظلم الإنساني، والاجتماعي يملأ بلدان الأمة الإسلامية. والتشتت والفرقة سمة بينهم، الحداثة والإسراف فيها بدون وعي، وعدم التمسك بالعقيدة وموازنة الأمور، وفساد الأخلاق، وانتشار المعاصي في الطرقات، وتسليم أمر الأمة لغير أهله، والاستعانة بالغرب على بعضهم بعضًا، كل هذا نراه بأعيننا الآن، وكأننا نعيش عصر نهاية دولة بني أمية في (الأندلس)، فالآن نعيش عصر الإذلال والخضوع للغرب، فنحن أمة ننتصر بطاعة ونهزم ونذل بمعصية، فنصرنا ليس بالعدد أو بقلته؛ إنما بالإيمان بالله وحب القضية والإخلاص للعقيدة والأمة.

***

عهد الحجابة

يعد المؤرخون هذا العهد امتدادًا لعهد (الدولة الأموية)، وجاء نتيجة تعاظم نفوذ الوزراء في أواخر هذا العهد؛ حتى تمكن الحاجب محمد بن أبي عامر المنصور، وهو قائد الشرطة في (قرطبة) من إزاحة الخليفة الصغير هشام بن الحكم عن أمور الحكم، فلم يعد له سوى اسم الخليفة، وفرض المنصور سيطرته

على بلاد (الأندلس)، لكن أبناءه لم يحافظوا طويلًا على إنجازاته، فخسروها لصالح ملوك الطوائف.

تولى محمد بن أبي عامر السلطة، وتوج نفسه بلقب (المنصور بالله) ونقش اسمه على النقود، وأمر بترديده على المنابر عقب الدعاء للخليفة، ولم يرفض درجة الحجابة، فعرف بـ(الحاجب المنصور)، وأمر أن تخضع اللقاءات والمقابلات إلى قواعد صارمة، منها تقبيل يده ومناداته بمولاي، وفي عام 996م ضم إلى ألقابه لقبين آخرين هما [السيد – والملك الكريم].

وفي عام 991م رشح الحاجب المنصور ابنه عبد الملك لولاية العهد من بعده، وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة، وقلده منصب الوزارة، وهيمنت الأسرة العامرية على مقدرات الخلافة الأموية حتى عام 1009م.

***

تعلم من التاريخ واجعل طموحك لا حدود له.

شخصية الحاجب المنصور المليئة بالطموح، جلبت عليه سخرية رفاقه حين أظهر لهم اعتزازه بنفسه، وتطلعه إلى حكم (الأندلس)، وقيادة الجيش، وبحسب ما ذكره الوزير والمؤرخ (الأندلسي) لسان الدين بن الخطيب في كتابه (أعمال الأعلام): «فإن الحاجب المنصور في طريق رحلته إلى قرطبة، أخبر رفاقه الذين صحبوه في سفره، بأنه لم يأت لطلب العلم فقط، إنما ليصبح حاجبًا (الرجل الثاني في الدولة)، بل إنه تخطى ذلك حين قال: سأملك (الأندلس) وأقود العسكر وينفذ فيهما حكمي».

وبقية القصة يذكرها لسان الدين بن الخطيب قائلًا: «طلب محمد بن أبي عامر من زملائه حين سخروا منه أن يتمنوا عليه، فطلب الأول ولاية قرطبة، وطلب الثاني توليته حسبة السوق، وطلب الثالث قضاء ولاية كورة، أما الرابع فتطاول عليه بالكلام البذيء، تقول الرواية في صفحاتها الأخيرة أنه لما وصل لمنصب

الحاجب، حقق لرفاقه القدامى أمنياتهم، عدا الأخير الذي غرمه مالًا باهظًا».

اجعل حلمك حقيقة في عقلك، صدقه بكل جوارحك، ابتعد عن المثبطين، واجعل التفاؤل وأهله أصدقاءك، ثق بالله وبنفسك وبقدراتك، واجعل العزم والإرادة عنوانك، والثقة بالله داخلك وثقتك بنفسك تملؤك، وكن عزيزًا معتزًا بذاتك، وامض وتوكل على الله، واسع واجتهد، وستصل لمرادك، كما وصل الحاجب المنصور لحلمه وهدفه!

***

تتميز هذه المرحلة من مراحل حكم خلفاء بني أمية في (الأندلس) بكونها، مرحلة قوةٍ وازدهـار على الصعيدين (السياسي - والحضاري)، وذلك على الرغم من كون الخليفة في هذه المرحلة مجرد لقبٍ مفرغ من مقوماته ودلالاته، حيث تراجعت في هذه المرحلة ما يعرف بدولة (إسبانياً النصرانية) ودخلت في مرحلةٍ مظلمةٍ من الضعف، ويرجع ذلك في الأساس لعمل الحاجب المنصور على تقوية الجيش (الأندلسي) وتطويره، كما تميز حكم بنو عامرٍ عمومًا، وعلى الرغم من انتزاعهم السلطة والحكم، بإشراكهم رجالات (الأندلس) الأكفاء في أمره وإدارته، ظلت هذه الفترة متسمةً بما سبق من صفاتٍ وميزاتٍ، ثم تسير إلى الأفضل شيئًا فشيئًا.

***

تعلم من التاريخ عندما يحكم أهل العلم.

وكان من حظ (الأندلس) أن يمتلك الأمر رجل مثل المنصور؛ مما كان سببا في بقاء وجودها وإثبات عظمتها لمدة من الزمن، بعد أن كادت تضعف وتسقط؛ وذلك لأنه رجل علم وفهم، فعمل بما تعلم وفهم، ففلح في الأمر والإدارة، ونجا بالمركب قبل الغرق.

فليس المهم المسميات، ولا الشكل، ولا نظام الحكم، ولكن ما يهم الدول

والشعوب الأداء ومستوى المعيشة، والنهضة والبناء، والحفاظ على قيمة ومكانة الدولة ورفعتها، حيث كانت أول تلك الخطوات هو تحطيم سطوة (الفتيان الصقالبة)، وهم جنود استقدمهم خلفاء بني أمية في (الأندلس) من عدة ممالك أوروبية؛ لتشكيل حاشيتهم، والدفاع عنهم، بَيْدَ أنهم أصبحوا قوة مسلطة على رقاب المجتمع (الأندلسي)، فتخلص منهم بمساعدة الحاجب جعفر المصحفي، حاجب الخليفة الحكم المستنصر، وبعد أن فرغ ابن أبي عامر من الصقالبة، توجه إلى المصحفي نفسه، فقد كان يرى فيه سببًا من أسباب الفساد في الخلافة، فتحالف مع قائد الجيش غالب الناصري، الذي كان خصمًا لدودا للمصحفي حتى تخلص منه، ومع إزاحة المصحفي، جلس ابن أبي عامر على كرسي الحجابة، وصيًا على عرش خليفة صغير لا يحسن التدبير، فاستمال ابن أبي عامر قلوب فقراء (الأندلس)، بتوزيع الأموال، مستعينا في ذلك برواج التجارة، وخزينة الدولة القوية، حتى أصبح دولة داخل (الدولة الأموية)، وتسمى بالحاجب (المنصور(، فنجح المنصور في إدارة شؤون البلاد الاقتصادية، وشهدت البلاد في عهده رواجًا اقتصاديًا، وزاد دخل الدولة حتى بلغت الضرائب العادية في أواخر عصره 4,000,000 دينار، بل وبلغت جباية قرطبة وحدها في عهده 3,000,000 دينار.

***

قالوا عنه

وقال عنه الفتح بن خاقان في كتابه (مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس: «أنه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتدٍ بقاع، ووالى على بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغص بالحمام أرواحهم، ونغص تلك الآلام بكورهم ورواحهم». انتهى كلام الفتح بن خاقان.

ويصف المؤرخ (الأندلسي) ابن عذاري، في كتابه (البيان المغرب في أخبار

الأندلس والمغرب) فتوحات الدولة العامرية قائلًا: «غزا محمد بن أبي عامر في حياته 54 غزوة، لم يهزم أبدًا في واحدة منها»، حتى إنه يوصف في التراجم المسيحية بأنه أحد أعظم من حكم (الأندلس)، وهز عروش الممالك المسيحية على الإطلاق، يقارن المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان في موسوعته (دولة الإسلام في الأندلس) بين أقوى خلفاء بني أمية الخليفة عبد الرحمن الناصر، وبين الحاجب المنصور: «إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة في تاريخ إسبانيا الإسلامية، فإن عهد المنصور لا يقل لمعانًا وتألقًا، بل ربما امتاز على عهد الناصر؛ بما أحرزه من تفوق في السلطان والقوى العسكرية، وقد لقي الناصر نفسه على يد النصارى أكثر من هزيمة فادحة، أما المنصور، فقد انتهت إسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من الضعف والتفكك، وقد وصل إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل».

***

أدرك المنصور أن دولة الإسلامية في (الأندلس) لن تهنأ بحضارتها واقتصادها المزدهر، ما لم تكبح أطماع الممالك الإسبانية في الشمال على الحدود بين (فرنسا) و(إسبانيا)، مثل ممالك (ليون، وقشتالة، ونافارا، وجيليقية، وبرشلونة) التي كانت تغير على حدود الخلافة، فقاد بنفسه تلك الحملات الحربية التي لم تنقطع عن تلك الممالك صيفا الصوائف، أو شتاءً، الشواتي، وكان النصر حليفه في تلك الحملات التي بلغ عددها 57 حملة، حتى دانت له تلك الممالك بالطاعة، وبات اسمه مصدرًا للفزع لتلك الممالك وسائر أوروبا، حتى إن البابا في روما كان يعقد الصلوات من أجل صب اللعنات على هذا القائد المسلم الفذ.

***

تعلم كيف تُبنى الدول بفكر القادة وبهمة الأبطال.

اسمه كان كفيلا بإنزال الرعب في ممالك أوروبا خلال العصور الوسطى، بلغت الحضارة (الأندلس) في عهده أسمى مراتب الأبهة والعظمة، جعل من

مدينة قرطبة عاصمة للدنيا وقبلة العلم، حتى أطلق على عصره (ربيع قرطبة)، ضرب به المثل في تحقيق الغاية وعلو الهمة، أينما تولى كان النصر في ركابه، لم يخف من أحد، بمكر وذكاء أخضع الداخل والخارج، وحافظ على حقوق الفقراء، يكره الظلم وينشر العدل، ويداهم أوكار الفساد بجرأة وسيف قاطع، ويضرب الظالمين بالظالمين من أجل أن يبني بناء متينا، ودولة قوية خالية من المكر وأهله، وفساد الحاشية وظلم الجاهل.

هكذا كانوا رجال على العلم تربوا، وعلى العزة نشأوا، وعلى قضية عاشوا، فماتوا رجالا وصنعوا نهضة وتاريخا، ووضعوا بصمة لهم في الحياة، فكن أنت مثل هؤلاء.

***

وفي العمارة توسع المنصور في بناء المسجد الجامع بـ(قرطبة) حتى أصبح درة فريدة في تاريخ العمارة الإسلامية، وأعاد تجديد قنطرة قرطبة، وشيد مدينته الملكية المعروفة بـ (الزاهرة) التي نقل إليها دواوين الدولة، قاد الحاجب المنصور آخر الحملات العسكرية ضد الممالك النصرانية في الشمال في عام 1002م، وأثناء العودة إلى قرطبة مرض وتدهورت صحته عندما وصل إلى مدينة سالم الحدودية، وتوفي في ليلة السابع والعشرين من رمضان عام 392ه، ودفن في صحن قصر هذه المدينة بناء على وصيته.

***

تعلم من عظماء التاريخ

لا تغرنك الدنيا عندما تعطيك ملكًا أو مالًا أو علما، فاعرف أن كل شيء سيزول حتى أنت، فاجعل همك دار الحقيقة واليقين، وهي آخرتك ولقاؤك بالله، فاجعل نعمك سببًا في طاعتك وتقربك من الله، اجتهد لتضع بصمتك وتصنع مكانتك، واجعلهم سبيلا للفلاح في الدنيا ونجاة في الآخرة، ولكن لا يشغلك

الطريق وتأخذك العزة بالنفس، وتنسى أنك إنسان يوشك أن تصل، اجعل نعمك سببًا في عظمتك في الدنيا والآخرة، هكذا علمنا درس الحاجب المنصور، وكان المنصور إثر كل حملة يقوم بها، يأمر بأن يؤخذ ما علق في ثيابه من غبار المعارك. حتى تجمع له صرة عظيمة من الثرى، فأمر بأن تنثر عليه في قبره، ووضع على القبر لوحة رخامية نقش عليه تلك الأبيات:

آثـــاره تنبيك عــن أخـبــاره حتى كـأنـك بالعيان تــراه
تــالله لا يــأتي الــزمــان بمثله أبــدا ولا يحمى الثغور سواه

***

ثم بدأت هذه الفترة تسير في مراحل الضعف والانهيار، وذلك حينما وصل عبد الرحمن المنصور ابن الحاجب المنصور والشهير (بشانجول) إلى مقام الحجابة والحكم الفعلي، فأمر الخليفة الأموي على حين طمع أن يعينه وليًا للعهد، ما عجل بثورة (الأندلسيين) بقيادة محمد بن هشام الأمويّ، فقتلوا (شانجول) وعزلوا الخليفة من مقامه، وبهذا سقطت دولة بني عامر، ولتدخل (الأندلس) بعدها فتنة عمياء، تعرف بالفتنة الكبيرة أو الكبيرة، ونتيجةً لذلك؛ تنتهي حكاية خلفاء بني أمية في (الأندلس) مع حلول العام 1031 للميلاد، وكانت الفترة ما بين مقتل (شانجول) وانهيار الخلافة الأموية في (الأندلس) قد شهدت أربع عشرة خليفة، بين أموي وبربري، وذلك نتيجةً للفتنة المذكورة، وفي عام418 بدأت الدولة تضعف، فسقطت (الدولةالأموية) بعدما أغرقتها الدماء، وتمزقت أوصالها من كثرة الصراع على الحكم، وظهرت حقبة ملوك الطوائف بإعلان كل أمير نفسه خليفة لإمارة صغيرة، وبذلك كانت بداية النهاية لسقوط (الأندلس) وفقدان فردوس المسلمين الضائع.

***

ملوك الطوائف

بعد انتهاء حكم الأمويين في (الأندلس) في عام 422هـ تقريبًا بدأ عهد ملوك الطوائف، وهذا العهد تندرج فكرته من مسماه، والطوائف، هي عبارة عن المدن الموجودة في (الأندلس) التي كان يحكمها الأمويون سابقًا، وبدأت هذه الفترة بعد أن عزم أمراء (الأندلس) على إنشاء دويلات يحكمونها بشكلٍ فردي، أي يحكم كل مدينة أمير، وهذه المدينة أصبحت على شكل دويلة منفصلة عن الدويلات الأخرى، سيطرت على كل مدينة عائلة أسست فيها إمارتها، وبلغ عدد الإمارات أكثر من عشرين، ومن أشهرهم (بنو عباد في إشبيلية، وبنو جهور في قرطبة، وبنو زيرى في غرناطة، وبنو هود في سرقسطة، وبنو حمود في مالقة) وغيرهم.

❊ ❊ ❊

تعلم من التاريخ لتفهم واقع الحاضر

إذا غابت القضية، وتملك الهوى من الناس، ووصل الحكم لضعيف العقل، ومعدوم الهمة، ومتبع الهوى، وفاقد الهوية، سيكون همه السلطة وشهوة الحكم، وتكون سمات عصره، مصلحته الشخصية أولى من المصلحة العامة، والأصعب إذا فقد في داخله قضايا أساسية، ففضل القومية عن مفهوم الأمة، وفضل الشكليات عن الهوية، وفضل العادات والتقاليد عن الحلال والحرام، واستعان بالجاهل وبالعدو على أخيه في الدين، فاعلم أن الانهيار قريب، والفتنة والجهل ستصيب الجميع، ويكون الهوان وحب الدنيا عن الآخرة هو القضية، وغياب الضمير والأخلاق صفة سائدة، وستكون كلمة العدو هي العليا، وكلمة هؤلاء هي السفلى، لأن الفرقة من نصيبها الضعف، والانقسام من نصيبه الفقر، وحب السلطة من نصيبه الجهل وفقر العلم، فكأننا نرى واقع وحال أمتنا في بدايات حكم ملوك الطوائف، فهل من معتبر قبل فوات الأوان، ويكون المصير نفس المصير.

❊ ❊ ❊

كان هناك العديد من الدويلات التي قامت في (الأندلس) في عهد ملوك الطوائف، من هذه الدويلات – فيما يأتي – دويلة قرطبة، حكم هذه الدويلة آل جهور، وهؤلاء هم من أوائل المشاركين في فكرة إلغاء الخلافة الأموية في (الأندلس)، وتولى حكم قرطبة جهور بن محمد، وفي عهده عمل على استقرار الدولة وعزز اقتصادها، وبذلك مهد لخليفته في الحكم دولة قوية، وبالفعل بعد 13 سنة من الحكم في قرطبة جاء الوليد ليحكم قرطبة بعد وفاة أبيه جهور بن محمد الذي أراد فيما بعد أن يكون نظام الحكم في قرطبة عن طريق الوراثة.

دويلة (إشبيلية)، هذه الدويلة قامت على يد إسماعيل بن عباد بعد أن ألغيت الخلافة الأموية في (الأندلس)، لكن إسماعيل بن عباد لم يستمر في حكم (إشبيلية) لتقدمه في السن، ولكن فيما بعد أصبح الحكم عن طريق مجلس يدير الأمور في قرطبة، حتى انفرد في حكم إشبيلية أبو القاسم بن محمد بن إسماعيل.

❊ ❊ ❊

كأنك ترى حكام الأمس في حال حكام اليوم

من ملوك الطوائف المعتمد بن عباد ملك (إشبيلية)، الذي عقد حلفا مع ألفونسو ملك قشتالة؛ وذلك لحمايته وحماية ملكه، كان المعتمد بن عباد يدفع الجزية إلى ألفونسو مقابل الحماية، بدأت الجزية من عشرة ألف مثقال من الذهب الخالص، إلى أن وصلت إلى ثلاثين ألف مثقال في السنة، أي ما يعادل مئات المليارات في عصرنا الحالي، كان المعتمد بن عباد لا يستطيع أن يخالف قولًا للملك الصليبي ألفونسو، وقد كان يتعمد الملك ألفونسو إهانة المعتمد، حتى إنه طلب منه ذات يوم ألا تلد زوجته (زوجة المعتمد بن عباد) إلا في مسجد قرطبة، فقد كان ألفونسو يؤمن بالتنجيم، وكأننا نرى حال حكام الأمس في حال اليوم، من حيث علاقة (أمريكا) وقيادتها، والغرب مع حكام الشرق ومدى طاعتهم وإخلاصهم المطلق للغرب وحكامه!

❊ ❊ ❊

دويلة (طليطلة)، كان لموقع طليطلة أهمية كبيرة؛ لأنها تعتبر الحد الفاصل بينها وبين الممالك الأخرى، وقد حكمتها قبيلة من قبائل البربر، وهم (بني ذي النون) وأول حكام إشبيلية هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون، لكن مدينة (إشبيلية) تعرضت لخطر (مملكة سرقسطة) قبل خطر (الممالك النصرانية)، وهنا تبدأ عمليات طلب المساعدة من الممالك النصرانية حتى يتم التصدي لخطر مملكة سرقسطة، وتم ذلك بالفعل.

***

كأنك ترى حال الأمس في واقع اليوم

كان الملوك النصارى يهينون ملوك الطوائف، ولا يرد أحد من ملوك الطوائف بكلمة، وهو (ترامب) اليوم يهين كل يوم الشرق وحكامه، ولا يستطيع أحد منهم أن يرد بكلمة، ملوك الطوائف في (الأندلس) كانوا متناحرين فيما بينهم، يسعى كل ملك للسيطرة على مملكة الآخر، وأن يضمها إليه ليصبح صاحب اليد العليا والأقوى في (الأندلس)، حكام الأمة اليوم متناحرون فيما بينهم، يسعون للسيطرة، والسيادة، والوصاية على بعضهم وعلى الدول العربية الأخرى، وأن يظلوا هم فقط أصحاب الأيادي العليا، والأقوى في الدول العربية والإسلامية، فتفرق الجمع وساد الجدال والتشكيك، واستفاد الغرب، وضاعت الهمم والثروات، وتفرقت الشعوب، واتحد الغرب على مبدأ نهب خيرات الشرق في ظل الصراع والجدل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

***

دولة (سرقسطة)، كانت دويلة سرقسطة قبل أن يسقط الحكم الأموي في (الأندلس) يحكمها المستعين بالله سليمان بن الحكم الذي بقي يحكم سرقسطة حتى وفاته عام 420 هـ، واستمر أبناء المستعين بالله في حكم سرقسطة حتى يحيى بن المستعين بالله، وانهار حكم الأسرة على يد عبد الله بن حكيم الذي لم يكن

محمود السيرة عند أهل سرقسطة الذين قتلوه لأفعاله المنافية إلى أن استقر الحكم لبني هود بعد صراعاتٍ كثيرة.

* * *

عبرة من التاريخ

لكل ظلم نهاية، ولكل ظالم كأس يشربه من نفس كأس ظلمه، فمهما الشعوب صمتت عن الظلم، فلا بد يومًا أن تنفجر في وجه الظالم، مهما استقوى أهل الباطل ببعضهم بعضًا، وظنوا أنهم لم يهزموا، وتمالك اليأس من أهل الحق، يأتي الفرج من أبسط الأمور التي لم يتخيلها أحد، فتنفرج ويفرح أهل الحق بنصر الله، ويتباكى الظالم على نهايته وظلمه؛ لأن الحق باقٍ والباطل مهما طال، فمصيره الزوال.

* * *

قامت ملوك الطوائف على أساس التفريق، والتنافس، والصراع الداخلي والخارجي، بحيث كانت كل دولة لها شأن خاص بها من حيث شكل الحكم الذي كان وراثيًا في أغلب الدويلات، وهذا بحد ذاته يشكل نقطة كبيرة في موضوع الصراع على الحكم، والصراع تجذر بفعل التنافس بين هذه الدويلات، فكل دولة تحكمها أسرة مختلفة عن الأخرى، وكان لهم طموح كبير في السيطرة على ما يجاورهم من الدويلات الإسلامية، كان تطمع دولة (إشبيلية) للسيطرة على دولة قرطبة، هذا الأمر الذي سهل على الممالك المسيحية مهمتها في السيطرة على دويلات الطوائف؛ لأن الأسر الحاكمة لكل دولة من دويلات الطوائف كانت تستعين بالحكام النصارى لمساعدتها ضد الدويلة المتنازعة معها، أو التي تتطلع للسيطرة عليها.

* * *

كأنك ترى وتعيش هذا العصر في الحاضر

كأننا نرى التاريخ يتكرر أمام العيون، وأشبه الليلة بالبارحة، نستطيع القول بأن ظروفنا ونظم الحكم، والكثير من أهله هم (ملوك الطوائف) في القرن الواحد والعشرين، ملوك الطوائف كانوا يدفعون الجزية مقابل الحماية، واليوم العديد من دول الأمة يدفعون الجزية مقابل الحماية! ملوك الطوائف في (الأندلس) كانوا يستعينون بالصليبيين على بعضهم، والعديد من حكام اليوم يستعينون بالغرب على بعضهم وعلى إخوانهم من العرب والمسلمين!

***

كانت أوضاع دويلات الطوائف الاقتصادية تضعف شيئًا فشيئًا؛ لأن كل دولة كانت تستنزف مواردها الاقتصادية في الحروب الداخلية مع غيرها من الدويلات، وأيضًا بالتحالفات مع الممالك النصرانية، هذه الأسباب كانت كفيلة بسقوط دويلات الطوائف تحت سيطرة الممالك النصرانية، التي قامت على أساس الوحدة فيما بينهم، الأمر الذي مكنهم في نهاية الأمر من السيطرة على آخر معاقل المسلمين في (الأندلس)، وهي غرناطة التي حكمها بنو الأحمر من عام 629 هـ حتى عام 897 هـ، وسقطت هذه المملكة بعد تسليمها من قبل أبي عبد الله الصغير إلى ملوك الكاثوليك.

***

حقائق تاريخية لم يذكرها إلا القليل في حق ملوك الطوائف

التفاؤل والأمل رغم ضعف الحال وظلمة الوضع، فرغم ذلك إلا أن هناك دومًا بصيصا من نور وفيضا من الأمل، وسبيلا للعبور رغم ضيق الأحول، فكان نور ملوك الطوائف منابر العلم والثقافة التي أنارت الطريق للعالم بشرقه وغربه، ومن هذه الأمثال والحقائق ما يلي:

بالرغم من المآسي السياسية وبؤس حالها، إلا أن (الأندلس) لم تشهد فترة أكثر إشعاعًا، وتوهجًا بالإنتاج الثقافي، والفكري كالذي حدث إبان عهد ملوك الطوائف، لقد شهد عصر ملوك الطوائف تمزقا، فعلى الرغم من التمزق في الوحدة السياسية، وتعاظم العصبية بين ملوك الطوائف، إلا أن الحياة العلمية والثقافية والفكرية كانت على نقيض الحالة السياسية، وقد جاءت هذه النتيجة كحتمية تاريخية؛ نتيجة لميراث الحضارة (الأندلسية) العلمية الزاخرة، وتراكم المعارف من جهة، وكان السبب في تنافس ملوك الطوائف يكمن في محاولتهم لإضافة الشرعية التنافسية، وتعظيم الإمارات فكريًا من جهة أخرى، ولعلنا نجد الآن بعض دول الشرق تتبنى هذه الفكرة، ليس من أجل العلم الحقيقي، ولكن لإضفاء الشكل والمسمى فقط، وتنفق الملايين على ذلك، ونراه في واقع مجتمعاتنا بأعيننا، وكما قالت بعض الأمثال «رب ضارة نافعة»، فقد حدث أن النزاع العسكري والسياسي انعكس بشكل محمود على طبيعة التنافس الثقافي والفكري بين الطوائف، فكل زعيم دولة من دويلات (الأندلس) اهتم بالعلماء، ودعمهم كضرورة ملحة للتفاخر، والظهور بهالة الرياسة، فقد كان لكل ملك منهم نزعة استقلالية عالية في الاهتمام بالفقهاء، والعلماء، والشعراء؛ مما أدى لإنتاج غزير وغني لأمهات كتب الأصول، والعلوم، والمؤلفات الضخمة، عند قادة الفكر (الأندلسي) الذين أثروا المكتبة الفكرية الإسلامية ككل، ورغم فكرة مقاربة الملوك للعماء وإعطائهم العطاية، إلا أنه كانت هناك حالات من المفكرين تسخط على الوضع، وتواجه هؤلاء الحكام، ولو يكونوا دائمًا في صف السلطة الحاكمة، حتى وإن حاول زعماء الطوائف استخدامهم، صحيح أن كثيرا من العلماء تبنوا مبدأ الواقعية في عدم مواجهة أو معارضة أنظمة الطوائف السياسية، إلا أن كثيرا منهم كانوا في مواجهة دائمة مع الحكام؛ وذلك لما يرونه من واقع أليم ومستقبل غير واضح.

فظهرت روح نقدية ثائرة تحذر بشدة من الاستمرار في هوان ملوك الطوائف بأقلام حرة؛ مما خلق حالة من الحراك الفكري المناوئ للسلطة، وقد دُفعت أثمان

كثيرة في سبيل ذلك، على رأسهم فيلسوف الحب الفقيه ابن حزم الذي طعن في شرعية أنظمة ملوك الطوائف بكل ما أوتي من جرأة، وقد حظي في بعض مواقفه بمساندة شعبية، ومن بينهم أيضًا الفقيه الباجي الذي نادى بضرورة الوحدة، والتعاضد، والشراكة في التصدي للخطر الصليبي المواجه في المشرق والمغرب على سواء، كما وقف في مواجهة التيارات السياسية داعيًا لوحدة الصفوف، والتصدي للنزاعات، ولا ننسى في هذا الشأن ابن عبد البر الذي وإن كان مهادنًا للسلطة في كثير من الأحيان، إلا أن له مواقف كثيرة، إلى جانب أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني وسواهم.

ولعل من أبرز علامات النضج الفكري الذي تحرر من سطوة السطلة حينذاك، دور الوساطة الدينية، التي قام بها علماء الدين عند تصعيد موقفهم بعد حادثة الزلاقة، بإصدار فتاوى فقهية تتيح لابن تشفين المرابطي تأديب المتخاذلين في (الأندلس) من حكامهم، باعتبار (الأندلس) صمام الأمان أمام خطر الحروب الصليبية المتاخمة لكل المنطقة.

***

فلنتعلم نظرية التاريخ لمجتمع ملوك الطوائف

كان هناك عدة عوامل نفسية، واجتماعية مهمة، تستنتج من خلال دراسة المجتمع (الأندلسي) آنذاك، ويمكن أن نلخصها بنظرية (التحدي والاستجابة) التي تعد من أهم نظريات فلسفة التاريخ للمؤرخ أرنولد توينبي، حيث تتناول أن الفرد عند تعرضه للأزمات سيستجيب سلبًا أو إيجابًا، ومن صور الاستجابة ما وجدناه من خصوبة ثقافية هائلة في عهد ملوك الطوائف، فقد غدت البيئة المتردية سياسيًا حافزًا مهمًا لدى مفكري (الأندلس)، وهنا شكلت أزمة الفرقة تحديًا استوجب الإجابة.

***

المرابطون الموحدون

بدأ في عصر ملوك الطوائف كما وضحنا سابقًا، ظهور خطر (الممالك المسيحية) التي كانت خطتها الاستيلاء على المدن (الأندلسية)، الأمر الذي دفعهم للتفكير بهذا الأمر؛ هو ضعف ملوك الطوائف وصراعهم الداخلي على الحكم؛ مما دفع ملوك الطوائف الاستنجاد بقوة إسلامية خارجية؛ لصد خطر (الممالك المسيحية)، وهذا يتضح عندما استنجد المعتمد بن عباد بالمرابطين الذين حققوا انتصارًا هائلًا في معركة الزلاقة، التي دارت بين المسلمين والنصارى، بعد أن انتصر يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة، بدأ فعليًا بالتخطيط للسيطرة على بلاد (الأندلس)، ويوسف بن تاشفين مؤسس مدينة (مراكش) كان له دور كبير في إنقاذ المدن (الأندلسية) من تهديد النصارى لها.

وهذا ما تم فعلًا عندما خاض معركة فاصلة في التاريخ الإسلامي، وهي (معركة الزلاقة) وانتصر فيها عام 479هـ، هذا ما مهد لـيوسف بن تاشفين فكرة السيطرة على بلاد (الأندلس) وتوحيدها مع المغرب، وكان ذلك عام 484 هـ تقريبًا، ولم ينته خطر (الممالك المسيحية) حتى بعد سيطرة المرابطين على (الأندلس)، فقد استمر الخطر إلى أن ضعفت دولة المرابطين وانتهت بقيام دولة الموحدين.

(حكم الموحدين): كان لضعف دولة المرابطين دور كبير في قيام دولة الموحدين؛ لأن هذه الدولة كانت دعوتها الأساسية توحيد الله – سبحانه وتعالى – ، ومما مكن قيام دولة الموحدين ظهور ما يخالف تعاليم الدين الإسلامي في عهد دولة المرابطين، فهو الأمر الذي دفع الموحدين أصحاب الدولة القوية في المغرب من السيطرة على ملك دولة المرابطين، بطلب من أهالي وعلماء (الأندلس)، هذا الأمر من عبد المؤمن بن علي الكومي الذي حكم الموحدين بعد محمد بن تومرت، وقد خاض الموحدون العديد من المعارك مع (النصارى الإسبان) كان من أبرزها (معركة الأرك عام 591 هـ)، وكان يقود جيش الموحدين أبو يوسف مأمون الملقب بالمنصور، وكان جيش النصارى تحت قيادة ألفونسو التاسع، وقد حلت

الهزيمة بجيش النصارى، الأمر الذي يبرهن على قوة الموحدين في ذلك الوقت، حيث إن الملك ألفونسو طلب الصلح والهدنة من المنصور، وتم ذلك بالفعل.

واستقرت الأحوال في (الأندلس) لفترة غير قصيرة، لكن مع بداية القرن السابع الهجري تحطمت قوة الموحدين بعد معركة العقاب وبدأ نجمهم في الأفول، وعاد الصليبيون لمهاجمة المدن (الأندلسية) مدينة بعد أخرى، وتوالى سقوط المدن، فسقطت (قرطبة) سنة 633 هـ، وبعدها (بياسة) و(بلنسية) سنة 636 هـ، ثم (شاطبة ودانية) سن – ة 638هـ، انتقلوا بعدها لحصار مدينة (إشبيلية)، ورغم قوة تحصينها لم تصمد المدينة طويلًا أمام المدد القوي الذي كان البابا يرسله إلى ملك قشتالة ليعينه على مواصلة الحصار، وسلمت المدينة بعد 15 شهرًا من الحصار، لكن سقوط (قرطبة، وإشبيلية، وبلنسية) أخمد روح الحماسة لدى الشعراء، ولم يبق في قصائدهم سوى بكاء المدن، وأثر الإسلام فيها، وأشهر تلك القصائد قصيدة أبو البقاء الرندي الشهيرة التي يقول في مطلعها:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأيـام كما شاهدتها دول مـن سره زمـن سـاءتـه أزمـان

عبرة من الشعراء، كأنه يحكي واقعنا الآن في قصيدته كيف، حوار بيني وبين الشاعر الرندي.

عندما رثى شاعر (الأندلس) أبو البقاء الرندي نجم دولة الإسلام في (الأندلس)، شعرت عندما قرأت هذا الشعر كأنه يرثي حال العرب والمسلمين الآن، ووصفت أنا حال أمتنا ردًا عليه. **الشاعر**:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان.

أنا: كأنه يوصف حال الكثير من دول الإسلامية، وغرورهم بنعمة الله، فلم يشكروا الله على نعمته عليهم ويحافظوا عليها، بل غرتهم الحياة ونسوا دينهم وأمتهم وقضاياها، وعاثوا في الأرض فسادًا باسم المدنية، وبجهلهم في السياسة،

باعوا قضايا الأمة بل ضيعوا حقوق ملايين المسلمين، واستغل الغرب جهلهم وغرورهم بالنعم، فكسبوا دعمهم، وأموالهم، وثرواتهم، وحرم المسلمين منها، بل وقتل الكثير من أبناء الأمة بأموال هؤلاء، كأني أرى قصة (بني إسرائيل) من التيه للشتات تروى من جديد على أراضي الكثير من دول المسلمين.

الشاعر:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأيــن شاطبة أم أيــن جيان.

أنا: كأنه يسألنا الآن عن جمال مدن سوريا وخيراتها، كيف تركناها لتتحول لرماد وجثث من القتلى، أطفال، ورجال، وشيوخ، ونساء؟ أين حلب وتجارتها؟ أين إدلب وخضارها؟ أين حمص وصناعتها؟ أين الشام وجمالها؟

الشاعر:

وأيــن قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شأن.

أنا: كأنه يسأل عن رائحة كتب بغداد، وعظمة مكتباتها، يسأل عن علماء وأهل العلم في القاهرة؟ بعد أن خرج أهل العلم من بغداد، والقاهرة، وارتفعت مكانتهم وأسماؤهم في كل الدنيا، أصبح الدمار يملأ بغداد، وهجرها العلماء إلى بلاد الغرب! وكذلك القاهرة أصبح الصمت يسودها، والهجرة ميزة للعلماء فهجروها، فساد الصمت شوارعها، وملأ الخوف بغداد وسوريا.

الشاعر:

وأين حمص وما تحويه من نُزه ونهرها العذب، فياض ملآن.

أنا: كأنه يسأل عن اليمن وخيراتها، كأنه يقول: أين اليمن الخضراء؟ أين هي بلاد الخير وأهلها! أيعقل أن تتحول اليمن بطبيعتها وخيرها ووديانها إلى مقابر لأهلها؟ ويضربها الدمار في كل أركانها! وتتحول وديانها إلى أنهار من الدماء وجثث أهلها! وتتحول من بلاد الخير إلى بلاد الجوع! يضرب أحياءها والمرض ينتشر بين أبنائها وأطفالها، بفضل أيدينا ومساندة الغرب.

كان سقوط (الأندلس) قديمًا، هو سقوط جديد وحديث، وبنفس الأسباب يضرب بلاد العرب حديثًا، ويكون سببًا في سقوطها حديثا، إن لم يعتبر حكامهم قبل شعوبهم ويقرأوا التاريخ ويتعلموا، وسقطت الدويلات واحدة تلو الآخر، وتباكى الشعراء عليهم، ولم يبق من هذه الدويلات، إلا دولة (بني الأحمر) من 620 هـ حتى سنة 897 هـ، وانتقلت فيها الإمارة بين فترات قوة وضعف، استعانت خلالها أكثر من مرةٍ بدولة (بني مرين) في المغرب؛ لتحافظ على وجودها، إلى أن اتحدت إمارة (أراغون) و(قشتالة) الإسبانيتين في مواجهة (غرناطة) التي عانت في أواخرها من الفساد.

* * *

فلنتعلم وصف عصر في جملة

الأيام الصعبة تصنع رجالا أقوياء، الرجال الأقوياء يصنعون الرخاء والترف، والرخاء والترف بدون قضية وعقيدة تملأ الصدور، ووعي وفكر يملأ العقول يصنع رجالا ضعفاء، والرجال الضعفاء والجهلة، وقليل الهمة، وفاقدو القضية والعقيدة، يصنعون أياما صعبة.

* * *

مقدمات سقوط (الأندلس)

ومنذ منتصف القرن الحادي عشر تدهور وضع غير المسلمين إلى حدٍ كبير، مع تقلص مساحة الدولة الإسلامية في إسبانيا، واستعادة الحكام المسيحيين للمزيد من الأراضي، وبات الحكام أكثر تشددًا، فلم يعد يستطيع المسيحي بناء منزل أعلى من المسلم، ومنع من توظيف خدم مسلمين، أو إبراز أي رمز ديني، بما في ذلك حمل الإنجيل لدرجة أنه كان يمكن أن يتعرض للمحاكمة والإعدام، فيقدم لنا تاريخ (الأندلس) في مراحله الأولى صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي

والسياسي، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان، ولكنه يقدم إلينا في مراحله الأخيرة صفحات مشجية مؤثرة، من تقلب الحدود، وتعاقب المحن، والانحدار البطيء المؤلم، إلى معترك الهزيمة، والذلة والسقوط، وقصة (الأندلس) لا تمثل سوى حقيقة تاريخية خالدة بخصوص تبدل الحضارات والدول، كما أن الصراع الطويل الذي خاضته (الأندلس) قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم.

يبدو فضلًا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر، قلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم التي اشتهرت بالذود عن حياتها وحرياتها، لقد سقطت قواعد (الأندلس) الشهيرة في سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة، التي تقلبت فيها الأمة (الأندلسية)، منذ انهيار صرح الخلافة الأموية في (الأندلس)، في أواخر القرن الرابع الهجري، فقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة على أنقاض دولة عظيمة شامخة، وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التي كانت تسطع بحضارتها الزاهرة، خلال حلك العصور الوسطى، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية في (الأندلس)، ويحدث أعمق صدى في جنبات الدول الإسلامية في المشرق والغرب، وينتزع من وحي النثر والنظم، أروع المراثي، وكانت الأمة (الأندلسية) كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة في يد عدوتها القديمة المتربصة بها إسبانيا النصرانية، ألفت عزاءها في قواعدها الأخرى، وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية؛ استبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى (غرناطة) وأعمالها، تؤلف مملكة إسلامية صغيرة، ولكن أبية ساطعة، استطاعت عبقرية بناتها النصريين أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتي عام.

❋❋❋

حقيقة وعبرة

إن مصير (الأندلس) كان يهتز في يد القدر منذ فشلت ريح دول الطوائف، وغلب عليها الخلاف والتفرق، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية، فتفسح لعدوها الخَطِر مجال التفوق عليها، والضرب والتفريق بينها، فحذر ديننا من خطورة الفرقة، ومن دهاء عدونا، وعدم رضا العدو علينا مهما قدمنا لهم، ولن يرضى إلا باتباع ملته، فيذكر أحد مؤرخ الغرب الأمريكي وول ديورانت في كتابه قصة الحضارة، يقول: «إن الحرب الدائرة بين الشرق والغرب، ليست دوافعها الأولى البترول وثروات الشرق، كما يعتقد البعض، ولكن هي حروب بين أكبر ديانتين: الإسلامية، والمسيحية». لذلك؛ ذكرها لنا القرآن صراحة يقول الله – تعالى – ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [120] البقرة. فعندما تركنا التدبر في القرآن والسنة، وأخذنا في الغرب سبيلا أذلنا الله وكتب علينا الهوان، وسلط الله علينا عدونا حتى نعود إليه، فالتاريخ يتكرر فهل من معتبر؟

***

وقد استطاع بعض ذوي النظر الثاقب من رجالات (الأندلس)، حتى في ذلك العصر الذي كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه (الجزيرة الإسبانية)، أن يستشفوا ما وراء هذا التفرق من الخطر الداهم، ومن هنا نجد ابن حيان مؤرخ (الأندلس) في القرن الخامس الهجري، وبعد أن يصف حوادث سقوط بربشتر من أعمال الثغر الأعلى (أراجون)، في يد النورمان في سنة 456هـ (1063م)، وما اقترن بسقوطها من القتل والسب، وشنيع الاعتداء، نجده وقد ذكر: «وقد استوفينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة، مؤذنة بزوال القلعة، طالما حذر أسلافنا لحاقها، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره.

ولا شك عند أولي الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع، وقد أخذنا بالتواصل والألفة، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة؛ إذ قدر الله زماننا، هذا بالإضافة إلى ما عهدنا في القرن الذي سلخه من آخر أمد الجماعة، على إدراك ما لحق الذي قبله، ما إن يباهي بعرجه، فضلًا عن نزوح خيره، قد غربل ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معالي الغي بأقوياء، نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل، من أول الدلائل على فرط جهلهم، اغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم، يتبجح عراص دورهم، ويستقري بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفًا ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم، لهاة عن بثهم، فنبذوا السلاح، وكلفوا بالترقيح، ونافسوا في النشب، وعطلوا الجهاد، وقعدوا فوق الأرائك مقعد الجبابرة المتفاتنين من أهل موسطة (الأندلس)، ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة، ولا يرفدون المختل ممن رابط إليهم بعليقه، فتبًا لهم تبًا، فتضعضع ثغرهم بتوالي هذه النكبات، ولحقت المسلمين بهم المضايق ويُكره سماعها، حتى عم تلك الثغور الجلاء وتوزع المسلمين البلاء، وخربت ديارهم، وبادت آثارهم».

***

تعلم تفسير أهوال الأحداث التاريخية في عيون المؤرخين كيف تكون.

ولم يكن هذا التنديد من جانب المؤرخ (الأندلسي)، بتواكل أهل (الأندلس)، وتخاذلهم عن نصرة دينهم وإخوانهم، إلا معبرًا متألمًا، ظهر ذلك واضحًا في عصر الطوائف، بل لقد لاح مدى لحظة حينما سقطت (طليطلة) أول قاعدة إسلامية كبيرة، في يد (إسبانيا) سنة 478هـ / 1085م أن (الأندلس) أضحت على وشك الفناء، وأن دول الطوائف المنهوكة الممزقة سوف تسقط تباعًا في يد عدوها القوي،

وأن دولة الإسلام في إسبانيا سوف تطوى وتختم حياتها المجيدة في شبه الجزيرة، وقد ساد الفزع والتوجس يومئذٍ جنبات (الأندلس) كلها، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة:

يـا أهل أندلس شدوا رحالكم فما المقام به - ا إلا من الغلط.
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثورًا من الوسط.
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سفط.

لكن الدرس كان عميق الأثر، فجنح زعماء الطوائف للرشاد، وجمعت المحنة منهم الكلمة، وارتدوا إلى ما وراء البحر يلتمسون الغوث من (المرابطين) إخوانهم في الدين، كان المرابطون يومئذ في عنفوان دولتهم، وأميرهم يوسف بن تاشفين يبسط سلطانه على أمم المغرب، من المحيط غربًا حتى تونس شرقًا، فاستجاب المرابطون لصراخ الطوائف، وعبروا البحر إلى (الأندلس) في قوات ضخمة، والتقت الجيوش الإسلامية المتحدة بقيادة يوسف بن تاشفين، بالجيوش النصرانية، بقيادة ألفونسو السادس زعيم إسبانيا، في سهول الزلاقة.

وكان في (رجب 479هـ/ أكتوبر 1086م)، فأحرز المسلمون نصرًا حاسمًا، وكانت موقعة الزلاقة من أيام (الأندلس) المشهورة، وانتعشت دول الطوائف، وقويت نفوس الأمة، وبدأت (الأندلس) حياة جديدة، لكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم وحلفائهم، واجتذبتهم نعماء (الأندلس) وثرواتها، فحطموا دول الطوائف، وبسطوا حكمهم على (الأندلس) زهاء نصف قرن.

هنا جاشت القواعد (الأندلسية) بالثورة على المرابطين، وعبر الموحدون البحر إلى (الأندلس)، واستولوا تباعًا على قواعدها الكبرى وبسطوا عليها حكمهم زهاء قرن آخر، وفي ظل الموحدين أحرزت الجيوش الإسلامية نصرها الحاسم على إسبانيا، بقيادة الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، وذلك في موقعة الأرك الشهيرة (593هـ/ 1195م)، ولكنها ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة

بعد ذلك بقليل على يد إسبانيا، في عهد الخليفة محمد الناصر ولد المنصور في موقعة (العقاب) المشؤومة، التي فنيت فيها معظم الجيوش الموحدية و(الأندلسية) (609هـ/ 1212م)، كانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين وللأندلس، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قويا منذرًا، وسرى هذا التوجس إلى كُتاب العصر وشعرائه، وظهر واضحًا في رسائلهم وقصائدهم.

❊ ❊ ❊

فلنتعلم كيف يكون الشعر قضية ومادة التاريخ ووصف الحال

ومن ذلك ما قاله أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي معلقًا على موقعة العقاب:

وقائلة أراك تطيل تفكرًا كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب غدًا سببًا لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلاء من كل الباب

الشعر هو حس الشعوب ومادة التاريخ، فقيمة الشاعر في قيمته لتناول الحدث، وانشغال باله بقضايا الأمة والشعوب، واختيار الكلمات المعبرة للحالة التاريخية، والقضية المتناولة، فالشعر هنا يكون ذا قيمة ومادة تاريخية غزيرة وصادقة، عندما تكون نابعة من إحساس صادق وشخصٍ واع ملم بالحدث ومدى أثره ونتائجه.

❊ ❊ ❊

خلال ذلك كانت (الأندلس) تضطرم بأشنع ضروب الخلاف والفتن، والقواعد والثغور يتناوبها الزعماء والمتغلبون، وإسبانيا تنزل بـ(الأندلس) ضرباتها المتوالية، وتستولى تباعًا على القواعد والثغور، والحقيقة أن الجهد المضطرم الذي بذلته (إسبانيا) يومئذٍ لانتزاع القواعد (الأندلسية) لم يكن سوى الذروة في مرحلة

طال أمدها، من حركة الفتح والاسترداد النصرانية «la Reconquista»، ونجد أن (الأندلس) شعرت بالخطر الحقيقي منذ أن استطاع النصارى عبور نهر التاجه، الذي يتوسط شبه الجزيرة في غزوات قوية، واستيلائهم بعد ذلك على (طليطلة) ثالثة القواعد (الأندلسية) الكبرى بعد (قرطبة وإشبيلية)، ووضع نصر الزلاقة، وقيام سلطان المرابطين في شبه الجزيرة حدا مؤقتًا لتقدم النصارى في وسط شبه الجزيرة وشرقيها، ولكن موجة جديدة من الغزو النصراني اجتاحت شمال شرقي (الأندلس) منذ بداية القرن السادس الهجري، فسقطت (سرقسطة) في يد النصارى (512هـ/ 1118م).

وكانت (طليطلة) حصنها الأمامي قد سقطت قبل ذلك بعام، ثم تلتها بقية قواعد الثغر الأعلى، لأردة، وإفرغة، ومكناسة، وطرطوشة (543هـ - 544هـ = 1148 - 1149م)، وفي تلك الآونة ذاتها بدأ سقوط القواعد الإسلامية في غربي شبه الجزيرة، أعني في (البرتغال)، فسقطت أشبونة، وشنترة، وشنترين، في يد النصارى سنة (542هـ/ 1147م)، وسقطت باجة بعد ذلك بقليل في(سنة 556هـ/ 1161م)، ثم تلتها يابرة في سنة (561هـ/ 1165م)، ولما توطد سلطان الموحدين بـ(الأندلس) في أواخر القرن السادس الهجري، توقفت حركة الاسترداد النصراني، ثم عادت تضطرم قوية بعد إحراز إسبانيا لفوزها الحاسم على الموحدين في موقعة العقاب (609هـ).

***

تعلم حتى ولو من عدوك كيف تقاتل من أجل هدفك وما هو النجاح؟

النصارى نجحوا في استرداد (الأندلس) من المسلمين، هذه حقيقة ودرس لا بد أن نتعلم منه، فالنصارى لم ينسوا ولو للحظة قضيتهم، حتى بعد هزيمتهم وقوة الجانب الإسلامي، فظلوا يخططون ويتعاملون بمنطق المهادنة والمهاجمة، وضعوا أعينهم على هدفهم، تناسوا خلافتهم وتوحدوا من أجل هذا الهدف،

عملوا ليل نهار وقاتلوا باستماته من أجل هذا، حتى نجحوا في النهاية، أما الجانب الإسلامي ظن وتخيل أنه صنع حضارة لا مثيل لها، وبدأ يترك السلاح من يده، ويتناسى القضية والعقيدة، ويجلب الترف والمغاني والعزف، لدرجة أنه نسي أن عدوه يتربص به، فسقط، فالنجاح الحقيقي هو الاستمرار في النجاح، وليس في تحقيقه فقط.

***

ومنذ أوائل القرن السابع الهجري تجتاح (إسبانيا) موجة عاتية من الغزو، وتسقط القواعد (الأندلسية) شرقًا، وغربًا في يد النصارى، وهكذا سقطت جزيرة ميورقة (627هـ/ 1229م)، وبياسة (623هـ/ 1226م) وأبدة (630هـ/ 1233م) ثم قرطبة (633هـ/ 1236م)، واستجة والمدور (633هـ/ 1236م) وبلنسية (636هـ/ 1238م) ودانية، ولقنت (641هـ/ 1244م) وأوريولة، وقرطاجنة (643هـ/ 1245م) وشاطبة (644هـ/ 1246م) ومرسية (640هـ/ 1243م) وجيان (643هـ/ 1246م)، ثم إشبيلية (646هـ/ 1248م)، وفي الوقت نفسه اجتاحت غرب (الأندلس) موجة مماثلة من الغزو النصراني، فسقطت بطليوس (627هـ/ 1230م) وشلب (640هـ/ 1242م) وشنتمرية الغرب (647هـ/ 1249م) ولبلة، وولبة (655هـ/ 1257م)، ثم سقطت قادس في سنة 1261م، وتلتها شريش سنة 1264م، وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) حتى كانت كل ولايات (الأندلس) الشرقية والوسطى قد سقطت في يد إسبانيا، ولم يبق من الدولة الإسلامية بـ(الأندلس) سوى بضع ولايات صغيرة في طرف إسبانيا الجنوبي.

***

كأنك ترى حال الأمس كأنه حالنا فهل من معتبر!

وعند التدقيق في سقوط (الأندلس) كأنه يحكي واقع سقوط العرب حديثًا، الفرقة، وعدم وجود قائد حقيقي، وظهور دول الطوائف، والأحزاب والقومية بيننا حديثًا، تمزق (الأندلس) وضعف حكمها في ظل عدو متربص لها في الشمال، كان يستعد لالتهام فريسته.

فكأنه الواقع الآن ضعف، وتمزق المسلمون في ظل وجود الصهاينة، والأمريكان متربصون لالتهام الأموال، والثروات، وكسر المسلمين، كان ملوك المسلمين في دول الطوائف يستعينون بعدوهم من أجل غزو بعضهم بعضًا، والحفاظ على ملكهم هو أهم غاية لهم، والآن يحدث، كل الحكام المسلمين مستعدون لركوع في ساحات، وقصور الغرب والصهاينة؛ من أجل الحفاظ على حكمهم، ولا أهمية لدينهم، ولا أوطانهم، ولا الأخوة، وخير شاهد ما يحدث الآن بين العرب بعضهم بعضًا، من مقاطعات، ولوم، وعداء، ومراسلات في الخفاء من أجل ضرب مصالح بعضهم بعضًا، وتناسوا لقضيتهم، وقضايا المسلمين، وظلت قضيتهم هي حماية السلطة والكرسي! فهل من معتبر حتى لا نكرر قصة الفردوس المفقود مجددًا في كثيرًا من البلدان، وتصبح سوريا، والعراق، واليمن، وفلسطين، وغيرهم فردوسًا مفقودًا جديدًا، ومن نبكي!

* * *

خلاصة الفصل الأول

(الأندلس) هي إحدى الدول التي أسسها المسلمون في (أوروبا) عام 711 م في شبه (جزيرة أيبيريا)، تحديدًا في (أوروبا الغربية)، وكلمة (الأندلس) هي كلمة عربية من كلمة و(ندلس) وتعني: الشعب الجرماني الذي نزح من جرمانيا، أي ما تمثلها اليوم (ألمانيا، وبولندا) وصولًا إلى (أيبيريا)، التي تعرف اليوم بـ (إسبانيا، والبرتغال)، واستمر الحكم الإسلامي فيها ثمانية قرون، وخلال تلك الفترة كان يضرب بها المثل بالتحضر، والنهضة في كافة مجالات الحياة، وعدا عن ذلك جمال الطبيعة، والفن المعماري المتقن الذي زينها، وفي هذا المقال سيتم الحديث عن تاريخ (الأندلس) القديم، وقد مرت هذه الدولة بتسلسل زمني واضح من عهد الفتوحات الإسلامية، وفترة الحكم الإسلامي، وعهد الدويلات، وحتى فترة السقوط، وانتهاء عصر الحضارة الإسلامية.

ويمكن الحديث عن تاريخ (الأندلس) القديم كالآتي:

عهد فتح (الأندلس): فتحت في عهد (الدولة الأموية) في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك عام 711 م، على يد القائد طارق بن زياد، عندما أرسله موسى بن نصير من (طنجة) مع جيش يتألف من 7000 جندي لعبور مضيق (جبل طارق)، الذي ما زال يسمى باسم هذا القائد، حيث استطاع من خلال معركة وادي لكّه الانتصار على القوط الغربيين في تلك الأراضي الإسبانية والتوغل فيها.

عهد الإمارة الأموية: كانت في عهد (الخلافة الأموية) تحت حكم الخليفة الأموي، الموجود في دمشق، كولاية رئيسية حتى عام 755 م، عندما بدأ عهد الخلافة العباسية في بغداد، ولكن في عام 756 م استطاع عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام وهو من السلالة الأموية، النجاة من أيدي العباسيين الذين قاموا

بقتل الأمويين بالهروب إلى (الأندلس)، حيث أسس خلافة أموية فيها استمرت من عام 757 م حتى عام 1009 م، وتميزت هذه الفترة بـ(الفترة الذهبية) وأوج الحضارة (الأندلسية) حيث تعايش المسلمون، والمسيحيون، واليهود بسلام، وانتشر العدل بينهم، واهتم المسلمون بالعلوم، وبرعوا في علوم الطب، والفلك، والرياضيات، والفقه، واهتموا بالشعر والموسيقى، كما كانت الهندسة والعمارة في أوجها، وهذا ما تميزت به (قرطبة) بمسجدها الذي تحول اليوم إلى كاتدرائية، وجامعتها الشهيرة، وعدا عن ذلك الحدائق، والقصور الجميلة، وأشهرها (قصر الحمراء في (غرناطة)، وطليطلة التي اشتهرت بمدينة الترجمة، حيث انطلقت منها ترجمة العلوم إلى (أوروبا).

عهد الدويلات والطوائف: كان في عام 1010 م، تم تقسيمها إلى دويلات، وكان كل دويلة لها حاكم يقوم بإدارة شؤونها، وكان من أشهرها (قرطبة)، وفي هذه المرحلة مرت (الأندلس) بحالة من الضعف؛ بسبب طمع (الممالك النصرانية) باستعادة أراضيهم من المسلمين، ولكن عمل عبد الرحمن الثالث في عهده على توحيد البلاد، وتوحيدها عسكريًا، وقام بتوسيع دولته لضم المغرب، وموريتانيا، عندما كانت الخلافة العباسية في حالة ضعف.

واستمر الازدهار فيها حتى دخلت عصر الطوائف في عام 1031 م، حيث كان الحاكم في مرحلة ضعف، مما أتاح ذلك إلى دخول الطامعين في السلطة، فدخلت البلاد في عهد ملوك الطوائف والذي استمر حتى عام 1090م.

وفي عام 1091 كانت البلاد تابعة للحكم الذي سيطر في المغرب الإسلامي، فتتابع على حكمها الموحدون، ثم (دولة المرابطين) حتى عام 1238 م، حيث دخلت (الأندلس) في مرحلة الانهيار، والتعرض لهجمات الممالك المسيحية القادمة من أوروبا حتى نجحوا بدخول غرناطة التي سقطت وانتهى معها تاريخ الأندلس القديم عام 1492م.

تراجع المسلمين وأسباب التراجع:

كانت شبه (الجزيرة الأيبيرية)، مكانا مختلفًا تمامًا عن بقية العالم الإسلامي؛ وذلك نتيجة هزيمة الخلافة الأموية على يد العباسيين؛ مما أدى إلى رفض المسلمين في (إسبانيا) الاعتراف بهم كقادة شرعيين للعالم الإسلامي، وبدلًا من ذلك قاموا بإعلان استقلالهم، وتشكيل إمارة قرطبة، والترحيب بالأمويين المنفيين كقادة شرعيين لإسبانيا، وبالإضافة لذلك، كانت (الأندلس) بعيدًة جدًا عن قلب الإسلام، فعندما قام المسلمين بالغزو لجزيرة (الأندلس)، لم يكملوا مهمتهم في الأجزاء الشمالية منها؛ مما أعطى للمسيحين الفرصة للبقاء في ممالكهم، وحال ذلك الأمر من انتشار المسلمين فيها، ومما يجلب الانتباه عند الإجابة على سؤال: أين تقع (الأندلس)؟ إنها كانت قريبة من (المدن الأوروبية) بشكل أكبر من (المدن الإسلامية).

وذلك يعني أنها كانت بعيدة عن الحوافز المقدمة لمن يعتنق الإسلام، من روابط تجارية واجتماعية، وتعليم، وذلك ما أدى إلى وجود أعداد كبيرة من اليهود والمسيحيين، بدلًا من أن تتحد (الممالك الإسلامية) في (الأندلس)، تصارعت على غنائم الدنيا، وتحالفت مع عدوها فسقط الجميع.

أهم مصادر ومراجع الفصل الأول

المصادر:

1 – **ابن عذارى** أحمد أبو العباس ابن عذارى المتوفي 695هـ 1295م (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب): تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ط2، دار الثقافة بيروت 1980، ج2.

2 – **ابن الأبار** (الحلة السيراء): تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، الطبعة الثالثة القاهرة.

3 – **الحميرى** أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى المتوفي 900هـ 1495م (الروض المعطار العولمة خبر الأقطار): تعليق وتصحيح: ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الجبل بيروت، لبنان 1988.

4 – **الشنتريني** أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفي 542هـ (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة): القسم الثالث، المجلد الأول، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان1997.

5 – **أبى يحيى الزجالي المتوفى** 694هـ (أمثال العوام في الأندلس): دراسة محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس 1975، ج1.

6 – **أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفي 914هـ 1509م** (المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب): أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ج2.

7 – **المقري شهاب الدين أحمد بن محمد المقري المتوفى 1041هـ 1631م** (أزهار الرياض وأخبار عياض): ضبط وتحقيق وتعليق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري،

عبد الحفيظ عبد الباري، ج3، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1940.

8 - (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، (راجع ثورة ابن هود ووفاته)، تحقيق: إحسان عباس، ج2، ط2، دار صادر للنشر، لبنان 1988.

9 - **ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى 808هـ/ 1406م:** (المقدمة)، تحقيق: درويش الجويدي، ط2، المكتبة العصرية، بيروت2000،

10 - (**ديوان** المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ضبط المتن ووضعه: خليل شحاتة، مراجعة: سهيل زكار، ج4، دار الفكر للنشر، لبنان2000.

11 - **علي بن الحسين المسعودي:** (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، دار الهجرة، الطبعة الأولى، 1989.

12 - **محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي:** (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ج1، مكتبة الثقافة الدينية 2002.

المراجع العربية والمعربة بتصرف:

- راغب السرجاني: **قصة (الأندلس) من الفتح إلى السقوط**، ط1، القاهرة 2011، مؤسسة اقرأ، صفحة [33،46،47].

- رينهارت دوزي: (**المسلمون في الأندلس، إسبانيا الإسلامية**)، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة،1994م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [38،237].

- عبد الرحمن الحجي: **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة**)، ط2، بيروت لبنان1981، دار القلم، صفحة [215،215، 312،314،315،317].

-عبدالمجيدنعنعي:**تاريخ(الدولةالأمويةفيالأندلس،التاريخالسياسي)**،بيروت لبنان: النهضة العربية، صفحة [106،108،110،112،117، 148،149].

- عبد اللطيف عبد الغني مشرف: (**هجرات الموريسكيين**)، ط1، القاهرة 2017، دار الربيع العربي، ص [32، 35، 46].

- على الطنطاوي: (**تعريف عام بدين الإسلام**)، ط1، جدة السعودية 1989، المنارة، صفحة [27،28].

- مصطفى خزعل: (**بنو أمية في الأندلس ودورهم في الحياة العامة**)، ط1، الموصل العراق 2004، جامعة الموصل، صفحة [29،30،32،33].

- محمد طقوش: (**تاريخ الدولة العباسية**)، ط7، بيروت، لبنان 2009، النفائس، صفحات [8 14 222855 72 83 148 149].

- محمد عبد الله عنان: (**دولة الإسلام في الأندلس**)، ط4، القاهرة، مصر 1997، مكتبة الخانجي، صفحة [8، 12، 22، 32، 43، 54، 149، 150].

- مجموعة من المؤلفين: (التاريخ الأندلسي من خلال النصوص)، الدار البيضاء 1991، شركة النشر والتوزيع، المدارس.

المواقع الإلكترونية:

- موقع قصة الإسلام.
- مركز دراسات (الأندلس) وحوار الحضارات.
- موقع سطور.
- إسلام أون لاين.
- موقع ساسة بوست.
- منى حوا «عهد ملوك الطوائف ليس كما نعتقد»، موقع دراسات الجزيرة مدونات الجزيرة.

***

الفصل الثاني
الأندلس وآخر فصول السقوط
«سقوط غرناطة»

تمهيد

سقطت غرناطة في 2 ربيع الأول 897هـ/ 2يناير1492م بتسليم الملك أبي عبد الله محمد الصغير إياها للملك فرديناند الخامس، بعد حصار خانق دام تسعة أشهر، دب بعده الضعف في أوصال دولة الإسلام في الأندلس، وسرى الوهن في أطرافها، وراح العدو القشتالي يتربص بها، وينتظر اللحظة التي ينقض فيها على الجسد الواهن، فيمزقه ويقضي عليه، ولم تصرفه القرون الطوال عن تحقيق أمله الطامح إلى إزالة الوجود الإسلامي في الأندلس، فلم يكد ينتصف القرن السابع الهجري حتى كانت ولاية الأندلس الشرقية والوسطى في قبضة النصارى القشتاليين، وأصبحت حواضر الأندلس الكبرى أسيرة في قبضتهم؛ حيث سقطت قرطبة وبلنسية، وإشبيلية، وبطليوس، وهي حواضر كانت تموج علمًا وثقافة وحضارة.

أما ما تبقى من دولة الإسلام هناك فلم يكن سوى بضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، قامت فيها مملكة صغيرة عرفت بمملكة غرناطة، شاءت الأقدار لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمان، وأن تقيم حضارة زاهية وحياة ثقافية رائعة، حتى انقض عليها الملكان المسيحيان «فرديناند الخامس» و«إيزابيلا» وحاصرا بقواتهما غرناطة في 12جمادى الآخر 896هـ/ 30 أبريل 1491م حصارًا شديدًا، وأتلفا الزروع المحيطة بالمدينة، وقطعا كل اتصال

لها بالخارج، ومنعا أي مدد يمكن أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى، حتى تستسلم المدينة ويسقط آخر معقل للإسلام في الأندلس.

مملكة غرناطة

كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس مدينة صغيرة من أعمال ولاية «ألبيرة» تقع على مقربة من مدينة ألبيرة قاعدة الولاية من الناحية الجنوبية، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط، بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس، في موقعة شريش في رمضان سنة 92هـ / 711م، ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس، ودب الخلاف بين القبائل عقب موقعة بلاط الشهداء (732م)، واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية والعرب والبربر من ناحية أخرى، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي أن يعمل على تهدئة الفتنة، بتمزيق عصبة الشاميين، ففرقهم في أنحاء الأندلس، وأنزل جند الشام بكورة ألبيرة، وجند حمص بإشبيلية، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة، وجند الأردن برية، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية ألبيرة، وغدوا بمضي الزمن كثرة فيها.

***

حال الأمس واليوم من السنة النبوية

لعل حال الأمس واليوم يكاد يتشابه، حتى الأسباب تكاد تكون واحدة، فالعصبية الجاهلية، تكاد تسري في عروقنا، رغم جعلنا الإسلام أمة واحدة، لا فرق بين لون ولون ولا عرق وعرق ولا سيد ولا خادم، فكلنا بالإسلام وجمال منهجه أصبحنا واحدا، فلا فرق بين أعجمي ولا عربي إلا بالتقوى، هكذا هو ديننا، ولعل حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – يوصف السبب الرئيسي في ضعفنا حيث قال: وقد روى مسلم (1850) عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (من قتل تحت رايةٍ عميةٍ يدعو عصبيةً

أو ينصر عصبيةً فقتلة جاهلية)، وروى أبو داود أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، أو من قاتل من أجل عصبية، أو من مات من أجل عصبية»، وفي حديث آخر قال – صلى الله عليه وسلم – محذرًا من العصبية: «دعوها فإنها منتنة، فإنها أهلكت قوما ما قبلكم». رواه البخاري ومسلم. وفي حديث آخر ورد في مشكاة المصابيح أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «من دعا إلى عصبية فكأنما عض على هن أبيه». أو كما قال – صلى الله عليه وسلم – ، فأصبحت العصبية قومية، ومن ثم تفككت الأمة وصعف الحال قديمًا وحديثًا، إلى أن الوقت لتركها ونستظل جميعًا تحت راية ومنهج واحد.

***

واستمرت مدينة ألبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها في ظل الدولة الأموية، حتى أواخر القرن الرابع حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن، وعاث البربر في النواحي، وخربت مدينة ألبيرة شيئًا فشيئًا؛ حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها، ومن ذلك الحين يختفي اسم ألبيرة وغرناطة، وتعتبران في معظم الأحيان لا سيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس اسمين لمكان واحد، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما.

***

مدن تاريخية:

ألبيرة وبالإسبانية Elvira مدينة رومانية قديمة كانت تسمى أيام الرومان Iliboris وكانت عاصمة للولاية التي تسمى بهذا الاسم، وكانت أيام الفتح الإسلامي مدينة كبيرة عامرة.

***

1 - قيام سلطان النصرين (بني الأحمر) على غرناطة:

لبثت غرناطة في ظل الدولة الأموية قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية، وهي تحتل مكان ألبيرة شيئًا فشيئًا، حتى كانت أيام الفتنة عقب انهيار الدولة الأموية في أواخر القرن الرابع، فأخذت القواعد الجنوبية تغدو بعد تخريب قرطبة ونأي القواعد والثغور الشرقية والشمالية مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة، ووقعت غرناطة يومئذ في نصيب البربر، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوي بن زيرى واتخذها دار ملكه، وقامت في قرطبة دولة بني حمود الإدريسية.

واستمرت الحرب والفتنة مدىً طويلًا سجالًا بين المتغلبين من فلول بني أمية وبني عامر، وفتيانهم ومواليهم، وبين زعماء البربر. ولما ظهر المرتضى، وهو من عقب بنى أمية، ودعا لنفسه بالخلافة، سار في عصبة الأمويين والموالي إلى غرناطة لانتزاعها واتخاذها دار ملكه، فرده عنها صاحبها زاوي الصنهاجي في موقعة دموية (408هـ). واستقر زاوي في حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام، ثم غادرها إلى دار قومه في تونس، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن، فحكمها حتى توفي في سنة 429هـ. وخلفه في ولايتها ولده باديس وتلقب بالمظفر، واستولى على مالقة من يد الأدراسة (بني حمود)، واتسع ملكه، ولبث طول حكمه الذي استطال حتى سنة 467هـ، في قتال مستمر مع بني عباد أمراء إشبيلية، أعظم وأقوى ملوك الطوائف يومئذ، ولما توفي باديس المظفر، خلفه في حكم غرناطة وأعمالها حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس، واستمر في حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس في سنة 483هـ بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين، واستولوا على غرناطة وعلى قواعد الأندلس الأخرى، وانتهت بذلك دول الطوائف، التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية، وعاشت زهاء ستين عامًا.

***

كأنك ترى حال الأمس بعيون اليوم

حالة من الضعف، والقوي يأكل الضعيف، وقانون الغابة يسود ويحكم، ضاعت الهمم وفقدت القضية والعقيدة، وأصبحت القضية والعقيدة في عيون من على رؤوس الأمر والسلطة تتمثل في الحفاظ على الكرسي والثروة واتساع المال والملك، لم يعد في الحسبان القضية السامية وتحقيق تطلعات الشعوب، لم يشغل هذه العقول حق الأمة والعقيدة والأوطان، لم يشغلهم قضية من الأولى ليكون الصراع من أجله، هل توسيع الملك أم نشر دين الله؟ هل التناحر مع الأخوة من أجل الكرسي أم من أجل تحقيق رفاهية الشعوب والحفاظ على سيادة وأمن الدول، فإذا أعطينا إجابة ستكون السلطة والحكم والإمارة هي القضية، أما العقيدة والأمة والأوطان والشعوب ما هي إلا شعارات تستخدم وقت الحاجة، فقصم الله ظهورهم وخذلهم عندما خذلوا قضية دينه وسلط عليهم أنفسهم وكلاب الأرض، كأن حال الأمس وقضاياه، هو حالنا وقضايانا اليوم.

***

تعاقب على حكم غرناطة عدة أمراء من اللمتونيين وسادتهم، ثم انهارت دولتهم وتمكن الموحدون من الأندلس في سنة 541هـ (1147م)، وسلم المرابطون بعد اعتصامهم في غرناطة المدينة إلى الموحدين، وذلك في سنة 551هـ (1156). ولبثت غرناطة كباقي القواعد الأندلسية في أيدي الموحدين، يتناوب حكمها الأمراء والسادة من بني عبد المؤمن وقرابته، حتى كانت ثورة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود سليل بني هود أمراء سرقسطة السابقين، على الموحدين، وانتزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم، ولكن توفي ابن هود في عام 635هـ / 1138م، وهو في ذروة نشاطه وحروبه ضد النصارى، وفي ذروة سلطانه ومشاريعه، ولم تطل وثبته التي بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملا خلابًا سوى بضعة أعوام، فانهارت بوفاته دولته التي لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطد. وكان المتوكل بن هود أميرًا شجاعًا كريم الصفات، يضطرم

إخلاصًا وغيرة للقضية التي نصب نفسه للاضطلاع بها، ولكنه لم يكن بموارده كفؤًا لتلك المهمة العظيمة، واعتورت جهوده نفس المثالب القديمة التي كانت تصدع دائمًا من جهود الزعماء الأندلسيين، والتي تتلخص في مصانعة النصارى ومداراتهم، ومساومتهم على حساب المصالح القومية.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات: قبائل تاريخية.

هي القبيلة الشهيرة التي كونت نواة دولة المرابطين في الصحراء الكبرى والمغرب والأندلس، وقبيلة لمتونة تنتمي إلى بطون الصنهاجة، فبعض يرجع أصلها إلى حمير اليمنية ويعدها من العرب، والبعض الآخر مستشهد بذكرهم في تاريخ ابن خلدون ويرجع أصله إلى المغرب والأمازيغ، ولكن العصبية لا تهمنا، وما يهمنا أنهم قبائل مسلمة كان لها دور في التاريخ الإسلامي، وقدموا أبطالا للأمة مثل الأمير يوسف ين تاشفين وغيره، وفتحوا عدة بلدان إفريقية ونشروا الدين الإسلامي، وازدهار اللغة العربية في المنطقة وخصوصًا موريتانيا،

ويتواجد القسم الآخر منهم «الطوارق» في بوركينا فاسو والنيجر وشرق مالي ويسمى (واللمدين)، والتي كونت سلطنة بعد اضمحلال دولة المرابطين، ولما وصل الفرنسيون إلى المنطقة وقفت هذه القبيلة تقارع الاستعمار سنوات طويلة وسقط سلطانها (فهرون بن النصار) شهيدا، وسقط معه مئات الشهداء، وبعد انتصار الفرنسيين في معاركهم قسموا السلطنة إلى مشيخات صغيرة، ووضعوا على رأسها شيوخا موالين لها، وقبيلة لمتونة في موريتانيا يقولون أنهم من أحفاد أبي بكر بن عمر أمير المرابطين الذي أسقط مملكة غانا والذي يعتبر مؤسسا للمرابطين في الصحراء، والذي قادهم إلى المغرب.

❊ ❊ ❊

وفي تلك الأونة العصبية التي أخذت فيها قلاع الأندلس العظيمة (قرطبة،

وبلنسية، ومرسية وإشبيلية) تسقط تباعًا، وواجهت الأندلس شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف... كانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس، هي مملكة غرناطة.

كان قيام هذه المملكة في الطرف الجنوبي لدولة الأندلس القديمة يرجع إلى عوامل جغرافية وتاريخية، ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التي تقع فيما وراء نهر الوادي الكبير كانت آخر الحواجز الطبيعية بين إسبانيا والأندلس، وكانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها، وفي الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر إلى عدوة المغرب وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم أن تستمد الغوث والعون من إخوانها في الدين.

***

⏮ إضاءات علمية: أثر الجغرافيا على الدول والسياسة.

إن علم الجغرافيا وجغرافية الدول، له أثر كبير في نشأة الدول وحمايتها، وكذلك أيضًا ربما تكون سببا في انهيارها وهزيمتها سواء من الطبيعة أو البشر، لذلك؛ أصبح علم الجغرافيا مرتبطا بالسياسة تحت مسمى «الجيوبولتيكا»، ولعل ما أذكر هنا ويشبه حالة قيام غرناطة، وكيف أثرت الجغرافيا على حمايتها واستمرارها لمدة من الزمن، حيث يقول مؤسس الجيوبولتيكا السير هالفورد ماكيندر: حيث عرف الجغرافيا السياسية بشكل مبسط، وقال بأنها الطريقة التي تؤثر بها المساحة، والتضاريس والمناخ على أحوال الدول والناس، فبسبب الجغرافيا كانت أثينا إمبراطورية بحرية، وبسببها أيضا كانت إسبرطة أقرب في طبيعتها إلى القوة البرية، وفينيقيا القديمة ركبت البحر، وبسبب الجغرافيا أيضًا، تمتعت الجزيرة البريطانية في القرن الثامن عشر بحرية الملاحة في البحار، في حين كانت بروسيا، وبسبب الجغرافيا أيضًا، محاطة بالأعداء من جميع الجهات، وبسبب الجغرافيا هزمت جغرافية روسيا نابليون وهتلر، فيجب أن نعرف الجغرافيا حتى

نفهم التاريخ وأحداثه.

❋ ❋ ❋

وقد كان لها في ذلك منذ أيام الطوائف أسوة، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد في تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعي، حينما دهم العدو بلنسية في سنة 635هـ (1237م)، وكان الصريخ موجهًا من أميرها أبي جميل زيان، إلى أبي زكريا الحفصي ملك إفريقية (تونس).

❋ ❋ ❋

فلنتعلم كيف يكون الفن يحمل قضية وطن.

عندما يصبح هناك قضية وخطر يواجه الوطن، فإن أصدق الأحاسيس ومن يعبر عن جرح هذا الوطن، شعراء مخلصون لديهم قضية، مثقفون ليسوا تابعين، هكذا كان شعراء الأندلس، عندما ترجموا صرخات الأوطان وحاجة الوطن لرجال ومغيث من أخوة الدين، فهذا الشاعر الأندلسي عندما ردد صرخات بلنسية في شعره وقصيدته الشهيرة، وقال:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل عز النصر منك ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشها
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرًا
للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة
يعود مأتمها عند العدا عرسا

وكل غاربــة إجحــاف نائبــة
تثــى الأمــان حــذارًا والــسرور أســى
تقاســم الــروم لا نالــت مقاســمهم
إلا عقائلهــا المحجوبــة الأنســا
وفي بلنســية منهــا وقرطبــة
مــا ينســف النفــس أو مــا ينــزف النفســا
مدائــن حلهــا الإشراك مبتســما
جــذلان وارتحــل الإيــمان مبتئســا
وصيرتهــا العــوادي العابثــات بهــا
يســتوحش الطــرف منهــا ضعــف مــا أنســا

وفي قول الشاعر يتمثل المغزى التاريخي الذي لبث أحقابًا يربط بين الأندلس وبين الدول الإسلامية الشقيقة في عدوة المغرب، وقد كان يتمثل واضحًا كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية، ولاح لها سبح الفناء في جزيرتها المنقطعة قويا رهيبًا.

***

لقد قامت مملكة غرناطة، التي شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية، دهرًا طويلا آخر في ظروف متواضعة؛ ذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعًا؛ ينتزع بعضها ابن ود وثوار النواحي، والبعض الآخر ينتزعه النصارى، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر، سليل بني نصر، وهم في الأصل سادة حصن أرجونه من أعمال ولاية جيان (وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي).

***

⏮ إضاءات تاريخية: نسب الأسرة الحاكمة:

ويرجع بنو نصر نسبهم إلى الصحابي سعد بن عبادة سيد الخزرج؛ فهم بذلك من أعرق البطون العربية. وقد أشار إلى هذا النسب بعض مؤرخي الأندلس، ومنهم الرازي.

***

كان لبني نصر وجاهة وعصبية، وولد محمد بن يوسف في أرجونه سنة 595هـ (1198م)، ونشأ في مهاد الفضيلة والتقشف جنديا وافر الجرأة والعزم، يتزعم قومه ويقودهم إلى مواطن النضال، وبالرغم من تقشفه وتواضعه كان يجيش بأطماع كبيرة، وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولي العزم والإقدام كثيرًا من فرص الظهور والمغامرة، فلما تفاقمت الفتنة، واضطربت الشؤون في الثغور والنواحي، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس، وظهر ابن هود على الموحدين في الثغور الشرقية، لاحت لمحمد بن يوسف فرصة العمل، خاصة وقد كان يبدو لكثير من الزعماء وذوي الرأي معقد الآمال في إنقاذ ما بقي من تراث الأندلس، فالتفت حوله الصاحب والأنصار، أولًا في أرجونه موطن أسرته وعصبته، وفي الجهات المجاورة له.

وبينما كان ابن هود يعمل لتوطيد سلطانه في شرق الأندلس وجنوبها، كان محمد بن يوسف يعمل من جانبه في الأنحاء الوسطى، ولم يلبث أن أطاعته جيان وبسطة ووادي أش وما حولها من البلاد والحصون، وبسط حكمه على تلك الأنحاء رغم معارضة ابن هود، ثم اتجه ببصره إلى القواعد والثغور الجنوبية باعتبارها أقرب ميدان للعمل، وأبعد الأماكن عن متناول العدو، ورأى في الوقت نفسه، أن يستظل بدعوة أحد الأمراء المسلمين الظاهرين، فدعا للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية (تونس) وتلقى منه بعض العون، وقيل أيضًا أنه حذا حذو ابن هود في الدعاء للخليفة المستنصر بالله العباسي، ونادت قرمونة وقرطبة

وإشبيلية بطاعته لمدى قصير، وذلك في أواسط سنة 629هـ، ثم عدلت قرطبة وإشبيلية عنه إلى طاعة ابن هود.

* * *

عبرة من التاريخ عندما يكون القائد صاحب حلم ورؤية:

إن الأمم ليست بحاجة إلى سلطات ساكنة فاقدة الرؤية، إنما الأمم بحاجة إلى حاكم لديه حلم حقيقي نابع من قضايا أمته ومن طموحات الشعوب والبسطاء ومصدره العقيدة، لديه حلم التطور وقيام حضارة وعزة أمة، فإن صدق في حلمه سيتولاه الله وتصدقه الشعوب، وتسانده بقلوبها وبكل ما أوتيت من قوة، وتقف بجواره أمام كل قوى الدنيا، وتكون سنده القوي وسبيله في عبور الصعاب، فمن خرج من القلب ذهب إلى القلب، فنحن بحاجة إلى حاكم لديه حلم وليس مالا، فهو الأمل والنور في وسط الظلام الذي يحيط الأمة، هكذا تعلمنا من التاريخ، فمحمد بن يوسف وحلمه كان الأمل في وسط السياسة المضطربة والسقوط المستمر لملوك الطوائف فالتف حوله الناس رغم ما له وما عليه.

* * *

ولما اضطرمت الثورة في إشبيلية، واستطاع زعيمها القاضي أبو مروان الباجي أن يبسط حكمه عليها، وأن يخرج منها عامل ابن هود، بادر محمد بن يوسف إلى محالفته ومعارضة ابن هود ومقاتلته، وهزماه سويا في بعض المواقع، ولكن محمد غدر بعد ذلك بالباجي ليخلو له الجو ودس عليه من قتله. ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى أطاعته شـريش ومالقة وكثير من القواعد والحصون القريبة، وذلك في عام 630هـ. أما إشبيلية وقواعد غربي الأندلس فاحتفظت باستقلالها في ظل بعض الزعماء المحليين، وهرع إلى لوائه كثير من المسلمين الذين غادروا المدن التي وقعت في يد النصارى، واستطاع أن يحشد جيشًا كبيرًا من الفرسان والرجالة، يؤازره في تنفيذ خططه ومشاريعه.

ولما قويت دعوة ابن هود، وامتد سلطانه نحو الغرب والجنوب، واستولى على غرناطة وأقره الخليفة العباسي على دعوته، رأى محمد بن يوسف (ابن الأحمر) مصانعته والانضواء تحت لوائه؛ فانحاز إليه وجاهر بطاعته (631هـ)، ولكن ابن هود ما لبث أن توفي أوائل سنة 635هـ، وانهارت دولته كما قدمنا، وعندئذ بادر محمد بن يوسف إلى العمل، لاجتناء تراثه في الأنحاء الوسطى، وكان ابن هود قد ولّى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلي، وكان خصمًا لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر، وكان ظلومًا جائرًا، فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة، ثار عليه جماعة من أشرافها بزعامة ابن خالد، واقتحموا القصبة والقصر في عصبتهم، وقتلوا عتبة، وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر، وبعثوا إليه يستدعونه، فسار ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها عند مغيب الشمس في أواخر رمضان 635هـ (أبريل 1238م)، وهو يرتدي ثيابا خشنة وحلة مرقعة، ونزل بجامع القصبة وأم الناس لصلاة المغرب، ثم خرج من المسجد على قصر باديس، والشموع بين يديه، ونزل فيه مع خاصته؛ وبذا غدت غرناطة حاضرته ومقر حكمه، وكان ذلك لأشهر قلائل فقط من وفاة ابن هود.

***

إضاءات من السيرة النبوية وموقفها من الحكم والحاكم الظالم:

منع الدين الإسلامي في القرآن وفي السنة الظلم، وتوعد الله الظالمين، وذكر النبي الأحاديث العديدة في قضية الحاكم الظالم، بل أمر في عدم إطاعته حتى لا ينتشر الفساد والظلم بين الناس وتنهار الدول وتهلك الشعوب وتضيع الفضائل والعدل بين الناس، قال – صلى الله عليه وسلم – في عدة أحاديث: «سيكون عليكم أئمة يملكون أرزاقكم يحدثونكم فيكذبونكم ويعملون فيسيئون العمل لا يرضون منكم حتى تحسنوا قبيحهم وتصدقوا كذبهم فأعطوهم الحق ما رضوا فإذا تجاوزوا فمن قتل على ذلك فهو شهيد». كنز العمال عن الطبراني ومسند أحمد».

و«إنه سيكون بعدي أمراء من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه» النسائي. «خير الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله». «ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان» مسلم.

❋❋❋

وما كاد ابن الأحمر يستقر في حاضرته الجديدة حتى عول على افتتاح «المرية» وسحق ابن الرميمي وزير ابن هود وقاتله، فسار إليها في بعض قواته وحاصرها مدة، فلما اشتد عليها الحصار غادرها الرميمي من جهة البحر بأهله وماله في سفينة خاصة، وسار إلى تونس مستظلا بحماية أميرها أبي زكريا الحفصي، وملك ابن الأحمر «المرية»، وامتد سلطانه إلى سائر الشواطئ الجنوبية.

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة في غمار الفوضى التي سادت الأندلس، على إثر انهيار سلطان الموحدين، ولكنها كانت في حاجة إلى الاستقرار والتوطيد، وكان محمد بن يوسف يواجه في سبيل هذه المهمة كثيرًا من الصعاب، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية شيعًا، وانتشرت إلى حكومات ومناطق عديدة، وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسي ولا سيما في الجنوب، ولم يكن هناك ثمة ما يمنع من التفاف الأمة الأندلسية كلها حول لواء هذا الزعيم المنقذ، ولكن روح التفرق والتنافس كانت متأصلة في نفوس المتغلبين والطامعين، وكان أصاغر الحكام يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى والاحتفاظ في ظله بمدنهم وقواعدهم على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه.

❋❋❋

كأنك ترى حال الأمس في حاضر اليوم:

كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية في تلك الآونة العصيبة، مثلما الخلاف الآن بين أبناء الأمة في ظل الخطر المحاط بالجميع من جميع الجوانب، يذهب الخلاف إلى حد التضحية بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضعية، كأنه خلاف اليوم وتضحيات اليوم وقضايا اليوم المتمثلة في ملك وسلطة وجاه بعيدة عن الدين والاعتصام بحبل الله، وكان فرناندو الثالث يرى في ابن الأحمر بعد اختفاء ابن هود زعيم الأندلس الحقيقي والخصم الذي يجب تحطيمه، وكان ابن الأحمر يقدر خطورة المهمة التي ألقاها القدر على عاتقه، وكان يضطرم عزمًا وإقدامًا لاستخلاص الوطن من أيديهم، كأننا نرى نظرة فرناندو إلى ابن الأحمر كأنه نظرة الغرب وأمريكا إلى بعض الدول الإسلامية الغنية والمتطلع إلى التقدم والرقي والانفلات من تحت سيطرتهم فتريد تحطيمهم حتى يبقوا في فلك سياستهم، كأن حال الأمس هو حال اليوم بكافة أشكاله الاجتماعية والسياسية.

***

فما كاد يستقر في غرناطة حتى نشط إلى محاربة النصارى، وبدأ الصراع حين ضرب ابن الأحمر الحصار حول قلعة مرتش في قوة كبيرة (636هـ)، لكن النصارى قدموا لنجدتها بسرعة، واضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار. ثم توالت المعارك بينهم حتى ظهر تفوق النصارى، عندما حاصروا غرناطة نفسها (642هـ/ 1244م)، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة، فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة، آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته؛ فسار إلى لقائه في معسكره، وقدم إليه طاعته. ونجد أن قدوم ابن الأحمر على هذا النحو إلى فرناندو إنما كان تنفيذًا لاتفاق سابق تم فيه التفاهم على تحديد مهادنة مملكة غرناطة.

على أي حال، تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك

قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، وقدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب (دوبلاس)، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، فيقدم إليه عددًا من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس)، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش.

وسلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر رهينة بحسن طاعته، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها. وفي مقابل هذا الثمن الفادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة، وأقره على ما بقي بيده من القواعد والحصون، وذلك في سنة 643هـ/ 1245م.

***

عبرة من التاريخ لحاضر اليوم:

السلام بدون قوة تحميه هو استسلام، وعندما يجد الحاكم البقاء في التنازلات والرضوخ إلى العدو ومتطلباته بكل سهولة، فهذا باب لمتطلبات وتنازلات أكبر، وبداية لسقوط مدوٍّ، وعندما يترك الحاكم السيف من يده ومن يده شعبه ويركن إلى السلم في ظل شروط ظالمة تفرض عليه، فهو الموت الحقيقي ولكن على البطيء، وبداية لنزع هيبة الدولة وسيادتها، فمن ثم لا تكون قيمة للدولة ولا شعبها إنما تكون أداة من أدوات العدو يستخدمها وقتما يشاء ويهدمها وقتما يشاء، ولعلنا نرى أمثال كثيرة واقعية بين العديد من أوطان الأمة، فالغرب يمسك بزمام أمورها، يجعل نهضتها كيفما يشاء، وانهيارها وقتما يشاء.

***

هكذا أمنت غرناطة شر العدوان حينًا، وقبل ابن الأحمر أن يضحي باستقلاله السياسي وهيبته الأدبية احتفاظًا بجزء من أراضيه، وتطلعًا إلى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال والصمود؛ وذلك لعدم وجود معاونة فعالة من أقرانه

أصحاب البقاع الإسلامية الموجودة حين ذاك على أرض الأندلس، وعدم وجود مساندة فعالة من دول الإسلام حين ذاك، وتجاهل حماسة القضية لدى المسلمين وحكامهم في الشرق.

***

⏮ إضاءات تاريخية، مؤسس غرناطة في عيون مؤرخي الغرب:

ولقد صور النقد الغربي الحديث صفات منشئ مملكة غرناطة وظروف مملكته في عبارات منها: «كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة، في الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين، وكان جريئًا بعيد الغور، ولكن مكره لم يكن راجعًا إلى طبيعة خبيثة وضيعة، بل إلى خلق خصومه الذين كان مرغمًا مقارعتهم. ففي العصور الوسطى كان قانون الأمم وعقد المعاهدات، ومجاملات الفروسية، وشروط السلم الشريف، تفهم بطريقة ناقصة، وكثيرًا ما تنتهك بعمد، وكانت معظم نقائص هذا الأمير العظيم ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير، أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه. وكان تقدم الغزو المستمر يرهق مملكته، ولكنها كانت تغدو أقوى ويغدو الدفاع عنها أيسر، كلما انكمشت حدودها. وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة، هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة؛ فتزيد سكانها كثرة على كثرة، يحملون معهم ثروات عظيمة، وصفات هي أثمن من الثروة لدولة منحلة: النشاط والاقتصاد، والمقدرة على هضم الظروف الجديدة، وذكرى المظالم السابقة، وآلام المطاردة المحزنة، وأمل الانتصاف، وشعور لا يقهر ببغض النصرانية. وكان الاندماج السياسي لهذه الجماعات المنفية المضطهدة في حماية الجبال التي تظلل ملاذها الأخير، هو الذي عاون في حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحنتها الغامرة».

***

توفي محمد ابن الأحمر في 29 جمادى الثانية 671هـ/ ديسمبر 1272م على إثر سقطة من جواده، حين عودته من معركة رد فيها جمعًا من الخوارج الذين حاولوا الزحف على الحمراء في منتصف جمادى الثانية من العام المذكور، فحمل جريحًا إلى القصر، وتوفي بعد ذلك بأسبوعين، وقد قارب الثمانين من عمره، ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة.

كانت مملكة غرناطة توطدت دعائمها نوعًا ما، واستقر بها ملك بني نصر الفتي على أسس ثابتة، وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر في مملكة غرناطة في بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بني نصر زعامتهم، ولذا؛ لم نشهد في هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى، مع أن تاريخ الدولة النصرانية لم يكن يخل من الثورات والانقلابات المحلية العديدة، وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت غير بعيد أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد أن تسهر على تراث الإسلام في الأندلس، زهاء مائتين وخمسين عامًا أخرى.

***

⏮ إضاءات من التاريخ من أجل العزم والتفاؤل:

ليس من المفروض أن تكون صاحب ملك حتى تكون صاحب هدف وإرادة، وليس من المفروض أن تكون ابن عائلة وغنيا حتى تنجح، وليس من المفروض أن تكون ذا مال حتى تكسب حب واحترام الجميع، إنما الواقع والحقيقة هي أن تكون صاحب قضية وهدف وصاحب خلق وعقيدة راسخة، تجتهد وتسعى لتكون صاحب بصمة في الحياة، لك رسالة تؤديها تجعل همك أن تكون عنوانا لعقيدتك ولأهلك ولنفسك، ويكون ذلك بأخلاق ونجاح وسعي نحو الهدف، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : «كونوا دعاة الله وأنتم صامتون، قيل: كيف؟ قال: بأخلاقكم، وكما قال آينشتاين: «الميت من ليس له

هدف»، فغرناطة رغم صغرها ظلت مشاكسة ساهرة على هدف بقائها والحفاظ على تراث الإسلام رغم ما لها وما عليها، فاعلم نحن لا نختار المكان الذي أتينا منه، ولكن نختار المكان الذي نذهب إليه.

***

غرناطة وقدرها الأخير في عيون مؤرخها المخضرم ابن الخطيب وكتابه الإحاطة

تمهيد:

أنجبت إمارة غرناطة، خلال القرن الهجري الثامن، عددًا من الشعراء والكتاب والأدباء الذين أعادوا للأدب الأندلسي المتميز الكثير من شبابه وبريقه وقوته؛ منهم ابن خاتمة الأنصاري، شاعر المرية، وابن جزي، وابن زمرك. ولعل من أبرزهم جميعًا الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي كان عبقرية فذة، وأديبًا موسوعيًا خاض غمار مختلف ميادين المعرفة والإبداع من شعر ونظم وترسل وموسيقى وطب وتصوف ورحلة وتاريخ... وصنف في جل المجالات مؤلفات نفيسة؛ بعضها وصل إلينا (في حدود الثلث حسب بروڤنسال)، وأكثرها لا نعرف عنه سوى اسمه أو أجزاء منه فقط، ومن أشهر كتب ابن الخطيب وأبرزها وأضخمها كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» الذي يشكل موسوعة أندلسية عظيمة في التاريخ والأدب معًا.

ابن الخطيب مؤرخ بين الوزارة والخصوم.

ابن الخطيب مؤرخ ووزير وشاعر أندلسي كبير، ترك لنا ابن الخطيب مؤلفات عديدة في الأدب والتاريخ، فما هي سيرة ابن الخطيب؟ وما الكتب التي تركها لنا ابن الخطيب؟

الشاعر الكاتب المؤرخ السياسي الوزير المقتول: لسان الدين أبو عبد الله

محمد السلماني، كان مولده في سنة 713هـ/ 1313م، في «لوشا» جنوب غرناطة الأندلسية، غير أنه أقام منذ صباه في غرناطة التي انتقل إليها أبوه باعتباره من موظفي بلاط بني نصر، وتلقى تعليمه على أشهر علماء عصره، فصار من أشهر المؤلفين والشعراء ورجال السياسة، لا في غرناطة الأندلسية فحسب بل في الأندلس ككل.

وتقلد الوزارة مرات عديدة، وتعرض للعزل والاعتقال؛ حتى لقي مصرعه مقتولا في سجنه خارج غرناطة سنة 776هـ/ 1774م، وللأسف الشديد، فإنه لم يبق إلا نحو الثلث مما خلفه لنا ابن الخطيب من المؤلفات العديدة في التاريخ والجغرافيا والشعر والتصوف والفلسفة والطب.

ولقب الرجل، أيضًا، بـ «ذي الوزارتين»؛ لجمعه بين مهنة الوزارة ومهنة الكتابة. وقد ولد بمدينة لوشا (Loja)، التي تبعد عن غرناطة (أو إغرناطة) بنحو عشرة فراسخ، في الخامس والعشرين من رجب عام 713هـ، الموافق للسادس عشر من نوفمبر عام 1313م. وينحدر من بيت علم وجاه وفضل وشرف؛ بحيث يحدثنا ابن الخطيب نفسه بأن بيتهم كان يعرف بـ «بني الوزير»، ثم سمي كذلك بـ «بيت الخطيب». وسبب التسمية الأخيرة أن جده الأعلى كان عالمًا ورعا يلقي دروسه ومواعظه تحت أطلال برج؛ ومنه غلب عليه اسم «الخطيب»، وأورث بنيه هذا اللقب، فعرفوا بـ «بني الخطيب» منذ ذلك الإبان.

***

⏮ إضاءات: أقوال خلدها التاريخ:

إن الحياة كلمة وموقف، الجبناء لا يكتبون التاريخ، التاريخ يكتبه من عشق الوطن وقاد ثورة الحق وأحب الفقراء. جيفارا.

***

كما أن أباه عبد الله بن سعيد (ت741هـ) يعد من علماء لوشا في زمانه، وكان

له، فضلًا عن ذلك، مركز متميز داخل المخزن الغرناطي أو البلاط السلطاني؛ إذ إنه تقلد جملة من المناصب السياسية، أهمها اشتغاله في ديوان الإنشاء مع الأديب الرئيس أبي الحسن بن الجياب. وقد خص ابن الخطيب أباه بترجمة في «الإحاطة».

نشأ ابن الخطيب وترعرع في غرناطة، عاصمة بني الأحمر، التي انتقلت إليها أسرته لأسباب معينة. ومع أنه استقر بها منذ حداثة سنه، إلا أنه لم ينس قط لوشا، بل ظلت حاضرة في قلبه، راسخة في وجدانه وكأنها أمٌ له. ومما يزكي هذا الكلام أنه تغنى بذلك الحب مرارًا في قصيده، بل إنا نلفيه في بعض قصائده يسميها «فتية غرناطة».

***

تعلم وارتقِ وكن إنسانا:

التاريخ يعلم الإنسان الدروس، ويجعله أكثر وعيًا وأقدر على اتخاذ الخطوات المناسبة، والرجولة لا تحتاج إلى دليل، ولكن الإنسانية تحتاج أن تكون موجودة وذات دلالات في كل لحظة وموقف، فالأصول لا ينساها إلا الجاحد والجاهل، والمتكبر باسم العلم هو فارغ من داخله، من ينسى قضية وطنه وجرحه فهو متملق وبلا قيمة، ومن ينسى فضل والديه فهو جاحد وسيئ العشرة، فرجولة الإنسان تظهر في أخلاقه وتمسكه بقضيته ومبادئه في وسط الشدائد وبره لوالديه والتفاخر بهما في كل مكان وموضع، فطاعة الله وبرهما والتفاخر بهما مهما كان وضعهما هو أعظم آيات الرجولة والإنسانية، فكن إنسانا، وكن مثل ابن الخطيب لا تنسى هموم وطنك والفخر بوالديك وأصلك مهما كان.

***

لقد عاش ابن الخطيب ردحًا من الزمن في كنف سلطان المغرب الأقصى، ولا سيما في ثغر سلا، ونقل لنا كثيرًا من حوادث حياته في هذا الأخير، وأشاد بطيب مقامه هناك؛ وذلك في كتابه «نفاضة الجراب». وقد أنجز خلال مستقره بهذا المكان جملة من المؤلفات توزعت ما بين منظوم ومنثور، ومنها بعض تصانيفه

التاريخية القيمة؛ مثل «اللمحة البدرية»، و«رقم الحلل في نظم الدول»؛ وهو عبارة عن تاريخ منظوم للدول الإسلامية والخلفاء الأوائل وبني العباس وبني الأغلب والعبيدين وبني أمية بالأندلس وملوك الطوائف والمرابطين والموحدين وبني مرين وبني نصر، ولهذا الكتاب نسخة وحيدة في خزانة القرويين بفاس، وثلاث نسخ بالخزانة العامة بالرباط (المكتبة الوطنية حاليًا)، وثلاث نسخ كذلك بالخزانة الملكية بالرباط. ويضاف إلى هذا كثير من الرسائل السلطانية التي دبجها، وأثبتها كلها في النفاضة.

مثلما تتلمذ الرجل لجملةٍ من الشيوخ والأساتيذ، كان له عدد من التلاميذ النبهاء الذين أخذوا عنه العلم والأدب وفنون السياسة، واغترفوا من بحر علمه الغزير. ومنهم أبو عبد الله الشريسي، مؤدب أولاد السلطان الغني بالله النصري (ت793هـ)، الذي تولى نسخ «الإحاطة» أول مرة من مسودات أستاذه، فجاءت هذه النسخة في ست مجلدات؛ حسبما يذكر المقري. ومنهم ابن زمرك الذي كان، في بادئ الأمر، معاونًا له في الوزارة، ثم تحول، فيما بعد، إلى واحدٍ من أكبر خصومه، طالما حاول الإيقاع به، وتكدير صفو علاقته بالسلطان الغرناطي من جانب، وبالبلاط المغربي من جانب آخر.

عاصر ابن الخطيب مجموعة من أكابر العلماء ورجال الأدب، وفي طليعتهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي أتحف البشرية بمقدمته الخالدة. وكان الاثنان يتراسلان ويتبادلان الكتابات، وكان يقر كل منهما بمكانة الآخر في العلم والمعرفة. وقد ترجم كل منهما للآخر. ومنهم، كذلك، الرحالة الشهير ابن بطوطة (ت779هـ)، والإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي (ت780هـ).

***

⏮ إضاءات من التاريخ: ثمرات مجالسة أهل العلم والصالحين.

إن من جالس الصالحين تشمله بركة مجالسهم ويعمه الخير الحاصل لهم وإن لم

يعمل عملهم، قال بعض الحكماء: «من جالس خيرا أصابته بركته فجليس أولياء الله لا يشقى وإن كان كلبا ككلب أصحاب الكهف، إن لهذا العلم ثمنًا. قيل: وما هو؟ قال: أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه». منقول بتصرف. فكان ابن الخطيب أهلا له ولحمله ولم يضيعه، فكن حاملًا للعلم مزودًا به، قال الشافعي في جمال العلم: «إذا كنت غنيًا زادك جمالًا وإذا كنت فقيرًا زادك مالًا»، هكذا زاد علم ابن الخطيب مكانة ومالًا، فلا تندم على طريق العلم لأنه طريق مدحه الله.

***

لقد كثر خصوم ابن الخطيب في الأندلس، وعلى رأسهم تلميذه النابه الكاتب الشاعر ابن زمرك، فبدأ مركزه المتميز يضعف يومًا بعد يوم؛ فقرر ترك السياسة ومتاعبها ومسؤولياتها، والاتجاه نحو الزهد والاعتكاف وزيارة البيت الحرام لأداء مناسك الحج. فاستشار مولاه في الأمر. وقد كان لابن الخطيب السلطان المطلق في إدارة شؤون غرناطة، وكان العمدة في سياسة المنطقة داخليًا وخارجيًا، لذا؛ نرى سلطانه شديد التمسك به، والتماس مشورته في الأمور كلها، فلم يسمح له بترك الوزارة أو التغيب عنها مدة، ولو لأداء فريضة شرعية أساسية. فما كان من ابن الخطيب إلا أن احتال على السلطان، عاقدًا العزم على الفرار إلى العدوة الأخرى، بعدما يئس من ميدان السياسة ومشاكله، فكتب رسالة مؤثرة إلى ملكه يودعه فيها، ويشرح له، عبر أسطرها، دواعي استقالته.

***

إضاءات: غاية الإنسان.

الإنسانية هي ألا يتم التضحية بإنسان في سبيل غاية «ألبرت شفايتزر»، فالإنسان مهما وصل إلى العلا والمكانة فبداخله تكمن إنسانيته، مهما شغلته هموم الحياة فيأتي عليه لحظة أن يسأم من كل شيء، فلذلك؛ اعذر من أمامك وإذا

كنت أنت الراعي فرفقًا بالبشر، وأحي فيهم دومًا إنسانيتهم وشاركهم فيها لا تجعلهم مجرد آلات وعدد وتنفيذ أوامر، فسيأتي لحظة سيتركك الجميع مهما كانت مكاسبهم المادية، ولكم في القرآن عظيم القول حينما فسر ذلك فيما معناه أنه: أيها النبي لو كنت فظًا غليظًا لانفضوا من حولك، قال - تعالى - : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (159 آل عمران). فالإنسان إنسان، ولكن ستظل أفضل غاية للإنسان هو طاعته لربه وأداء حق ربه وفروضه، فكن ذا هدف وغاية، وكن إنسانا يشعر بالآخرين حتى لا يندموا على معرفتك ومعاونتك، فلك في ابن الخطيب ومكانته وملكه مثال.

***

ومن جانبهم واصل خصوم ابن الخطيب إشعال نار التلفيق والاتهام ضده، فرموه بالإلحاد والخروج عن الشرع في بعض ما كتب في مؤلفاته. وكان أبرز مروج لهذه الدعاية، كما هو معلوم، تلميذه وخلفه في الوزارة أبو عبد الله ابن زمرك. وانضاف إليه النباهي الذي كان من أكبر وأوفى أصدقاء لسان الدين، قبل أن تتوتر العلاقة بينهما فيما بعد لاعتبارات ما.

وساءت العلاقة بين بلاطي فاس وغرناطة، فدفع ابن الأحمر بعض الثوار والخوارج من بني مرين إلى الانقلاب والثورة على السلطان المريني الذي أبى أن يلبي رغبة السلطان الغرناطي في قضية الوزير الأسبق ابن الخطيب، فأمدهم بالعون المادي والمعنوي. وقد أفلح الثوار فعلًا، فتمكنوا من خلع الملك الطفل السعيد، وتنصيب الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم مكانه عام 776هـ.

وكان التفاهم قد تم بين الغني بالله وبين زعماء الثورة بخصوص مصير ابن الخطيب. وبمجرد نجاح الانقلاب، بادر السلطان الجديد بإلقاء القبض على ابن الخطيب واعتقاله. وحوكم بعدما نسبت إليه اتهامات كثيرة، كان للنباهي وابن

زمرك اليد الطولى في إعدادها. وعزر الرجل، وعذب أمام الملأ، وسجن في زنزانة مظلمة؛ فهاجمه بعض أعدائه في سجنه ليلًا، وقتلوه خنقًا، وأخرجوا جثته في الغد، ودفنت بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحروق؛ أحد أبواب فاس القديمة، ثم أخرجت جثته في اليوم التالي، وطرحت فوق القبر، وأضرمت فيها النيران، فاحترق شعر الرأس واسودت البشرة، ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحترق كليةً. وقد وقعت هذه المأساة في ربيع الأول، أو ربيع الآخر، سنة 776 للهجرة، الموافق لأغسطس، أو شتنبر، سنة 1374 للميلاد.

وقد أشار ابن خلدون إلى تلك الواقعة الأليمة في تاريخه، قائلًا عن القتيل: إنه «الهالك لهذا العهد شهيدًا بسعاية أعدائه». وهكذا، رحل ابن الخطيب عن دنيا الناس تاركًا ثلاثة أبناء، هم: عبد الله، ومحمد، وعلي. وكانت وفاته، كما قال المرحوم محمد عبد الله عنان؛ محقق «الإحاطة»، «ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد السياسية والوضيعة».

***

⏮ إضاءات: تمسك بالنجاح رغم المعارك والخصوم واعرف معادن الرجال.

أشار المقري صاحب كتاب نفح الطيب إلى المحنة التي وقع فيها العلامة الجليل لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي والتي أدت إلى مقتله فقال: «لما كانت الأيام له مسالمة لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس مقاله، فلما قلبت الأيام له ظهر محنتها وعاملته بمنعها بعد منحها ومنتها، أكثر أعداؤه في شأن الكلام ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام»

إلى غيرها من المساوئ التي حاولوا إلصاقها به...!! تذكر: وقت الخطوب والمحن تظهر معادن الناس...!!

الانتصار في المعارك ليس هو النجاح التام.. النجاح التام هو أن تكسر مقاومة العدو بدون قتال «صن تزو»، أعداؤك ثلاثة: عدوك، وصديق عدوك،

وعدو صديقك» الإمام علي بن أبي طالب. في عصر فقدت فيه الأفكار الكبرى مصداقيتها، يصير الخوف من شبح العدو هو كل ما تبقى للساسة حتى يحافظوا على سلطتهم «زيجمونت».

ولكن عليك أن تعلم لا يصل الناس إلى حديقة النجاح، دون أن يمروا بمحطات التعب والفشل واليأس، وصاحب الإرادة القوية لا يطيل الوقوف في هذه المحطات، وصاحب الهدف يحاول ولا يقف رغم إحاطته بالمثبطين إلا أنه دومًا يكون داخله هو الحافز وهدفه هو شاغله الشاغل، فمن هنا سيصل، ويمدحه العدو قبل الصديق، فقف على ناصية حلمك وقاتل.

***

كيف يكتب التاريخ ويفسر، وكيف يتناول العظماء الأحداث، فهناك فرق بين العظماء والهواة في وقتنا الحاضر، وبين أهل التاريخ والشوامخ الموظفين، فهنا ابن الخطيب ومخطوطته تعلمنا كيف نكتب ونفهم الأحداث:

كتاب «الإحاطة»: مضمونه، ومنهجه، وقيمته.

ومن المواقف البارزة في حياة الرجل، التي يحسن بنا أن نشير إليها، موقفه من مستقبل غرناطة بلدته، فقد تنبأ بسقوط مملكة بني الأحمر نظرًا لتلك الحال المزرية التي رآها عليها.

يعتبر كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) من أهم مؤلفاته التاريخية، ترجم فيه لمن نشأ في غرناطة إحدى عواصم الأندلس وحاضرة ملك بني نصر لعهده من رجال السيف والقلم، منذ قامت في الأندلس دولة إسلامية إلى عصر المؤلف. وأسهب لسان الدين بن الخطيب في كل ما أورده عن رجال بني نصر، وأشار إلى من كان يعاصر ملوكهم من الملوك في المغرب وتونس وإسبانيا.

إن لهذا الكتاب مجموعة من الأصول المخطوطة في عدد من المكتبات العالمية؛ مثل مكتبة ليدن (هولندا)، وجامع الزيتونة (تونس)، ودار الكتب (مصر)،

والمتحف البريطاني، والخزانة الملكية (الرباط)، وخزانة جامع القرويين (فاس)، ومكتبة رواق المغاربة بالأزهر الشريف (مصر)، ومكتبة سان لورنزو الملكية بالإسكوريال (إسبانيا)، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد... وقد حقق الكتاب بعد النظر في هذه المخطوطات، أو في عديدٍ منها على الأقل، والمقابلة بينها.

***

فلنتعلم كيف نربط التاريخ بالعلوم حتى يكون ذا قيمة وعلم:

تشتمل «الإحاطة» على التاريخ والجغرافية وغيرهما من المعارف والعلوم، ولعل هذا الغنى والتنوع هو الذي جعل بعض الدارسين يدعون إلى إعادة تحقيق النص المذكور من قبل لفيفٍ من العلماء من تخصصات شتى، ذلك بأن نشر كتاب «الإحاطة» يحتاج إلى لجنة من الأدباء والمؤرخين والجغرافيين؛ لأن المجهودات الفردية لا تكفي لتحقيق مثل هذه الموسوعة الضخمة المعقدة التي تحتاج إلى مجهود جماعي لتحقيق ما ورد فيها من أعلام وأماكن، وشرح أسلوبه على أساس علمي صحيح، فعندما يكون المؤرخ واعيا ومدركا وصاحب قضية، سيتناول الحدث بوجهات مختلفة، قادرا على ربط التاريخ بالسياسة وواقع الناس وحالهم، قادرا على فهم الواقع ورؤية الحاضر ومآل المستقبل، فالتاريخ قيمته في ربطه بالواقع والعلوم الأخرى، ليعطي تفسيرًا شاملًا مقنعًا ذا رؤية وقيمة، فكن مؤرخا كابن الخطيب قادرا على كتابة حدث تاريخي بطريقة أدبية وجغرافية وسياسية واجتماعية، كتابة متشابكة ذا قيمة لا سردية ولا منسوخة، فكن مؤرخًا ذا قيمة لا ناسخا ذا شهادة.

***

وكان قد شك المرحوم المـنوني في أصالة «الإحاطة» المتداول نصها بين القراء والدارسين منذ الخمسينيات، منطلقًا مما لمسه من تناقض حين قارن بعضًا من ترجماتها بما أورده المؤلف عينه في مصنفاته الأخرى بخصوص مترجمٍ له بعينه.

يقول: «يثير الانتباه في كتابات ابن الخطيب التاريخية تناقضه في أوصاف بعض الناس، فيحلي مترجمه بحلية العلم والفضل وكرم الأبوة... حتى إذا عاود ترجمته في مؤلفٍ آخر يسلبه كل فضيلة، ويستبدلها بما يكيل له من الشتم والسخرية. ونماذج هذا ليست بالقليلة عند ابن الخطيب، ومنها ما يتبين بالمقارنة بين تراجم وردت في «الإحاطة» ثم في «الكتيبة الكامنة»، حيث كان التعريف بأمثال أبي سعيد بن لب، والنباهي، وأبي القاسم بن قطبة الرؤاسي، وابن زمرك، وأحمد بن سليمان بن فركون. فتأتي تراجم هؤلاء في «الإحاطة» بما يتجاوب مع مركزهم العلمي أو الأدبي حتى إذا قدم تراجمهم في «الكتيبة» تتغير رؤية ابن الخطيب للمترجم، ويسبغ عليه – أحيانا – من قبيح النعوت ما لا يحتمل، ويصل به التناقض إلى الأمر بإسقاط ترجمة ابن فركون من «الإحاطة»، على حين أنها تنصف واقع المترجم، عكس ترجمته المظلمة في «الكتيبة».

إن كتاب «الإحاطة» ليس تاريخًا لغرناطة بالمعنى المحدود، ولكنه عبارة عن موسوعةٍ شاملة لكل ما يتعلق بهذه الكورة الأندلسية المعروفة من الأخبار والأوصاف والمعالم؛ إذ إنها تصف لنا جغرافية غرناطة وخططها ومواقعها وما يحيط بها من المروج والجبال، وتتناول تاريخها منذ نزول أوائل العرب الشوام بها، وأخبار من كان بها ومن نزلها أو مر بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمتغلبين، كما تقدم خلاصة لتاريخ الدولة النصرية مذ عصر مؤسسها محمد بن يوسف بن الأحمر حتى عصر المؤلف (ق8هـ).

***

⏮ إضاءات تاريخية: مصادر تاريخية مفقودة لابن الخطيب ولم تذكر.

من مصادر ابن الخطيب، في «اللمحة»، كتاب يظهر من عنوانه أنه يؤرخ لغرناطة، هو «الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة»، نسبه إلى نفسه. ولكنه لم يذكره، إطلاقًا، ضمن مؤلفاته الوارد في آخر «الإحاطة»، ولا في ترجمته لنفسه في «نفاضة الجراب»! كما أن المهتمين بدراسة التراث الأدبي الأندلسي

ونشره لم يقفوا على مخطوطة للإماطة في أي من المكتبات التي تحتفظ بكتب هذا التراث! الأمر الذي جعل محمد عنان يرجح أن يكون العنوان المذكور عنوانًا آخر للإحاطة، أو مختصرًا لقسمها الأول فقط. (انظر تقديمه للإحاطة، 1/ 5859).

***

وفي «الإحاطة» تراجم لكثير من الأعلام الذين عاشوا في غرناطة، أو نزلوا بها، أو مروا بها، أو وفدوا عليها في مختلف عصور التاريخ الأندلسي الممتد. وقد أفاض مؤلفها في ذكر معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقران، واعتنى عناية خاصة بالترجمة لكبار العلماء والكتاب والشعراء ممن جايلوه، سواء في العدوة الأندلسية أو في العدوة المغربية، وأورد لهم كثيرًا من إنتاجهم الفكري شعرًا ونثرًا. ويضم كتاب «الإحاطة» بين دفتيه زهاء خمسمائة ترجمة تتفاوت فيما بينها طولًا وقصرًا وأهميةً، مع ملاحظة أن أغلبها مركز وقصير، وأن ما كان يجنح منها إلى الطول، نسبيًا، هي، في الغالب، تلك المخصصة للملوك والأمراء النصريين الذين عاصرهم، ولبعض حملة القلم المشهورين.

فإذا قارنا، على سبيل المثال، بين الترجمتين اللتين أفردهما ابن الخطيب لأحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمداني اللخمي وابن جزي الكلبي نجد أن الأولى قصيرة جدا، على حين أن الثانية طويلة نسبيًا. بل إن من تراجم إحاطته ما ناهز الخمس وسبعين صفحة؛ كما في ترجمته للأمير محمد بن يوسف بن إسماعيل الغني بالله النصري الغرناطي.

ولم يكن تطويل التراجم شأنًا خاصًا بأهل إغرناطة الأصلاء، بل عمد إلى مثل ذلك مع غير الغرناطيين؛ على نحو ما نرى في ترجمته لمعاصره أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد القرشي المقري (ت759هـ)؛ قاضي الجماعة بفاس وتلمسان، الذي استوت ترجمته، في «الإحاطة»، على خمس وثلاثين صفحة تقريبًا.

إن المترجم لهم في الكتاب مختلفون؛ ذلك بأن ابن الخطيب ترجم، في إحاطته،

للملوك والأمراء (كأمير المؤمنين الموحدي المأمون، وأمير المؤمنين الأندلسي إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خمسين بن نضر بن قيس الخزرجي الأنصاري)، والقواد (كأسد بن الفرات المري)، والقضاة (كالخضر بن أحمد بن الخضر بن أبي العافية)، والأدباء (كالحسن بن محمد بن علي الأنصاري)، والعلماء (كإصبع بن محمد بن الشيخ المهدي)، والشعراء (كأبي بكر المخزومي الأعمى المورواري)، والطلاب النجباء (كمحمد بن الحسن بن زيد بن أيوب بن حامد الغافقي). ولم يقتصر لسان الدين على الرجال، بل إنه ترجم للنساء كذلك؛ من مثل حمدة بنت زياد المكتب، وأم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي؛ وهي من أهل لوشا؛ مسقط رأسه.

لقد استهل ابن الخطيب أول أجزاء إحاطته بمقدمة قيمة تعداد صفحاتها حوالي الخمس، افتتحها بقوله: «أما بعد حمد الله الذي أحصى الخلائق عددًا، وابتلاهم اليوم ليجزيهم غدًا...»، وختمها بقوله: «وجعلت هذا الكتاب قسمين، ومشتملًا على فنين: القسم الأول في حُلى المعاهد والأماكن، والمنازل والمساكن. القسم الثاني في حُلى الزائر والقاطن، والمتحرك والساكن»، فهذه المقدمة، على قصرها، ضمت جملة من العناصر والمضامين؛ ففيها حمد الله – تعالى – والثناء عليه، والصلاة على الرسول الأمين – صلى الله عليه وسلم – ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

إضاءات: تعلم قراءة التاريخ ودوافعه في كتب المؤرخين القدامى.

ويطرد هذا العرف في الكتابات الإسلامية المتقدمة جميعها. وعقب ذلك، أومأ الرجل إلى أهمية فن التاريخ، وبين بعض دواعي الاحتفال به؛ على نحو ما فعل ابن خلدون في فاتحة مقدمته. وفي المقدمة نفسها ذكر لنا ابن الخطيب سبب تأليفه «الإحاطة»، وهو أنه رأى كثيرًا من العلماء والأدباء قد ألفوا تواريخ لأوطانهم في الشرق والغرب معًا؛ من مثل ابن عساكر (تاريخ دمشق)، وأبي نعيم (تاريخ

أصبهان)، والأردسي (تاريخ سمرقند)، والقشيرى (تاريخ الرقة)، والأزرقي (تاريخ مكة)، وابن النجار (تاريخ المدينة)، وابن الأصغر (تاريخ تلمسان)، وابن أبي زرع (تاريخ فاس)، وابن خمسين (تاريخ الجزيرة الخضراء)، فحرك فيه ذلك شعورًا دفعه إلى التفكير في كتابة تاريخ لكورته «غرناطة.

***

كما ذكر ابن الخطيب منهجه في التأليف والترتيب وموضوعات إحاطته؛ إذ أشار إلى أن كتابه هذا يتحدث عن إقليم غرناطة من حيث هواؤه، وسكانه، وقبائله، وملوكه، وأعيانه، وأكابره، وفضلاؤه، وقضاته، وأدباءه، وزهاده، وغير ذلك من الأمور المتصلة بذلك الإقليم، وأشار كذلك، إلى أحد المتقدمين الذين عمدوا إلى كتابة تاريخ لغرناطة، إلا أن محاولته جاءت قاصرةً في نظره؛ حيث يقول: «كان أبو القاسم الغافقي من أهل غرناطة قام من هذا الغرض بفرض، وأتى من كله ببعض، فلم يشف من غلة، ولا سد خلة، ولا كثر قلة، فقمت بهذا الوظيف، وانتدبت فيه للتأليف. وذكر أن عمله هذا الذي هو مقدم عليه لن يكون شاملًا، ولن يكون كاملًا؛ لـ «نزارة حظ الصحة، وازدحام الشواغل الملحة» عليه. ومما تمتاز به مقدمة «الإحاطة»، من الناحية اللغوية والأسلوبية، غلبة ظاهرة السجع عليها، وكذا طابع الإيجاز والجمل القصيرة المتوازية، وحضور اللفظ الغريب والجزل الفصيح بين ثناياها أيضًا.

ويقع الجزء الأول من «الإحاطة»، فضلا عن الخطبة/ المقدمة، في قسمين اثنين. فأما الأول فعنوانه «في حُلى المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن»، وقد تطرق فيه المؤلف إلى اسم مملكة «غرناطة» (أو إغرناطة)، وتحدث عن تاريخها وجغرافيتها وبنائها وفتحها ونزول العرب الشاميين من جند دمشق بها وعمن تداول هذه المملكة العريقة منذ أن صارت دار إمرةٍ لبني زيرى، سنة 403هـ، إلى أن تخذها بنو الأحمر قاعدة لملكهم. وأما القسم الثاني فعنوانه «في حُلى الزائر والقاطن والمتحرك والساكن»، وقد ترجم فيه ابن الخطيب لعدد من الرجال

والأعلام ذكورًا وإناثًا، ومنهم: ابن جزي الكلبي، وابن قعـنب، وابن الباذش، وابن مصادق، وابن فركون، وابن صفوان، وابن خاتمة الأنصاري.

***

إضاءات: كيف يكون منهج التاريخ على نهج العظماء.

ويتضح من قراءة «الإحاطة» أن صاحبها قد اتبع منهجًا متميزًا في تنظيم محتواها وموادها. ونقصد بالمنهج في هذا الصدد، الطريقة التي يسلكها المؤلف في ترتيب عناصر مؤلفه وتصنيفها وتنظيمها. كما يراد به، في سياق آخر، الطريق التي يسلكها الدارس لمعالجة الظاهرة الأدبية وتحليلها وتأويلها. وقد أشار ابن الخطيب، في مقدمة كتابه، إلى بعض معالم منهاجه في تصنيف «الإحاطة»، وهو منهج يمتاز، عمومًا، بالوضوح والإحكام إلى حدٍ بعيد. يقول: «ذكرت الأسماء على الحروف المبوبة، وفصلت أجناسهم بالتراجم المرتبة؛ فذكرت الملوك والأمراء، ثم الأعيان والكبراء، ثم الفضلاء، ثم القضاة، ثم المقرئين والعلماء، ثم المحدثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء، ثم الكتاب والشعراء، ثم العمال الأثراد، ثم الزهاد والصلحاء والصوفية والفقراء»، فمن هنا نجد أن أهم ما يميز المؤرخ وضوح منهجه وفكره وبساطة العرض ووضوح الهدف المراد من تناول الحدث، والأهم ربط الأحداث وترتيبها فكريًا وزمنيًا.

***

لقد ذكر ابن الخطيب في مقدمة إحاطته، وفي متنها، مصادره ومظانه، وعلى رأسها تواريخ ابن القوطية وبني الرازي، و«المقتبس» لابن حيان، و«قلائد العقيان» للفتح بن خاقان، و«الذخيرة» لابن بسام الشنتريني، و«تاريخ مالقة» لابن عساكر، و«البيان المغرب» لابن عذاري المراكشي، و«روض القرطاس» لابن أبي زرع الفاسي. ورجع، فيما يتعلق بتاريخ الدولة المرابطية، بشكل كبير، إلى تاريخ ابن الصيرفي المسمى «الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطية».

والحق أن كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»، كما يسمى في مخطوطة دار الكتب بمصر، ومخطوطة جامع الزيتونة بتونس، أو «الإحاطة بتاريخ غرناطة» أو «الإحاطة في تاريخ غرناطة» أو «الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة»، يعد أشهر كتب ابن الخطيب وأهمها، رغم أن المتوفر منه لدينا ناقص... كما يصعب على القارئ حصره في بوتقة واحدة، بل إنه كتاب ضخم في التاريخ والأدب والتراجم وغيرها.

غرناطة في كتابات وعيون مؤرخها ووزيرها ابن الخطيب.

كانت غرناطة وقت فتح الأندلس مدينة صغيرة من أعمال ولاية «ألبيرة» تقع على مقربة من مدينة ألبيرة قاعدة الولاية من الناحية الجنوبية، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس، في موقعة شريش في رمضان 92هـ/ 711م. ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس، ودب الخلاف بين القبائل عقب موقعة بلاط الشهداء (113هـ / 732م)، اشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية، والعرب والبربر من ناحية أخرى، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي أن يعمل على تهدئة الفتنة؛ بتمزيق عصبة الشاميين؛ ففرقهم في أنحاء الأندلس، وأنزل جند الشام بكورة ألبيرة، وجند حمص بإشبيلية، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة، وجند الأردن برية، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية ألبيرة، وغدوا بمضي الزمن كثرة فيها. ولقد استمرت مدينة ألبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها في ظل الدولة الأموية، حتى أواخر القرن الرابع الهجري حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن، وعاث البربر في النواحي، وخربت مدينة ألبيرة شيئًا فشيئًا؛ حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها، ومن ذلك الحين يختفي اسم ألبيرة وغرناطة، وتعتبران في معظم الأحيان لا سيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس اسمين لمكان واحد، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما.

***

⏮ إضاءات من السنة النبوية: الفتنة والعصبية، الأمس واليوم في عيون السنة.

قال رسول الله – صلى الله عليه وآله – : «إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفًا، وشرف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعًا، وأعز بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلًا، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها». فالناس اليوم كلهم ـ أبيضهم وأسودهم، وقرشيهم وعربيهم وعجميهم ـ من آدم، وإن آدم خلقه الله من طين، وإن أحب الناس إلى الله جل جلاله يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم» الكافي: 5 / 340 / 1 عن أبي حمزة الثمالي. وقال – صلى الله عليه وسلم – في حديثه عن الفتن: «عن ابن عمرو: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم! أي قوم أنتم؟»، قال عبد الرحمن بن عوفٍ: نكون كما أمر الله. فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : «أو غير ذلك تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون. أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعضٍ» (مسلم، وأخرجه ابن ماجه جـ 2 – كتاب الفتن – باب فتنة المال ص 1324. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي).

***

لقد قامت مملكة غرناطة، التي شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية، دهرًا طويلا آخر في ظروف متواضعة؛ ذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعًا؛ ينتزع بعضها «ابن ود» وثوار النواحي، والبعض الآخر ينتزعه النصارى، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر، سليل بني نصر، وهم في الأصل سادة حصن أرجونة من أعمال ولاية جيان (وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي).

سقوط غرناطة ونهاية الأندلس 1492م في ضوء كتابات المؤرخين.

⏮ تمهيد:

كانت مملكة غرناطة عند قيامها في أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تشمل القسم الجنوبي من الأندلس القديمة، وتمتد فيما وراء نهر الوادي الكبير إلى الجنوب، حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، ويحدها من الشمال ولايات جيان وقرطبة وإشبيلية، ومن الشرق ولاية مرسية وشاطئ البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة، وكانت تشتمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة، وهي ولاية غرناطة الواقعة في الوسط، والممتدة جنوبًا حتى البحر، وأهم مدنها العاصمة غرناطة، ووادي آش وبسطة وأشكر وحصن اللوز ولوشة والحامة وأرحبة والمنكب، وشلوبانية وولاية ألمرية؛ وهي تمتد من ولاية مرسية حتى البحر، وأهم مدنها ثغر ألمرية وبيرة والمنصورة وبرشانة وبرجة ودلاية وأندرش، وولاية مالقة، وهي تقع على البحر غربي غرناطة، وأهم مدنها ثغر مالقة، وبلش مالقة وطرش وقمارش وأرشدونة وأنتفيرة ورندة ومربلة، ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف.

***

⏮ إضاءات جغرافية: عندما يستغل الإنسان جغرافيا المكان يصنع حضارة وقوة.

كانت تخترق مملكة غرناطة من الوسط جبال سيرًا نفادا (جبل شلير) الشاهقة، وهضاب البشرات الوعرة وبسائطها الخضراء، كما تخترقها عدة أنهار منها شنيل فرع الوادي الكبير ونهر أندرش الصغير، وفي الشرق نهر المنصورة، وكانت خواصها الطبيعية تجمع بين المروج والوديان الخصبة، والجبال والهضاب الوعرة، تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة، ينميها ويضاعفها الشعب الأندلسي

الموهوب بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة. وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة تستمد من مواردها الطبيعية أسباب القوة والمنعة والرخاء، كما يذكر د. جمال حمدان: أن البيئة والجغرافية لها دور في حياة ونهضة الدول، فالبيئة الخيرة تجعل الإنسان ساكنا مستسلما لخيرات البيئة ليس لديه القابلية الفعالة لزيادة الخير وقيام حضارة، وضرب مثال ببلاد العرب، والبيئة الصعبة والموارد الشحيحة تجعل الإنسان في حالة تحدٍ دوما مع البيئة، ونشاط دائم من أجل تأمين معيشته وكسر وإخضاع البيئة لاحتياجاته، وضرب مثال في بيئة أوروبا واليونان وبرودة جوهم، فالجغرافيا والتاريخ علمان مرتبطان الإنسان ونهضته، فلنتعلم التاريخ والجغرافيا.

***

مقدمات سقوط غرناطة:

ظلت غرناطة ترحب باللاجئين القادمين من مختلف أنحاء إسبانيا ولا تتكلم غير العربية. ورغم وجود يهود فيها، فقد خلت من المستعربين. إن هذا التشبث بالإسلام والدفاع عنه يبدو معقولاً بعد الاهتمام بالجهاد الذي أظهره المرابطون والموحدون، وبعد حركة الاسترداد المتزايد خلال مرحلة النجاح 1212 – 1248م. أما أزهى مراحل تاريخ دولة بني نصر فكانت بين عامي 1344و1396م، وهي الحقبة التي بنيت فيها أروع أقسام الحمراء، وكانت الدولة على العموم مزدهرة بفضل زراعتها الكثيفة وحرفها المتباينة وتجارتها، غير أنها كانت تعاني صعوبات داخلية كثيرة؛ فالصراع على وراثة الحكم كان يتكرر بين أبناء الأسرة الحاكمة، خاصة ابتداء من العقد الأخير من القرن الرابع عشر، وكان لكل منهم مؤيدوه من أصحاب النفوذ، ثم إن موقف الدولة كان يشجع على تزايد نفوذ الفقهاء، وهؤلاء كانوا مع المرتزقة الأفارقة وبعض العناصر من أهل المدن يميلون إلى الحرب، وكان يقف في الجانب المعارض النخبة الحاكمة والتجار والفلاحون الذين كان السلم يخدم مصالحهم بصورة أفضل من الحرب وعدم الاستقرار.

انتهى حكم النصريين بسبب ضعفهم الداخلي وتعاظم قوة الإسبان التي زادت بعد اتحاد مملكتي أرغون وقشتالة إثر زواج فرناندو وإيزابيلا. ومع ذلك ربما كان بالإمكان تأجيل الانهيار لو أن الحكام المسلمين حافظوا على رباطة جأشهم ولم يدعوا نفاذ الصبر سبيلًا إلى نفوسهم. ففي عام 1481م، وقبل انتهاء مرحلة الهدنة، انتزع فريق من المسلمين حصن (الصخرة) من أيدي الإسبان، فحمل هذا العمل الاستفزازي فرناندو وإيزابيلا على توطيد العزم على وضع نهاية لوجود غرناطة، ومن هنا بدأت النهاية الفعلية لمملكة غرناطة، آخر الممالك الإسلامية على أرض إسبانيا، بسبب ضعف حكامها وعدم المساندة الحقيقية من الشرق الإسلامي.

***

⏮ إضاءات: أقوال تاريخية خالدة.

يعلمنا التاريخ أن الحروب تبدأ عندما تعتقد الحكومات أن ثمن العدوان رخيص «رونالد ريغان». العار الذي لا يمحوه كر الدهر هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منهم لتمكين أيدي العدو من نواصيهم، إما غفلة عن شؤونهم أو رغبة في نفع وقتي. «**جمال الدين الأفغاني**».

***

تفاعلت الأحداث وتشابكت حتى واتت الفرصة الإسبان لدخول غرناطة، لقد كانوا يتصيدون الفرصة ويبحثون عن سبب يمكنهم من دخولها، وقد مكنهم من ذلك الأمير الغرناطي مولاي أبي الحسن ومن بعده ابنه أبو عبد الله الصغير، حيث تولى الأول عرش بني الأحمر منذ سنة 1465م، لكنه أراد أن يحرر شعبه من الجزية أو الضريبة التي يؤدونها لعرش قشتالة منذ عهد الملك فرناندو الثالث مستغلا الوضع الذي توجد عليه المملكة. وأمام رفضه ومماطلته، بعث له الملكان الكاثوليكيان رسولا يطالبه بالمال المفروض على إمارته، فقال مخاطبًا

مبعوث الملكين: «عد وقل لمليكك، لقد مات الغرناطيون الذين كانوا يعطونكم المال ويؤدون للمسيحيين عطاياهم، وأخبرهما بأنه لا يوجد في غرناطة حاليًا إلا السيف والحديد والرماح التي نصوبها لنحور أعدائنا». استفز ذلك الرد فرناندو وإيزابيلا، وقررا أن يخوضا من جديد غمار ملحمة الاسترداد[1]. ويرى بعض الباحثين الإسبان أن مولاي أبا الحسن بهذه الخطوة تعجل في سقوط غرناطة، وتجاهل أسباب عديدة اقتصادية وسياسية وغيرها. ونعتقد أن مولاي أبا الحسن اتخذ موقفه هذا انطلاقًا من عقيدته التي تحسه على الجهاد والدفاع عن مملكته ودينه، وهو ما لا يضعه الباحث الإسباني في الاعتبار، رغم أهميته بالنسبة لحاكم مسلم متدين كمولاي أبي الحسن.

***

عبرة من التاريخ: من واقع السياسة والتاريخ في مجابهة العدو.

المقاتل الجيد يحصن نفسه ضد الهزيمة (عبر إخفاء تحركاته وأثره، واتخاذ إجراءات أمنية احترازية دائمة ومشددة) لكنه لا يستطيع تأكيد إمكانية هزيمة العدو (فالعدو هو من يهزم نفسه) « سون وو»، إذا كان العدو يستريح، فلا تعطه الفرصة لذلك.. إذا كنت أنت تستريح، احرص على أن تنهك قوى عدوك أثناء راحتك، فإذا أردت أن تواجه العدو لا بد أن تكون متأكدا من قوة البناء في الداخل وأصالة الشعب وتحمله، فمحاربة العدو ليس فقط بالسيف، ولكن لا بد أن يسبق السيف فكر وبناء جيل ووعي وإيمان بالقضية، ورخاء في كافة المستويات والأشكال في الداخل علميًا واقتصاديا وأخلاقيا واجتماعيا وثقافيًا، فهذا هو السلاح الأقوى من أي شيء.

***

(1) – **دون باسكوال بورونات إي براتشينا:** الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ترجمة: كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة، ج1، المغرب 2012، ص110.

هنا بدأ فرناندو الاستعداد والاتحاد من أجل إسقاط آخر ممالك المسلمين في إسبانيا، فشن هجمات عديدة على المملكة وحصونها. وهكذا هاجم الزهراء، ودخل الحمراء سنة 1481م، الأمر الذي زرع الهلع في وسط المسلمين، وتداولت الأوساط الشعبية أغاني في وصف هلعهم، وبينما يستعد أبو الحسن لاسترجاع الحمراء، كان الملوك الكاثوليكيون يجهزون لعملية استرداد جديدة. وفي 11 يوليو 1481م حدث اشتباك بين المعسكرين، توفي خلاله (دون رودريغو خيرون) ابن دييغوا القشتالي، قائد كثالا، والذي كان كذلك القائد الأعلى لكلترافا، وفرسان آخرون. وهنا هب الملك دون إرناندو لإنقاذ المحاصرين وتوجه نحو غرناطة، حيث اجتث الزرع والغرس، وحاصر كل الحدود، ثم عاد منتشيًا إلى قرطبة.

كان هدف الإسبان المرابطين في حدود غرناطة الاستيلاء على لوشة، فقدموا بعض رجالهم، لكن الصدام كان أقل حدة مما وقع في الجهة الشرقية؛ حيث فاجأهم جنود غرناطة بين جبال كوتار، وهو المكان الذي ما زال يعرف باسم «عقبة القتلى»، حيث هلك خلال تلك المواجهات (دون دييغو)، ودون لوبي، ودون بلتران، إخوة مركيز قادس؛ ودون لورينثو، ودون مانويل، ابني عمه، وكذلك مات عدد كبير من أفراد عائلته وغيرهم. ولقد نشبت هذه المعركة في صباح يوم الجمعة 21مارس 1483م.

ولقد عرفت الفترة نفسها خلافات حادة بين أبي الحسن وابنه من زوجته عائشة (أبو عبد الله الصغير) الذي تمرد ضد أبيه؛ فطرده أبوه من غرناطة. وفي ذلك الوقت جهز أبو الحسن جيشًا من ثمانية آلاف مقاتل غرناطي لأجل اجتياز حدود استجة قبل أن يفيق الإسبان من صدمتهم، ولكن المحاولة فشلت، ودارت الدائرة على بني نصر. وهنا استسلمت مملكة غرناطة للإسبان، وتساقطت المدن والقرى الواحدة تلو الأخرى، مثل كوين كرطامة روندة وماربيا ومكلين وغيرها، وقد سهل لهم تلك المسألة أبو عبد الله الكبير، الذي خلف أبا الحسن في حكم غرناطة، وسادت الخلافات بين ملوك غرناطة وخاصة أبي عبد الله وعمه،

إلى أن وجد نفسه مضطرا للدفاع عن نفسه ضد الجيش الغالب، جيش الملوك الكاثوليكيين وهكذا، وفي عام 1486م، استولى دون فرناندو على لوشة، بينما كانت الأطراف المسلمة تقتتل فيما بينها، ثم سقطت في أيديهم بيليث، ولاحقًا مالقة وبييثا، واستمرت المواجهة في الطرفين حتى ربيع 1491م، حينما قرر الملوك الكاثوليك الاحتفال بعيد الفصح في إشبيلية ليتجهوا بعد ذلك نحو غرناطة.

كانت تلك الحرب حدا فاصلًا في العلاقة بين المسيحيين والمسلمين الذين انتهى حكمهم بعد ثمانية قرون من السيطرة، وخلال محاصرة الجيوش المسيحية للمسلمين تدخل اليهود لنجدتهم بقيادة أبراهام وإسحاق أباربانيل. لقد كان لحركته وقعًا مهمًا على الجنود الإسبان والملوك الكاثوليك. بدورها قامت الملكة إيزابيلا بدعم الجيش خلال حصاره لغرناطة، وأغدقت عليه العطايا والمؤن لدرجة إفراغ خزينة مملكتها. وبعد حصار استمر لأكثر من ثمانية أشهر، استطاع الملوك الكاثوليك فرض قوانينهم على المدينة المحاصرة التي تفاوضوا بشأنها مع أبي القاسم. وفي 2 يناير 1492م استطاعوا الاستيلاء عليها، وأقسموا على اقتلاع معالم غرناطة الإسلامية كما تقتلع حبات الرمان واحدة تلو الأخرى.

وفي النصف الأخير من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بدأت بوادر الضعف تظهر على مملكة غرناطة من انقسامات داخلية وحروب على العرش، وظهر ذلك جليا في ضعف الحركة الفكرية في مملكة غرناطة خصوصًا بعدما بدا في الأفق نذير سقوطها، فهجرها العديد من أبنائها المتميزين، وغادروها إلى بلاد المغرب ومصر والشام، ولم يعودوا إليها. في الوقت نفسه حدث النزاع على العرش، وافتقدت الظهير المغربي بضعف دولة بني مرين ثم ذهابها في سنة869هـ/ 1464م، ولم يكن خلفاؤها من بني وطاس من القوة بحيث يستطيعون عون مملكة غرناطة.

على أن الأهم من هذا كله ما جرى من تطورات في إسبانيا. ففي سنة 879هـ/ 1474م مات إنريكي الرابع ملك قشتالة، وخلفته أخته إيزابيلا Isabel

(1474 – 1504م)، وكانت متزوجة من الأمير فرناندو الأرجوني. وفي سنة 1479م ارتقى فرناندو عرش أراجونة، ثم اتحدت المملكتان الإسبانيتان، ليبدأ عصر جديد في تاريخ إسبانيا، إبان ذلك كانت الحرب الأهلية قد دبت في مملكة غرناطة بين سلطانها أبي الحسن علي الملقب بالغالب بالله (867هـ/ 1462م – 890هـ/ 1485م) وبين أخيه أبي عبد الله الملقب بالزغل (أي الباسل) ثم بين هذا الأخير وبين أخيه أبي عبد الله محمد، وانقسمت المملكة، فصارت غرناطة وأعمالها لأبي عبد الله، وصارت وادي أش Guadix وأعمالها للزغل.

أفاد القشتاليون من هذه الفرصة، فاستولوا على لوشة، ثم زحفوا إلى مالقة، ولم يستطع الزغل نجدتها، فسقطت في أيدي الإسبان سنة 892هـ/ 1487م، وأتبعوها بالمنكب وبسطة Baza، ولم يتبق سوى وادي أش، فلم يجد الزغل بدًا من الاستسلام والرحيل إلى المغرب، وبرحيله دخل النصارى وادي أش، ودخلوا بعدها ألمرية. وفي عهدها الأخير ظهر في مملكة غرناطة تيار قوي، ينحو لطلب العون من السلطنة المملوكية بالقاهرة، ومن السلطنة العثمانية باستانبول، وتكرر هذا الطلب عدة مرات ولم تجاوز الاستجابة حد القول إلى الفعل.

وبعد أن تخلص الملكان الكاثوليكيان من خصمهما الزغل، لم يتبق لهما سوى مدينة غرناطة وأحوازها، وكان يدافع عنها عشرون ألفًا من المقاتلة، يواجهون ما بين خمسين ألفًا إلى ثمانين من أعدائهم مزودين بالمدافع وآلات الحصار، وبدوره شرع فرناندو في تخريب حقول البشرات وفحص غرناطة لمنع القوات عن المدينة، وهي القوات التي دعتها إيزابيلا شنتفى santa fe أي «الإيمان المقدس « ومنعت سفن النصارى الإمدادات الواردة من المغرب.

***

كأنك ترى حال الأمس في حاضر اليوم:

في السياسة ليس هناك عدو دائم أو صديق دائم هناك مصالح دائمة «تشرشل»، فإن مسؤولية حماية أنفسنا من تلقي الهزيمة تقع على عاتقنا نحن، لكن فرصة هزيمة العدو يوفرها لنا العدو نفسه (عبر خطأ يقع فيه)، وبالفعل، قد استغل النصارى هذه النقطة، وهي توافر الأسباب للقضاء على غرناطة وملوكها، فعندما كان العدو يحيط بالمملكة من كل مكان كان أهل السلطة والعائلة يتصارعون فيما بينهم ولمن الولاية والحكم، ونسوا ما يحاط بهم من مكر وخديعة، فهلكوا جميعًا، فأقوى سلاح ممكن أن تستخدمه لهزيمة عدوك هو غباؤه، فاليوم نرى حال غرناطة في واقعنا وواقع أمتنا، تحاط الأمة بالأعداء والمتربصين في كل مكان، ولكن شغلنا اليوم هو الحفاظ على السلطة ومن يقوى على الآخر ومن تكون كلمته هي العليا.... إلخ، فتناسينا عدونا رغم ضرباته المتتالية لنا، بل ظننا أنه أقرب إلينا من بعضنا البعض، فإذا لم تنتبه الأمة فسيكون مصير الجميع كمصير غرناطة وحكامها، ويحتفل الغرب كل يوم بسقوط دولة لنا ونبكي نحن كل يوم على جرحنا وضحايانا، نحارب العلم والفكر ويستقبلهم العدو بالمال والعطايا، فيستفيد ويبني حضارة بعقولهم، ونحن كل يوم نهدم حضارة عندما نضيق على الأمور ونهملهم ونكون سببًا في هجرتهم، كأن نداء غرناطة أمس هو نداء سوريا والعراق وفلسطين اليوم، كأن قول الأمس وقليلا من العون، هو تنديد وشجب اليوم، فضاعت غرناطة عندما لا تجد من يجيب النداء، فهل ستضيع هذه سوريا واليمن والعراق وغيرهم، أم ستجد معينا ومغيثا؟

***

نهاية مملكة غرناطة

بدأ حصار غرناطة في 12 جمادى الثانية 896هـ/ 23 أبريل 1491م، وطال عدة شهور، ولم يعد لدى المسلمين جلد على مجاهدته، وعرض النصارى معاهدة

تضم ستا وخمسين مادة، بقي منها نصها العربي ونصها القشتالي.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: نهاية وهول سقوط غرناطة في عيون مؤرخي الغرب.

كشف خوسيه غوميث سوليني عن عثوره على وثيقة إنجليزية تؤكد أن سقوط غرناطة الإسلامية والحصار الذي عانت منه المدينة «كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن»، كما توضح مدى الترف والأبهة التي تميزت بها القصور الغرناطية والبلاط الملكي، وأثر الحصار الذي فرضته القوات الإسبانية على أهالي مدينة غرناطة، حتى اضطرهم إلى أكل الكلاب والقطط. وهو يخلص إلى أن العرب دفعوا ثمنًا باهظًا للغاية بسقوط آخر جوهرة لهم في أوروبا. وأضاف أن عدد القوات التي حاصرت غرناطة كان أكبر بكثير من عدد القوات الغرناطية، مخالفًا بذلك الرواية المتواترة من أن جيش غرناطة كان كبيرًا. وتضيف الوثيقة أن «أهالي غرناطة مروا بمعاناة قاسية خلال أعوام الحصار، وقامت القوات الإسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة، ما تسبب في مجاعة رهيبة بين سكان غرناطة، ولهذا السبب أكلوا الخيول والكلاب والقطط». وتتعرض الوثيقة أيضا للكنوز الهائلة التي حصل عليها الإسبان «ففي مسجد غرناطة كان هناك 300 مصباح من الذهب والفضة. وعثر ملك إسبانيا على كميات هائلة من الذهب، وبها بنى الكنيسة مكان المسجد». ويذكر مؤلف إنجليزي أن «الملك فرناندو لم يسمح للمسلمين إلا بما يستطيع كل واحد منهم أن يحمله على ظهره من حاجات، عدا الذهب والفضة والسلاح»، ولهذا وجد الجيش الإسباني عند دخوله المدينة الآلاف من الأسلحة من سيوف ودروع ومناجيق.

❊ ❊ ❊

ويشير «غوميث سولينيو» إلى أن الوثيقة تذكر أن الاستيلاء على غرناطة تم عام 1491، والصحيح هو 1492، والسبب هو أن السنة الجديدة لدى الإنجليز

كان تبدأ في 25 مارس، وليس الأول من يناير، واختتم «سوليني» حديثه عن تبعات سقوط غرناطة بالإشارة إلى أن انهيار الحكم العربي في المدينة كان له صدى واسع للغاية، ليس فقط في إسبانيا، وإنما في كل أوروبا، فأقيمت الصلوات في العديد من المناطق.

في البداية، كانت الروح العامة للمعاهدة طيبة، حيث قررت بقاء المسلمين على حالهم التي كانوا عليها، وسمح لهم بحرياتهم الدينية كاملةً، وألا يؤدوا من الأموال إلا ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم، وأن يسيروا وفق شرائعهم، وسمح لمن أراد بالعبور إلى المغرب بأولاده وأمواله، وذيلت المعاهدة بأن الملكين الكاثوليكيين يؤكدان هذا العهد ويضمنانه بدينهما وشرفهما الملكي.

وعند عرض الاتفاق على أهل غرناطة استقبلوه بوجوم، لكن المعارضة التي تزعمها موسى بن أبي الغسان – وقد استشهد فيما بعد – كانت معارضة محدودةً. وفي 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير 1492م دخل الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة، ونُصب صليب فضي كبير على برج الحراسة Torre de la vela وهو أعلى الأبراج بقصر الحمراء، ورفعت إلى جواره راية القديس يعقوب وراية قشتالة، وانطلق الرهبان يرددون: «الحمد لله»Te Deum Laudamus.

***

⏮ إضاءات تاريخية: سقوط الأندلس قديمًا والحاضر اليوم في نظريات التاريخ وعيون المؤرخين.

ابن خلدون – رحمه الله – له كتاب مشهور اسمه: المقدمة، وهو مقدمة لكتاب التاريخ الذي ألفه، ويقول في هذا الكتاب: إن أعمار الدول لا تكاد تتجاوز مائة وعشرين سنة غالبًا، أي: إن الإنسان عمره قد يصل إلى مائة سنة، يقول: الدول غالبًا أنها مائة سنة، أو قريبًا من ذلك، وقد تزيد إلى مائة وعشرين سنة.

وأشار أيضًا في مقدمته من جانب آخر، إلى أن أية دولة تمر بخمسة أطوار: ذكر

الطور الأول منها: وهو أنها أول ما تقوم يغلب عليهم نشوة الظفر، والحصول على المطلوب، فأي مجموعة من الناس، أصحاب عصبية، أو قبيلة من القبائل جاهدت وقاتلت حتى حصلت على الملك، تجد أنهم في المرحلة الأولى مجتمعين؛ لأن الملك حصل لهم جميعًا، فبينهم تعاون وتظافر وتلاحم؛ لأن هذه هي العصبية التي قامت عليها الدولة. وبعد ذلك يأتي الطور الثاني: وهو أن يعمل بعضهم على الاستئثار بهذه الدولة وبهذا الملك العريض الذي ورثوه، فيحرص أحدهم على أن يكون الملك فيه وفي بنيه من بعده مثلًا، وأن يكون له السمعة الحسنة، والجاه العريض، فيعطي الناس العطايا، ويصنع الصنائع، ويحسن ليذكر، ويقال: عمل فلان، وينسى من عداه، وهذه هي المرحلة الثانية، وسماها ابن خلدون مرحلة أو طور الاستبداد عن المشاركين والانفراد عنهم بالسلطان. ثم الثالثة: مرحلة أو طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك. والرابعة: هي مرحلة الخنوع والمسالمة والتقليد للسابقين؛ بحيث يقول الإنسان ما كان عليه آباؤه وأجداده هو السليم، والخروج عنه قد يؤدي إلى الانهيار. وأخيرًا: مرحلة الإسراف والتبذير؛ حيث يصطنع الحاكم قرناء السوء، ويقربهم منه، ويبعد الجلساء الصالحين الناصحين، فيحملون عليه ويحقدون، ويتمنون زواله، والزوال نوعان: زوال ملة. وزوال دولة، فتم زوال الأندلس دولة وديناً.

ونظرية توينبي في قيام وصعود وسقوط الحضارات بسيطة للغاية. يطلقون عليها «نظرية التحدي والاستجابة» بالنسبة إليه، الحضارات تقوم وتصعد استجابة لتحديات محددة، سواء كانت هذه التحديات مادية او اجتماعية. وفي تحليله أن الحضارة عندما تصل إلى مرحلة تعجز فيها عن الاستجابة للتحديات التي تجابهها، فإنها تدخل في مرحلة الانهيار، ولقد لخص هو بنفسه القضية برمتها في عبارة بليغة حقا عندما قال: «الحضارات لا تموت قتلا، وإنما تموت انتحارا».

***

إضاءات وتحليلات تاريخية لمعاهدة تسليم غرناطة من وجهة نظرنا:

ولنا أن نعقب على هذه المعاهدة وظروفها، ولماذا قبل بها الملكان مع أن كل بنودها كانت في صالح الطرف المنهزم، حيث تكونت معاهدة تسليم غرناطة من 52 بندًا، حيث رضوا به لأن غرناطة آخر الممالك الإسلامية وليس له امتداد أو وجود بعد سقوط آخر الممالك الإسلامية على أرض إسبانيا. وهنا نجد أن نص بنود المعاهدة يحمل الروح الطيبة، وأن كل البنود كانت في صالح الطرف المنهزم، من حيث الحفاظ على الديانة والممتلكات والأعراض وغيرها، ولكن كان ما وراء ذلك أمورًا غير واضحة، ينبغي التوقف أمامها لفهمها وتفسيرها وبيان سبب رضوخ الطرف المنتصر لهذه الشروط التي تقلل من نصره، وتقلل من هيبته أمام الكنيسة بصفته المدافع القوي وحامي الدين والكنيسة وشعبه. لقد كانت المصلحة السياسية العامة تغلب هذا.

ونستطيع القول أن من الأسباب التي جعلت الملكين الكاثوليكيين يقبلون هذه المعاهدة ببنودها، ما يلي:

أولًا: وافق فرناندو وإيزابيلا على المعاهدة لتيقنهما من أن بنودها لن تنفذ ولن يعتد بها، وإنما هي حبر على ورق، فكيف تنفذ بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس؛ بمعنى أنه لا توجد قوة تهددهم وتعارضهم عندما لا تنفذ بنود المعاهدة. لقد اعتبرا أنه لا توجد معاهدة طالما لا توجد قوة تحميها وتصونها وتدافع عنها. ومن هنا يمكن تفسير المعاهدة على أنها استسلام، وهو منطق سياسي بحت، حيث قاعدة (أن السلام بدون قوة تحميه هو استسلام لا سلام).

ثانيًا: إن الرسائل المتبادلة بين وزيرى أبي عبد الله الصغير (المليح وابن قماشة) وسكرتير الملكيين توضح ما سبق؛ حيث طلب الأمان لهما ولضياعهما مقابل دخول الإسبان بجيوشهم غرناطة، وعدم تعرض الأهالي لهم، وهذا ما حدث بالفعل. ويؤكد هذا نصوص الرسائل التي تم العثور عليها، حيث تأكد الملكان

من عدم إخلاص هؤلاء واستسلامهم، فاستغلوا هذا وحافظوا على جيوشهم وأفرادها، وأحرجوا هؤلاء أمام شعبهم وأمام التاريخ.

***

⏮ تعلم وارتق: عندما يحكم الفساد وأهل الجهل

عندما يمسك بالقلم جاهل، وبالبندقية مجرم، وبالسلطة خائن، يتحول الوطن إلى غابة لا تصلح لحياة البشر»مصطفى السباعي»، المسؤولية حرية.. العبيد إذا وصلوا إلى السلطة حولوا كل شيء إلى عبودية واستعباد وعبيد.. رجل السلطة الحقيقي هو الرجل الحر والحر لا يستعبد.. الحر يحرر «أدونيس». كانوا هؤلاء أمس يحكمون وبيدهم السلطة، والحاضر اليوم نرى كثيرًا من أشباه هؤلاء، فدومًا عند الخطر هؤلاء يبيعون الوطن من أجل الحفاظ على ثرواتهم، ومن يدفع الثمن دومًا أبناء العامة، ولكن جزاء صمتهم يدفعون الثمن مرتين، مرة على يد هؤلاء الجهلة ومرة على يد المستعمر الجديد.

***

ثالثًا: نجد أن الملكين فرناندو وإيزابيلا قد وافقا على شروط هذه المعاهدة بناء على اتفاق مسبق وسري، بين وزيرى أبي عبد الله الصغير وبعلمه، لحفظ ماء وجه الملك أبي عبد الله الصغير أمام شعب غرناطة وأمام ضميره تجاه دينه، وأيضًا حفظًا لهيبته، وذلك على أساس أنه عند قبول شروط المعاهدة من قبل الملكين الإسبانيين، يخرج أبو عبد الله الصغير من مأزق كبير، وهو عدم التفسير بأنه باع وطنه وباع دينه ولم يدافع عنهم لآخر قطرة دم. ولعل هذا ما أوضحته الوثائق والمصادر بعد ذلك، حيث أوضحت موقفه المخزي وثقته فيمن حاربوا دينه وحاربوه على مدى عهود طويلة. ونرى أن وزيريه (أبا القاسم المليح، ويوسف بن قماشة) هما من أوقعاه في هذا؛ وذلك لحفاظهما على أنفسهما وضياعهما وأملاكهما، وخذلاه، وهذا ما توضحه الرسائل السرية بينهما وبين الإسبان. لقد أقنعاه بقبول المعاهدة.

وبقبول الإسبان لها، حافظوا على جيوشهم ودخلوا غرناطة بروح الانتصار في ظل انكسار أهل غرناطة وملوكهم وتحسرهم على موقفهم وسلبياتهم. وأيضًا رأى الملكان بنظرهما أن هذه الاتفاقية مؤقتة وغير مستديمة؛ فقبلاها.

❊ ❊ ❊

⏮ تعلم وارتق:

إن الفساد يطول عمره كلما انسحب الشرفاء من الميادين وآثروا السلامة وتخاذلوا فيفسحون المجال للصغار التافهين المنتفعين، الفساد يهبط من أعلى إلى أدنى، والإصلاح يصعد من أدنى إلى أعلى « محمد عبده».

❊ ❊ ❊

رابعًا: إن أبا عبد الله الصغير كقائد وملك كان على يقين من أن بنود الاتفاقية كانت حبرًا على ورق، وأن الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا لا يعتدان بهذه البنود؛ لأنهما متزعمان راية المسيحية وهما من يقومان على حراستها والعمل على انتشارها، فكيف يسمحان أن تقام شعائر دين الإسلام على أراضيهما وهي في ذلك الوقت المتزعمة للمسيحية، فكيف خُيل لأبي عبد الله أن هؤلاء سيحافظون على ما تم الاتفاق عليه، فإذا صدق هذا فنرى أنه ليس لديه رؤية وزعامة لتلك المملكة وملكه، فمن هنا يؤخذ عليه أنه لم يرفع راية البشرات، وعلى أحد جبال غرناطة نظر إليها وأجهش بالبكاء، فقالت له أمه: «أجل، فلتبك كالنساء ملكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال»، هذا وإن قاد الجهاد ضد الملكين الكاثوليكيين، ومات مدافعًا عن دينه ووطنه، ويرى بعض المؤرخين أن هذه الجملة لم تذكر ولم تورد في أي موضع، ويرى البعض الآخر أن أبا عبد الله كان مجبورا، حيث احتفظ بالمكان لأولاده وهددوه دومًا بقتلهم.

❊ ❊ ❊

⏮ تعلم وارتق: كيف يكون الرجال.

إن رجلا يتهرب من تحمل مسؤولية عمل، ويبحث دومًا عمن يغطيه ليس له من الرجولة أكثر من الاسم، جبان بل حقير، والأمة التي زعمائها من هذا الطراز لا تلبث أن تعاني أوخم النتائج، والمتاعب والآلام الحقيقية هي التربة التي تنبت فيها بذور الرجولة، وما تفتقت مواهب العظماء إلا وسط ركام المشقات والجهود «محمد الغزالي».

***

في البداية، غادر أبو عبد الله وأمه الحرة عائشة مدينة غرناطة، وسمي هذا المكان فيما بعد بزفرة المسلم الأخيرة (El Ultimo Suspiro del moro). استقر أبو عبد الله – الذي دعاه الإسبان بـ Boabdil والملك الصغير – El Rey Chico... استقر بقرية أندرش Andarax، وكان فرناندو قد أقطعها له، ولم يتهيأ له المقام بها سوى عام وبضع العام، ثم عبر البحر إلى المغرب، فقصد مليلة ثم فاس، حيث عاش إلى أن مات في سنة 940هـ/ 1534م، وقد تدهورت الأحوال بولده بعده، وصاروا في زمن المقري (ت 1041هـ/ 1632م)، أي بعد مائة عام ونحوها، يعيشون على أموال الصدقات.

***

⏮ عبرة من التاريخ وعظة:

هكذا كانت نهاية غرناطة ونهاية آخر ملوكها أبي عبد الله الصغير، فهكذا لحياة فلا تتكبر، فإن الملك اليوم بيدك وكرسي السلطة تملكه، ولكن غدًا من الممكن ألا تملك حتى رغيف عيشك، فعيش الحياة ببساطة، واتق الله واشكر نعمه، حتى يزيد، ولا تتفاخر ولا تتكبر بأشياء أنت لا تملكها ولا كانت لك الإرادة في اختيارها، فإن النجاة تكمن في تقوى الله.

***

⏮ أبطال تناسهم التاريخ ولم نسمع عنهم رغم أننا فقدنا مثلهم في حاضرنا، آخر أبطال الأندلس وغرناطة، أبو موسى الغساني، هل سمعت عنه في يوم؟

سيجيب عليك الشيخ علي الطنطاوي – رحمه الله – ، وذلك من خلال كتابه الرائع «قصص من التاريخ»، حيث يعرض الشيخ بأسلوب غاية في الروعة، قصة هذا البطل الذي تناساه التاريخ وتناسته الأجيال، ولم يذكر إلا مرور الكرام، رغم أنه بطل من طراز فريد، آخر أبطال فترة عصيبة، بطل رفض أن يموت جبانا وخاذلًا لعقيدته ولشرف أمته، بطل رفض أن يموت إلا مدافعًا عن آخر ما تبقى من شرف الأمة على أرض الأندلس، ومات وهو مدافع حامل سيفه من أجل دينه ووطنه، بطل نحتاج لأمثاله اليوم ليرد علينا كرامتنا المهدورة وحقوق الأمة الضائعة، فتعالوا نتعرف على هذا البطل من خلال عرض الشيخ علي الطنطاوي – رحمه الله – ، فلا يجوز لي أن أكتب بعد هذا الشيخ والمفكر، فتناولت العرض كما وصفه الشيخ، حيث يقول:

لقد جازت غرناطة أيامًا صعبة، ورأت مصائب ثقالًا متتابعات؛ ولكنها لم تجد مثل هذه الليلة التي قضتها مرعبة مذعورةً، تنظر حواليها فلا تبصر إلا مدنًا خضعت للعدو، فجاس خلالها، واستقر فيها، وقد كانت أرض العروبة، وكانت ديار الإسلام، وأمةً استذلت واستعبدت، وقد كانت أعز من النسور، وأمنع من العقبان؛ وبقيت هي وحدها تحمي الحمى وتدافع عن الأرض والعرض والدين، وتحمل وحدها أوزار الماضي وما كان فيه من تخاذل وأثرةٍ وانقسام؛ وتؤدي وحدها الدين، دين الجهاد، الذي كان في أعناق مدن الأندلس كلها والمسلمين أجمعين، فنامت عنها مدن الأندلس، وشغلتها خيالات الإمارة، وألقاب مملكة في غير موضعها.

وجعلت تنظر غرناطة إلى القصر البهي العظيم، وهو آخر هاتيك القصور، التي شغل رواؤها الأمراء، وأنستهم سكناها أخلاق صحرائهم الأولى، فكانت مقابر لأمجادهم طفقت تنظر إليه فلا ترى من بناة الحمراء إلا الرجل الضعيف،

المرأة الملتحية التي اسمها أبو عبد الله الصغير، وأمه الشريفة الأبية؛ الرجل الذي خلق في جسم امرأة: عائشة، فحولت وجهها عن القصر إلى جهة السور تسأل: هل عاد موسى؟

ولقد كان «موسى» أمل هذا الشعب، وإليه مفزعه، وعليه - بعد الله - اعتماده، بدا له في ساعة الخطر كما يبدو النجم الهادي للضال الآيس.

لقد طلع فجأة من الظلام؛ ظلام الدهماء، فإذا هو يلمع في لحظة واحدة التماع البدر المنير، وكذلك يقذف هذا الشعب العربي بالأبطال كلما حاقت الشدائد، وانهالت عليهم المصائب وإذا هو أمل أمة، وإذا هو ملء السمع والبصر، وملء السهل والجبل، وإذا هو بطل المعركة المكفهرة، دعا إلى القتال شعبًا كلَّ من القتال، فلباه على كلاله، هذا الشعب الذي علمه محمد كيف يلبي كلما دُعي إلى التضحية والجهاد، لباه وتشققت أسماله البالية عن أسود غاب، وسباع عرين. ووقف بهؤلاء الأسود في وجه السيل الإسباني الطامي، وما زال ثابتًا، ولكن أسوده قد سقطوا صرعى في ميادين الشرف.

خرج موسى منذ إحدى عشرة ساعةً يضرب الضربة الأخيرة ينال بها إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، ويرد العدو الذي أبقى عليه حلم المسلمين حتى قوي بضعفهم، واشتد بلينهم. وانتزع منهم الأرض قريةً قريةً، وبلدًا بلدًا، حتى أقبل يطردهم من آخر منزل لهم في الأندلس، من غرناطة.

وعلت غرناطة فترة الجزع، من خوفها على (موسى)؛ لقد جعلته قائدها، وسلمته الدفة، ليقود السفينة الهائمة على وجهها وسط الأعاصير والزوابع إلى الشاطئ الآمن، فإذا عجز موسى عن نجاتها، لم ينجها أحد من بعده، وقد كان موسى آخر خيط من خيوط الرجاء، وآخر شعاعة من هذه الشمس التي سطعت فملأت الأرض نورًا وهدًى، ثم أدركها المغيب، فإذا انقطع هذا الخيط عم ظلام اليأس وانتشر، وقد كان موسى آخر مقطع من هذا النشيد الذي ألف مطلعه

طارق، ثم توالى على نظمه (شعراء...) البطولة عبد الرحمن وعبد الرحمن وعبد الرحمن؛ الغافقي والداخل والناصر. فحمله الأبطال المساعير إلى القاصي والداني، وتجاوبت بأصدائه صهول فرنسا، وبطاح إيطاليا، ثم ضعف وتخافت، ولم يبق منه إلا هذا المقطع، فإذا انقضى جف النشيد على الشفاه، وانقطع ومات.

وقد كان موسى آخر سطرٍ في سفر الحق والبطولة والمجد؛ ذلك الذي كتبه العرب المسلمون في ثمانمائة سنة، فمحاه الإسبان في سنوات، ولم يبق إلا هذا السطر، فإذا طمس ذهب السفر وباد، وقد كان موسى آخر نفس من أنفاس الحياة في الأندلس المسلمة؛ فإذا وقف هذا النفس الواحد، وسكن هذا الذماء الباقي، صارت الأندلس المسلمة أثرًا بعد عين، وصارت ذكرى عزيزةً في نفس كل مسلم، وأمانةً في عنقه إلى يوم القيامة.

وانطلقت من أعالي الأسوار؛ أن «لقد عاد موسى». فتقاذفتها الألسن وتناقلتها الآذان، فطارت في أرجاء المدينة، وسارت في جوانبها مسير البرق، فبلغت الساحات والدروب، وولجت الدور والمنازل، وأوغلت خلال البيوت والسراديب؛ فلم تلبث أن نفضتها نفضًا فألقت بأهليها إلى الأزقة والشوارع، فإذا هي ممتلئة بالناس من كل جنس وسن ومنزلة. وإذا هي تزخر بهذا النهر الإنساني الذي يجري صوب الأسوار، صخابًا جياشًا مزبدًا، يتحدر ويسرع مجنونًا، كأنما تدفعه قوة خفية هائلة احتوتها هذه الكلمات السحرية (المكهربة) الثلاث: «لقد عاد موسى»!

لقد كان يومًا من الأيام الغر التي تضيء الطريق لمن يسلك فجاج التاريخ، وتجيء في الليالي كالعبقري في الناس، وتصنع العجائب لتكون معجزة في الزمان؛ ما شهدت مثله غرناطة، ولا أبصرت منه (إلا قليلًا) عين الوجود! يوم أضاع فيه الناس غريزة المحافظة على الذات، في غمار غريزة النوع، ونسوا نفوسهم ليذكروا الدين والوطن، وأنبتوا من الحاضر المقيت، ليعيشوا في الماضي الفخم، فماج في سوح غرناطة بحر من الأجسام البشرية حمل أصحابها أرواحهم على أكفهم،

وقدموا بين أيديهم دماءهم، التي غضب فيها ميراث ثمانية قرون كلها مجد وعز، ونفوسهم التي عصفت فيها ذكريات ألف معركة منصورةٍ؛ فمشت في الأعصاب النار، واستعد كتاب التاريخ ليكتبوا أعجب موقف للشعب إذا هب.

ووصل موسى، ذلك البطل البدري الذي أخطأ طريقه في الزمان، فلم يأت في سنوات الهجرة الأولى، بل جاء في الأواخر من القرن التاسع، ولم يطلع في الحجاز التي كانت تبتدئ تاريخها المجيد، بل في الأندلس التي كانت تختم تاريخها.

وكانت تعلوه كآبة، فأنصت الشعب واحترم كآبة هذا الرجل الذي لو سبق به الدهر لصنع يرموكًا أخرى أو قادسيةً ثانية، ولكن الله الذي فتح تاريخنا في الأندلس بموسى، قد ختمه الآن بموسى!

ونظر موسى حوله، فإذا حوله شيوخ قد أراق الكرم على شيباتهم بهاءه ونوره، وأطفال كالزهر فتحوا عيونهم على الدنيا فوجدوها غارقةً في بركة من الدم، ونسوة تفتحت الأكمام عن زهراتها، فرأت الطرقات من لم تكن الشمس تراهن صيانةً وتعففًا، قد برزن يسرن إلى المعركة ويزاحمن الرجال، ولم يكن يخشين على جمالهن، فقد غطت عاطفة الجهاد على عاطفة الجنس، فكان كل رجل أخًا فيه لكل امرأة؛ فأحنى رأسه، ورأى الناس في عيني البطل دمعة تترقرق، وفتح فمه فحبس الناس أنفاسهم.

فإذا هو يعلن النبأ المهول، نبأ تسليم أبي عبد الله الصغير مفاتيح غرناطة! نبأ بدأ صغيرًا كما تبدو المصائب، فلم يدر الناس لهول المفاجأة ما أثر هذا وما خطره، ولكن القرون الآتيات درت ما أثر هذا النبأ، ولم تفرغ إلى اليوم من وصف فواجعه وأهواله.

ونظر موسى فإذا الصرح الذي أنفق في إقامته الدهر الأطول، قد انهار في دقائق، وإذا هذه الديار التي سقيت بدم الجدود، وامتزجت برفاتهم، وقامت على أيديهم، يسلمها جبان مأفون للعدو المغير، وإذا السادة صاروا خولًا، والملوك

عبيدًا، وجعل يفكر في هذه الفئة التي حوله، في أكرم زهرات غرناطة وأزكاها، هل يجنبها الموت الحاصر ويردها إلى حيث وجدت الراحة والدعة، أم يخلصها من حياة كلها ذل وألم، ويسوقها إلى موت شريف؟

وإنه لفي تفكيره وإذا بأطفال غرناطة ينشدون ذلك النشيد الذي لا يعرف من نظمه لهم، فيصغي الناس ويستمع الفلك الدائر:

«لا تبك يا أماه، إنا ذاهبون إلى الجنة.

إن أرض غرناطة لن تضيق عن لحد طفل صغيرٍ مات في سبيل الله.

إن أزهار غرناطة لن تمنع عطرها قبرًا لم يمتع صاحبه بعطر الحياة.

إن ينابيع غرناطة لن تحرم ماءها ثرى لحدٍ، ما ارتوى صاحبه من مائها.

أنت يا أرض غرناطة أمُّنا الثانية فضُمينا إلى صدرك الدافئ الذي ضم آباءنا الشهداء.

لا تبك يا أماه بل اضحكي، واحفظي لعبنا، سيأتي إخوتنا فيلعبون بها.

فذكّريهم بأننا تركناها من أجل هذا الوطن، سنلتقي يا أماه! إنك لن تؤثري الحياة في ظلال الإسبان على الموت تحت الراية الحجازية. ولن تضيق عنا أرض غرناطة؛ ما ضاقت أرضنا بشهيد».

ولم يعد يطيق موسى أكثر من ذلك، فلكز فرسه، وانطلق إلى حيث لا يدري أحد، كما جاء من حيث لم يدر أحد.

وكذلك ذهب آخر أبطال الأندلس، لم يخلف له قبرًا في الأرض، ولا سيرةً واضحةً في التاريخ، بل مر على الدنيا كأنه حلم بهيج! رحمة الله على موسى بن أبي الغسان، وعلى أولئك الأبطال. (الشيخ علي الطنطاوي: قصص التاريخ، ط2، المكتب الإسلامي، 2008، ص128 132. ونقله موقع قصة الإسلام – وموقع الألوكة).

القوى الإسلامية وموقفها من نداءات الأندلس الأخيرة.

ساهمت أوضاع المسلمين في بقية العالم الإسلامي في زيادة تدهور وضعية مسلمي الأندلس.

موقف حكام المغرب: ففي المغرب - على سبيل المثال - كان الصراع على أشده بين بني وطاس والسعديين، كما أن إسبانيا كانت لها اتفاقية مع الوطاسيين سنة 945هـ/ 1538م. زد على ذلك تحكم الإسبان والبرتغال في السواحل المغربية؛ كل ذلك جعل من الصعب على المغاربة إنقاذ إخوانهم الأندلسيين. وحتى بعد تحقيق المغرب لوحدته الترابية، حالت ظروف مستجدة دون تقديم يد المساعدة لهم وأهمها السيطرة التركية على الجزائر.

موقف دولة المماليك: كان موقف المماليك سلبيا، وإن اعتبر البعض أن السبب في ذلك يعود إلى بعد الأندلس، بالإضافة إلى أن المماليك لم يكن لهم أسطول قوي يستطيع مواجهة البحرية القشتالية، فلم يكن للمماليك عناية بأمر السفن؛ لأنهم أصحاب خيل، وقوتهم برية وليست بحرية، كما أن المماليك كانوا قد رسموا سياستهم الخارجية على أساس الاتجاه نحو الشرق، لدفع خطر المغول، ثم للتصدي بعد ذلك لمشاريع الدولة العثمانية التي كانت تهدف لتقويض دولة المماليك. وهكذا فرغم وصول أصوات الإغاثة إليهم، إلا أنهم تشاغلوا عن نجدة إخوانهم في الأندلس.

***

كأنك ترى واقع الأمس حال اليوم.

ونلاحظ أن أوضاع الأندلس لم يكن لها أدنى تأثير على العلاقات الودية التي كانت تربط المماليك بإسبانيا. ففي 2 يناير 1477م طلب فرناندو من البابا أن يأذن له ببيع القمح للسلطان قايتباي في مصر، وضرب بذلك عصفورين بحجر واحد؛ فقد تمكن عن طريق ثمن هذا القمح من الاستمرار في حربه ضد مسلمي

الأندلس، كما اعتقد أنه بذلك يقوي مركز المماليك ضد الأتراك العثمانيين الذين كان ظهورهم خطرًا على دول أوروبا، دومًا يجيد عومنا استخدامنا ضد بعضنا البعض، يخلق بيننا الجدال حتى لا نجد سبل التقارب بيننا، ونوحد كلمتنا ونقف ضد أطماعه، كما توحدوا النصارى في الأندلس ونسوا خلافاتهم حتى استردوا الأندلس وحققوا هدفهم، إنما نحن دومًا يضيع الهدف في وسط الخلاف وأطماع الهوى والسادة.

***

وسط هذه الأوضاع راسل سلاطين المغرب السلطان قانصوة الغوري (1501 – 1516م) يلتمسون منه العون ضد الخطر الإسباني، وأن يقوم بطرد التجار الأوروبيين المقيمين في بلاده وغلق كنيسة القيامة في وجه حُجاجهم، لكن المحاولة باءت بالفشل، وسرعان ما علم فرناندو بهذه الأنباء وأرسل «ليدو مازكيردي إنجيرا» سفيرًا إلى الغوري، ونجح هذا السفير في تحسين العلاقات بين مصر المملوكية وإسبانيا.

لقد اتجه الأندلسيون شرقًا إلى دولة المماليك بمصر، والتي كانت على دراية بأوضاعهم. لم يحاول أهل الأندلس الحصول على دعم عسكري، بل كان همهم الوحيد هو توسط المماليك دبلوماسيا لدى الإسبان والتهديد بمعاملة المسيحيين في بيت المقدس – الخاضع لهم – بنفس المعاملة التي يعامل بها الإسبان المسلمين في الأندلس.

***

⏮ إضاءات تاريخية: تعلم من ذكاء عدوك في فن الدبلوماسية السياسية.

ونتيجة لزيادة الاتصالات بين الأندلسيين وقوى إسلامية، ولتفادي حدوث أي تعاون بين الجانبين، قامت إسبانيا من جهتها بإرسال مبعوثها الخاص «بدرو مارتر» للحيلولة دون إلحاق أي أذى بالمسيحيين، وقد حاول هذا المبعوث إضفاء

طابع الشرعية على الأعمال التي تقوم بها إسبانيا في حق الموريسكيين «مثلما تفعل إسرائيل الآن وتضفي شرعية على احتلال وضرب فلسطين بالطيارات»، بإعطاء مبررات واهية من قبيل أن للإسبان الحق في استعادة أرضهم التي كانت ذات يوم مسيحية بيد القوط، أو القول بأن الموريسكيين اختاروا التنصير بمحض إرادتهم. أين تسمع تلك العبارات الآن، تسمعها في الإعلام بأن لإسرائيل الحق في الأرض المقدسة، وأن الفلسطينيين باعوا الأرض، فأصبح الفلسطينيون الجناة والإسرائيليون حمامة السلام، فاستطاع بذلك إقناع المماليك بعدم جعل المسيحيين بالمشرق رهائن لمسلمي إسبانيا، بل تمكن من إقناع المماليك بإسقاط المغارم والفروض عليهم، بأسلوب الترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، كأنه حالنا الآن تستقبل إسرائيل في كل مكان وتفتح لها كافة المجالات والفلسطينيون قيد الحصار، التاريخ يعيد نفسه فهل من متعلم ومعتبر.

***

موقف الدولة العثمانية:

أين كان العثمانيون عندما سقطت دولة الإسلام في الأندلس؟! ولماذا لم ينتفضوا لحماية أعظم حضارة إسلامية قامت في أوروبا؟! هل خان العثمانيون إخوانهم الأندلسيين؟! أسئلة كثيرة تتبادر إلى الذهن عند الحديث عن سقوط الأندلس ودور الخلافة العثمانية تجاهها.

في هذا الجزء نضع أمامكم الحقائق التي أخفيت عن عمد لتظهر الدولة العثمانية كدولة خائنة باعت الأندلس وتركتها فريسة في يد النصارى الأندلس والدولة العثمانية، لكي تتضح لنا الأمور جيدًا لا بد لنا من أن نفهم طبيعة الدولتين وأحوالهما في تلك المرحلة، ففي الوقت الذي كانت دولة بني عثمان تشق طريقها لتعلن عن نفسها وترفع الراية بعدما كادت أن تسقط في أواخر الحكم العباسي مع بدايات القرن الخامس عشر الميلادي كانت دولة الأندلس في الغرب تسارع نحو

الانهيار، حيث الصراع على الحكم بين ملوك الطوائف وانتشار الفتن واستعانة بعض ملوك المسلمين بالنصارى ضد إخوانهم، وبدأت ممالك الإسلام تسقط واحدة تلو الأخرى، وبالتالي كان المشهد في العالم الإسلامي على هذا النحو: دولة فتية تبدأ مجدها وتحارب على عدة محاور لإثبات نفسها وتخوض معارك طاحنة ضد أوروبا في الغرب والدولة الصفوية الشيعية في الشرق، ودولة أخرى يأفل نجمها في الأندلس ويتصارع ملوكها وتنهار ممالكها في يد النصارى واحدة تلو الأخرى.

فالدولة العثمانية بذلت العديد من المحاولات لنجدة الأندلس، رغم أني أرى أن تلك المحاولات لمت تكن كافية، ولكن الوضع الدولي والظروف فرضة على الجميع، أن يعطي بقدر ما يستطيع، فما إن وصلت الاستغاثات للسلطان محمد الفاتح الذي كان منشغلا بفتح أعظم مدن أوروبا في ذلك الوقت (القسطنطينية) حتى هب الفاتح لنجدة الأندلسيين فهجم على إيطاليا وسيطر على مدينة لاترانتوا محاولا الوصول إلى الأندلس، ولكن وقفت أمامه عدة عقبات منعته من استكمال المسير.

بعد الفاتح تولى ابنه بايزيد الحكم وأثناء حكم بايزيد وقعت الكارثة بسقوط الأندلس وتسليم أبي عبد الله الأحمر مفاتيح غرناطة للنصارى سنة ١٤٩٢م، وقد توالت صرخات الأندلسيين واستغاثتاهم بالعثمانيين، وعلى الرغم من أن بايزيد الثاني كان مستهلكا في حروب طاحنة مع قوى مختلفة من الأوروبيين والصفويين الشيعة والمماليك إلا أنه لم يكن له أن يرد هذه الاستغاثات فأرسل أسطولا ضخمًا بقيادة «كمال رئيس» لضرب سواحل إسبانيا ومحاولة دخول الأندلس.

وقد حاول كمال رئيس الوصول إلى غرناطة إلا أن الموانع الأوروبية والخيانات التي حدثت من بعض القوى الإسلامية ورفض المماليك والأسرة الحفصية في تونس تقديم يد العون له، كل ذلك وقف عائقا أمام وصول الأسطول العثماني إلى الأندلس وإنقاذها قبل فوات الأوان.

لم تتوقف محاولات العثمانيين لإنقاذ الأندلسيين بل استمرت حتى بعد سقوط

الأندلس، فقد سعى العثمانيون إلى إنقاذ إخوانهم المورسيكيين في الأندلس، فبعد أن تولى سليم الأول الحكم أرسل إلى قائد الأسطول الإسلامي عروج وكلفه بمهمة عرفت في التاريخ بالمهمة المستحيلة وكانت تقوم على مهاجمة سواحل إسبانيا والسيطرة عليها وإنقاذ مسلمي الأندلس من محاكم التفتيش والعودة بهم إلى الجزائر، وقد استطاع عروج تنفيذ الخطة بنجاح وإنقاذ عشرات الآلاف من المورسيكيين.

عقد الموريسكيون آمالهم على العثمانيين، خاصة بعد النجاح الذي حققوه في شمال أفريقيا وانتصاراتهم على الإسبان بقيادة خير الدين الذي لقي استحسانا كبيرًا من لدن مسلمي الأندلس. وهكا فمما جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني في سنة 948هـ/ 1514م: «وقد كان يجوز لنا الوزير المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين، سيف الله على الكافرين علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمع أهل الإسلام على طاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضمائر، وانتظم الشرع والأمان في البادي والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان».

استمرت آمال الأندلسيين متعلقة بالسلطنة العثمانية، فتواصلت المراسلات بين الطرفين، ومن الجانب الأندلسي أكثر، وتضمنت هذه الرسائل قصائد تصف أوضاعهم المزرية والاضطهاد الذي لاقوه من قبل الإسبان. من جهتها قدمت الحكومة العثمانية بعض المساعدات للأندلس. ومن خلال دراسات بعض الأجانب، وصل إلى غشت في عام 977هـ/ 1569م، 4000 رجل تركي وبربري من بين 25000 مقاتل ضمن مساعدة أخرى وصلت في يونيو تم ضبطها وكشفها في الوقت المناسب.

ورغم ذلك ظلت هذه المساعدات غير كافية؛ ويرجع هذا إلى كون العثمانيين كانوا منشغلين بفتح قبرص، ثم بالمناوشات الواقعة بينهم وبين روسيا المجاورة.

وقد زاد الطين بلة هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانتو أمام البحرية الإسبانية في عام 987هـ/ 1597م، مما جعل الدولة العثمانية تدخل في هدنة غير معلنة مع فيليب الثاني، وبالتالي تتخلى عن الجهة الغربية للبحر المتوسط، فتبخر حلم الأندلسيين.

وعندما تولى سليمان العاشر، أعظم سلاطين الدولة العثمانية، الحكم انتفض هو أيضًا لمحاولة إنقاذ المورسيكيين فجهز جيشا قوامه مائتا ألف، وحاول الوصول إلى الأندلس عن طريق فيينا، ولكنه لم يكمل المسير؛ بسبب مهاجمة الصفويين الشيعة لعاصمة الخلافة العثمانية.

كما أرسل سليمان ثمانين سفينة وثمانية آلاف مقاتل من الإنكشارية إلى قائد أسطوله «خير الدين بربروسا»، وأمره بمهاجمة الأندلس وإنقاذ المسلمين هناك، وقد فتحت الدولة العثمانية أبوابها أمام الأندلسيين الفارين من بلادهم، فاستقبل العثمانيون قرابة نصف مليون أندلسي من المسلمين وغيرهم.

***

⏮ فلنتعلم ولْنَعِ: لماذا الأمر لم يكن بالسهولة التي نتخيلها؟

الحقيقة أن الأمر لم يكن بهذه السهولة التي يتخيلها البعض، فالأمر كان شديد التعقيد، وقد تعددت العوامل التي منعت العثمانيين من إنقاذ الأندلس، ومن أهم هذه العوامل الطبيعة الجغرافية، حيث المسافة كبيرة جدا بين غرناطة والقسطنطينية، وهذا جعل وصول الجيش العثماني إلى الأندلس وعبوره كافة هذه الحواجز أمرا يشبه المستحيل، إضافة إلى التحالف الصليبي الأوروبي ضد العثمانيين وإغلاق الإسبان لمضيق جبل طارق. العوامل العسكرية والسياسية، اختلاف قوى الشرق وعدم اتحادهم مع بعضهم البعض، بل كان العداء والصراعات مستمرة بين قوى الشرق كوضعنا الحالي، في حين كانت أوروبا في عصر القوميات وتتحالف مع بعضها البعض، من أجل اتساع مساحتها ونفوذها في الشرق وبتدعيم من البابا،

وأيضًا وجود الخطر الصفوي في الشرق، الذي بدأ ينشر المذهب الشيعي، ويكون الخنجر في ظهر الدولة العثمانية في الشرق؛ مما جعل العثمانيين مجبورين على الحذر والاحتياط والحرب في كافة الجهات، كل هذه الظروف أدت إلى أن الدعم العثماني لم يكن بالشكل والنتيجة التي نرضاها، الوضع هذا يشبه الحال الآن والصراع بين المسلمين والغرب وبين بعضهم البعض، فنتساءل الآن كما ستتساءل الأجيال القادمة: لماذا العرب وتركيا والمسلمون لما يحرروا الأقصى؟ هذا السؤال إجابته هو إجابة السؤال السابق عن العثمانيين والأندلس، فكلنا نعرف الإجابة المتمثلة في قوة الغرب السياسية والاقتصادية، وأيضا تكتل الغرب ضد الشرق بل وتعاونه على نهب الشرق، في حين ضعف الحكم والحكام في الشرق، وعدم وجود وحدة وترابط بينهم، بل هناك صراعات وخلافات دائمة بينهم تُنسيهم حتى قضية الأقصى وهموم شعوبهم، وأيضًا تحالف الغرب وبنى صهيون وتكتُّلهم ضد أي قوة إسلامية تريد النهوض أو الوقوف أمامه أو الحديث عن قضايا المسلمين، فيدبر المكائد لها حتى لا ترتقي وتصبح قوة، فنرى تحالف ومكائد الغرب ضد ماليزيا وتركيا وإندونسيا وأي قوة إسلامية تريد النهوض والخروج عن سياسته، كذلك كان الوضع في زمن الدولة العثمانية شبيه بالوضع الحالي، والظروف الدولية والمكائد قريبة إلى من الوضع الحالي، فالعيب في أمة لا تقدر أن تتحد حتى من أجل مشاكلها.

***

موقف الجزائر: كانت تخوفات إسبانيا في محلها، فالجزائر كانت قد قررت مساعدة المسلمين على المستويين الشعبي والرسمي. فعلى المستوى الشعبي نجد أن السكان – وبدافع الحماس الديني – هبوا لنجدة إخوانهم بما يملكون من الوسائل، وقد حمسهم خاصة المهاجرون الأندلسيون. أما على المستوى الرسمي فقد طبق بايات الجزائر الأوامر التي تلقوها من استانبول.

ومن خلال ما سبق يمكننا تسجيل الملاحظات التالية:

- أن الأحداث الدولية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي كانت تخضع لتأثير قوتين كبيرتين متصارعتين هما: الدولة العثمانية، والدولة الإسبانية.

- أن حالة الضعف والتفكك التي شهدها المغرب الإسلامي جعلته عرضة للأطماع الاستعمارية الأوروبية، وخاصة إسبانيا بدافع الحقد المسيحي، وتحقيق مشروع استعماري ضخم يهدف إلى ابتلاع المنطقة بكاملها.

- أن ظهور الإخوة بربروسا، وتأسيس ولاية الجزائر، قد جعل منها قلعة أمامية إسلامية حصينة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وطرفًا فاعلًا في العلاقات الدولية آنذاك، هذه المكانة كان لها تأثيرات؛ منها الحملة الدولية عليها بزعامة إسبانيا في عام 948هـ/ 1541م.

خلاصة الفصل الثاني ونتائج أهم أحداثه:

وفي نهاية هذا الفصل، يمكن الخروج بعدة نتائج. لقد واجهت غرناطة العديد من المشكلات التي عجلت في سقوطها. كانت الأسباب الاقتصادية أهم تلك المشكلات التي أدت لانهيار أركان آخر معاقل المسلمين في الأندلس، ومنها مشكلة التصدير؛ حيث وجود غرناطة على الحدود مع العدو المسيحي؛ مما أدى لتحكمه في عبور التجارة والتجار الغرناطيين من أراضيهم، حتى إنهم حاولوا التغلب على ذلك بحمل هدايا من الإبل والنعام للملوك المسيحيين. أما التنافس بين ملوك غرناطة على النساء، فكان من تلك الأسباب، حتى وقعت الحرب بين الملك أبي الحسن وابن أخيه أبي عبد الله الصغير، وهو ما استفاد منه فيرناندو. كما أنهكت غرناطة من الصراعات الداخلية والفقر وزيادة السكان؛ بسبب لجوء المسلمين إليها، حتى استسلمت في 28 نوفمبر 1491م. ومن تلك الأسباب ضعف دولة بني مرين، حليف غرناطة في المغرب، ثم وجود حليف ضعيف آخر وهم بنو وطاس الذين لم يكونوا بالقوة التي تمكنهم من مد يد العون لغرناطة، وكذلك تخاذل المماليك والعثمانيين والعالم تجاه غرناطة وأهلها.

أما الأسباب التي أدت إلى سقوط الأندلس فكانت تتمثل في تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين؛ حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس، إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عما تبقى للإسلام في الأندلس. ومن ذلك سعي ممالك إسبانيا نحو الاتحاد، وهو ما توج بالزواج السياسي بين فريناند الذي أصبح ملكًا لأراجوان، وإيزابيلا التي تبوأت عرش قشتالة. وهناك الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد، بالإضافة إلى الاختلاف والتفرق بين

المسلمين، وموالاة النصارى والثقة والتحالف معهم، والتخاذل عن نصرة من يحتاج إلى النصرة من ممالك الإسلام، وغدر النصارى ونقضهم للعهود، وإلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف، وعدم سماح ملوك الطوائف لنصح العلماء بالدفاع عن الإسلام والاتحاد في وجه الممالك المسيحية القائمة، والرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم، وسوء سياسة الولاء وإرهاق الأمة بالجبايات؛ مما أدى إلى الثورات الداخلية في الأندلس. وبهذه الأسباب انتهى حكم المسلمين في الأندلس.

المصادر والمراجع:

المصادر العربية:

1 – ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ط2، دار الثقافة بيروت 1980، ج2. ص279، 280، 234، 245

2 – ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تقديم وتحقيق: محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، ج1، القاهرة 1973م.

3 – «**كناسة الدكان بعد انتقال السكان**» **(ألفه بسلا)**، تحقيق: محمد شبانه، مراجعة: حسن محمود، دار الكاتب العربي، ط1966.

4 – أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تعليق وتصحيح: ليفي بروفنسال، ط2، دار الجبل، بيروت 1988.

5 – المقري: **أزهار الرياض في أخبار عياض**، ضبط وتحقيق وتعليق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ عبد الباري، ج3، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1940، ص 207.

6 – ابن خلدون: **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضعه: خليل شحاتة، مراجعة: سهيل زكار، ج4، دار الفكر للنشر، لبنان2000، ص169.

- المراجع العربية:

1 – الشيخ علي الطنطاوي: **قصص التاريخ**، ط2، المكتب الإسلامي، 2008، ص128 132.

2 – أحمد الطوخي: **المماليك والأندلس**، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1996، ص 34 35 33.

3 – حسن مراد: **تاريخ العرب في الأندلس**، دار الفرجاني، القاهرة 1984.

4 – عبادة كحيلة: **القطوف الدواني في التاريخ الإسباني**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2011.

5 – عبد الجليل التميمي: **الدولة العثمانية وقضية الموريسكين الأندلسين**، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكين زغوان، تونس 1989م.

6 – عبد العزيز سالم: **علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها**، م.ع. 5.د.م. منشورات زغوان 1993، ج2، ص114.

7 – عبد القادر الميلق: **تأثير ثورات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية**، رسالة ماجستير، جامعة غرداية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر 2013، ص28.

8 – محمد رزوق: **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 17**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991.

9 – محمد عبد الله عنان: **أندلسيات، سلسلة «كتاب العربي»**، الكويت، رقم20، يوليو 1988.

10 – ـــــــــ : **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**، ج4، مكتبة الخانجي، القاهرة 1997م.

11 – محمد عبد الله جمال الدين: **المسلمون المنصرون**، دار الصحوة، القاهرة 1991.

- المراجع المترجمة إلى العربية:

1 – خوليو كاروباروخا: **مسلم مملكة غرناطة بعد عام 1492**، ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة2003.

2 – دومنيغيث أورتيث – برنارد فينسينت: **تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية**، ترجمة: عبدالعال صالح، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2007.

3 – دون باسكوال بورونات إى براتشينا: **الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم**، ترجمة: كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة، ج1، المغرب 2012.

4 – مارمول كارباخال: **وقائع ثورة الموريسكيين**، ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ج1، القاهرة2012.

5 – ماريا دل كارمن: كيف **كانت حقيقة سقوط غرناطة فصول من تاريخ الأندلس**، ترجمة: عبد الفتاح عوض، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2009.

6 – واشنطن إيرفنغ: **سقوط غرناطة**، ترجمة: هلاني يحيى نصري، ط1، مؤسسة الانتشار العربي – لندن 2000م.

- المراجع الأجنبية:

1. Rieto y vives: **De como debionacer el Reino De Granada**، Madriad 1987، p - 14.

2. Scott: the Moorish empirein Europe.v. ll ، 433 - 434.

3. F. Braudel، **La Mediterranee et le monde mediterraneen a l،époque de philippe** ll: ، 4Ed Armand. Colin paris 1979، T. ll،p 394 395.

بحوث ومقالات:

1 – أحمد توفيق المدني: **انهيار بلاد الأندلس وموقف دول الإسلام وإسطنبول من ذلك**، مجلة الأصالة، الجزائر 1975، عدد 27، ص179183.

2 – أمحمد بن عبود: **ابن الخطيب مؤرخًا للأندلس في عهد الطوائف**، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

3 – حسن الوراكلي: **لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيبليوجرافيا)**، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

4 – خوسيه غوميث سولينيو: **وثيقة إنجليزية تكشف كيفية سقوط غرناطة**، المؤتمر الثامن عشر للغة والأدب والمجتمع الإسباني، مالقة 2006، تم نشرها في: جريدة الشرق الأوسط العربية الدولية، الأحد 13 شوال 1426هـ 5 نوفمبر 2006، العدد 10204.

5 – عبد الهادي التازي: **ابن الخطيب سفيرًا ولاجئًا سياسيًا**، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

6 – فريد أمعضشو – **المغرب: ابن الخطيب الأندلسي وإحاطته**، العدد 70، عود الند مجلة ثقافية فصلية، الناشر: د. عدلي الهواري.

7 – محمد الكتاني: **ابن الخطيب والمذاهب الفكرية في عصره**، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

8 – محمد المنوني: **محاولة لقراءة جديدة في التراث التاريخي لابن الخطيب**، مجلة كلية الآداب بنطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

المواقع الإلكترونية:

- قصة الإسلام.
- الألوكة.
- الإسلام سؤال وجواب.
- صحيح البخاري.
- موسوعة الألباني.
- قبائل عربية.

الفصل الثالث

أحوال المسلمين في الأندلس بعد السقوط الأخير ما بين التنصير ومحاكم التفتيش والثورة الكبري

تمهيد:

انتهت حروب الاسترداد، وصارت الآن إسبانيا كلها تحت حكم الممالك النصرانية، وأصبح بإمكان الباباوات الذين دعوا إلى الحرب الصليبية أن يدعوا النصارى أيضا من موقعهم في الكنيسة إلى طرد المسلمين خارج إسبانيا.

لكن ذلك لم يكن، لكونه مغامرة غير محسوبة العواقب. في الواقع، كان وجود المسلمين ضرورة للاقتصاد المحلي للممالك النصرانية، ناهيك عن أن النصارى الذين كانوا يعيشون خارج هذه الممالك، في الإمبراطورية العثمانية تحديدا، كانوا عرضة لخطر المعاملة بالمثل.

ومن هنا سنتناول في هذا لفصل، أوضاع المسلمين بعد استرداد إسبانيا من طرف النصارى، وظروف معيشة المسلمين فيها، ومحاولات المتتالية لتنصيرهم من قبل الحكام والبابوات النصارى، وكذلك عرض موجز عن محاكم التفتيش. بعض الأرقام تقدر أن السكان المسلمين في إسبانيا كان عددهم 5 ملايين ونصف، ومع نهاية القرن الـ 15، أصبح عددهم لا يتجاوز 600 ألف، جلهم كانوا في غرناطة، وذلك من إجمالي سكان إسبانيا البالغ عددهم آنذاك قرابة 8 ملايين نسمة.

الحرف والمهن التي كان يمتهنها مسلمو إسبانيا كانت متواضعة، لكون الأرستقراطيون منهم، والقادة العسكريون وعلماء الدين والأطباء ورجال العلم الذين جذبتهم الأندلس سابقا، غادروها إلى قلب العالم الإسلامي، بحثا عن

وظائف جديدة.

هكذا، كانت معظم مكونات الجماعات المسلمة التي بقيت تشكل القاعدة البروليتارية للأندلس. اشتغل أغلبهم كحرفيين وفلاحين وبستانيين وعمال بناء، فيما كانت النساء منهم يعملن كخادمات وقابلات ومرضعات وجليسات لأطفال النصارى، بالرغم من المنع الرسمي لهذا التقارب.

المجتمع النصراني، وفق كتاب المؤرخ الإنجليزي ماثيو كار «الدين والدم.. إبادة شعب الأندلس، كان يحتقر العمل اليدوي. لهذا، كانت المكانة الاجتماعية والاقتصادية للمسلمين تولد نحوهم الازدراء، قبل الكراهية.

والحق أن شهرة المسلمين بالاعتدال والتدبير والكد، جعلتهم جذابين لأرباب العمل وملاك الأراضي النصارى هذه المزايا تطالعنا في أمثال من قبيل Quien tiene moro tiene oro؛ أي أن من يمتلك أندلسيا يمتلك ذهبا.

كان لسقوط غرناطة صدى كبير سواء في العالم المسيحي أو في العالم الإسلامي، وكان صدى مماثلًا للصدى الذي أحدثه فتح المسلمين للقسطنطينية قبلها بأربعين عامًا. كما كان لسقوط غرناطة أثر كبير على المدجنين والمسلمين الذين أصبحوا «موريسكيين».

***

⏮ إضاءات تاريخية: مفاهيم تاريخية ما بين التقارب والاختلاف.

هنا تداخل تاريخي بين تعريف المدجنين المسلمين والموريسكيين، وذلك لتقاربهم في الفترة التاريخية ومرورهم بنفس الأحداث مع اختلاف وضعهم، فمن هنا وجب علينا تعريف وتوضيح كل مصطلح حتى يستطيع القارئ التمييز بينهم.

المدجنون: هم المسلمون الذين عاشوا في حماية الممالك المسيحية في إسبانيا، بعد أن اشتدت حركة الاسترداد في شبه الجزيرة الأيبيرية، منذ سقوط طليطلة عام 478هـ / 1085م وحتى سقوط غرناطة سنة 897هـ/ 1492م. هم أبناء الأندلسيين أو

المسلمين ممن كانوا يعيشون تحت الحكم المسيحي في شبة جزيرة أيبيريا.

الموريسكيون: يشيع استعمال مصطلح «الموريسكي» بين المؤرخين المعاصرين، وحسب تعريف ليفي بروفينسال: «اسم يطلق في إسبانيا على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا على غرناطة يوم 2 يناير 1492 بعد زوال حكم آخر أمراء بني نصر. وهذا التعريف على أهميته يقتصر على جانب واحد فقط من معنى المصطلح، لذا؛ قد يكون من المفيد التوقف عند ما يورده معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية، والذي نجد فيه أن لفظة الموريسكي: تطلق على»الموروس الذين بقوا وتعمدوا بعد سقوط غرناطة». ويذكر هذا التعريف ميزة الموريسكيين الأساسية، وهي أنهم تعمدوا بوصفهم مسيحيين.

***

أحوال المسلمين بعد سقوط غرناطة ما بين التنصير القسري والثورات:

بعد سقوط غرناطة عام 1492م وتسليمها وفقًا لمعاهدة التسليم التي عقدت بين المسلمين، نهج الملوك الكاثوليك سياسة معتدلة نسبيا في السنوات الأولى بعد الانتهاء من حروب الاسترداد، معتمدين على دعم (جيرونيموس الأب) و(هيرناندو دي تالافيرا) رئيس أساقفة غرناطة ما بين سنة 1492و 1508م، وهو قسيس الاعتراف للملكة إيزابيلا الأولى، الذي كان هدفه عدم إرغام المسلمين الباقين في الأندلس على تغيير دينهم عن طريق الإكراه أو استخدام القوة، بل من خلال النشاط التبشيرى والإقناع غير العنيف.

ونتيجة لذلك؛ شجع رجال الدين التابعون له على تعلم اللغة العربية، كما سعى خليفتاه المطرانين دي أبالوس (1528 – 1542م) وغيريرو (1546 – 1576م) إلى بناء شخصية رجال دين محليين في غرناطة.

اتخذت السلطات الإسبانية الكاثوليكية النيات الحسنة تجاه المسلمين بناء على طلب من رئيس أساقفة طليطلة، الكاردينال «فرانسيسكو خيمينيز دي

ثيسنيروس». ولكن بداية من سنة 1498م شرع في اتخاذ تدابير صارمة لتحويل المسلمين المتبقين في البلاد والموسومين بـ «المدجنين» إلى المسيحية. لقد استقر (ثيسنيروس) سنة 1499م في «غرناطة» بهدف القيام بالتنصير وبذل جهدًا لترسيخ العادات والتقاليد المسيحية، فألقى القبض على «محمد الزغري» الواعظ المسلم الأكثر تأثيرًا في المدينة، وأمر بوضعه في السلاسل وتجويعه حتى يدخل المسيحية. وقد تتابعت حوادث أخرى من النوع نفسه، من ذلك أنه أجبر (محمد الزغري) على إضرام النار الجنائزية في بعض المصاحف وكتبًا عربية أخرى وجدت في غرناطة، فاعتبرت هذه التصرفات المشينة، من لدن المسلمين، إخلالًا بالعقود المبرمة بينهم وبين المسيحيين، ما دفعهم للتمرد في سنة 1499م.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: شخصيات ساهمت في عداء وتعذيب المسلمين.

القس فرانثيسكو خيمينيث دي ثيسنيروس كبير مفتشي محاكم التفتيش (لمحاكمة لليهود والمسلمين والزنادقة) وأمين سر الملكة إيزابيلا، ورجل دولة وعلى يديه أحرقت الكثير من أجساد المسلمين وهجروا من وطنهم، دخل على الجزائر من وهران في نية نشر المسيحية وعرض حرب، وتوفي في روا، برغش في 8 نوفمبر 1517، ومن أهم القرارات التي اتخذها ضد المسلمين: إقامة فرع لمحاكم التفتيش في غرناطة وإغلاق المساجد، والشروع في التنصير الجماعي للمسلمين؛ حرق عددا هائلا من الكتب العربية والإسلامية، يتعرض للحرق في غرناطة بأمر ملكي؛ وحظر العادات والملابس الإسلامية؛ وكان من أشد الناس عداء للإسلام والمسلمين، ونال المسلمون في عهده كل أصناف العذاب، هكذا هو الغرب ورجال دينه، فالغرب ورجال محاكم التفتيش هم من وضعوا الأسس الحقيقية للإرهاب ودهس حقوق الإنسان.

❊ ❊ ❊

انطلقت شرارة التمرد من منطقة «البيازين» التي كان يقطنها موريسكيو (غرناطة)، وبذلك التصرف انتهت فترة التسامح السياسي والديني القصيرة. ومن الجدير بالذكر أن السلطان المملوكي «قنصوة الغوري» كان قد شارك في جزء من المفاوضات التي تمت بين (المسيحيين) و(الموريسكيين) وهدد بالانتقام من المسيحيين الذين يعيشون في مملكته إذا واصل الملوك الكاثوليك نهج سياستهم مع المسلمين في إسبانيا. وأمام هذا الوضع أضحى المسلمون أمام اختيارين، ارتكز الأول منهما على المقاومة، والثاني على رفع نداء استغاثة للحصول على مساعدة من الخارج، إلا أن مسألة الحرب الدائمة بين الملوك الإسبان والأتراك شكلت دافعًا لعدم احترام المسلمين في الأندلس، كما أنها تسببت في التباطؤ أحيانا في حماية المجموعة المسلمة.

غادر جزء من المدجنين البلاد، وخضع الباقون للحكم المسيحي شريطة وقف انعقاد «محاكم التفتيش» ضدهم في غرناطة لمدة 40 سنة، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ حيث ظهرت في غرناطة في 20 يونيو1501م نشرة ملكية تضمنت بالإضافة إلى إجبار المسلمين على تغيير دينهم حظر سفر الموريسكيين المقيمين في قشتالة إلى مملكة غرناطة، وطبقت أوامر تغيير الديانة قسريا على كل مناطق قشتالة، وذلك في 11 فبراير 1502م، وتلاها في فبراير من العام نفسه فرض حظر وحصار على القشتاليين المسلمين بهدف إجبارهم على ترك قشتالة، الأمر الذي شكل نسفًا لفرضية إمكانية وجود منفى اختياري إلى مناطق إسبانية أخرى.

وبعد تعميد المدجنين سنة 1502م حدث تغيير في الاصطلاح للدلالة على مسلمي إسبانيا. ولهذا السبب انتشر مصطلح الموريسكيين للإشارة إلى مجموعة سكانية غيرت دينها، أي المدجنين، أو بمعنى آخر، أولئك الذين كانوا في المناطق القشتالية المسترجعة أو سكان «مملكة غرناطة»، وذلك بعد قمع انتفاضة (البيازين) مباشرة، كما أنه بعد عشر سنوات من الاستيلاء على غرناطة أصبحت «قشتالة» مسيحية بصفة كلية، إلا أن مملكة بلنسية كانت في ذلك الوقت ما تزال تحتضن

كثيرًا من السكان المسلمين الذين يتمتعون بحماية قانونية. أما (مدجنو غرناطة) فكانوا على النقيض من ذلك.

دخلت الاتفاقية التي تم الاستيلاء بموجبها على «بلنسية» سنة 1248م بالكاد حيز التنفيذ، ولم يتم التأكيد على مقتضياتها إلا بعد أداء الملك (شارل الخامس) اليمين، وذلك عند اعتلائه العرش سنة 1518م. ومن المعروف أن المساجد في منطقة بلنسية كانت موجودة في كل مكان حتى سنة 1507م.

***

⏮ إضاءات تاريخية: كأنك ترى حال المسلمين الأمس في حاضرهم اليوم.

وكان يسمع صوت المؤذنين في العديد من الأماكن، ومع ذلك أضحى من الصعب على مدجني (بلنسية) و(أراغون) بعد سنة 1500م الوقوف والصمود في وجه دعوات التنصير وضغط الكنيسة الكاثوليكية من جهة، ومحاكم التفتيش من جهة أخرى. ومن المهم هنا ذكر أن حقوق المسلمين كانت جزءًا من الحقوق الدستورية التقليدية المسيحية آنذاك، حيث كان سكان (أراغون) مستعدين للدفاع عنها بأي ثمن، إلا أن النية المبيتة لبعض نبلاء (أراغون) المسيحيين كانت تهدف إلى سلب عقارات العمال والصناع المسلمين، كأني أرى حال فلسطين في ظل الاحتلال الصهيوني الغاصب للأرض، كأني أرى أرض القدس وهو أسير، كأني أرى اليمن وهي تتحول من جنة خضراء إلى دمار وخراب في كل مكان، كأني أرى أرض العراق والمد الشيعي فيها، كأني أرى أرض الغرب وهو يزرع الإرهاب في كل بقاع أوطان الأمة ويلصقه بالإسلام، كأن أرى حروب الأمس وحقدها على الدين الإسلامي وأهله في نفس حقد الغرب اليوم علي الإسلام وأمته ونهب ثروات وخيرات أوطان المسلمين، كأني أرى مذابح ميانمار والأغوز في الصين ومنعهم من شعائرهم وأذانهم ومحاربتهم في دينهم، كأنهم مسلمو غرناطة وبلنسية أراغون، وكأن التاريخ يعيد نفسه، ويظل الحقد والمهانة مكتوبا على هذه الأمة في

كل زمان ما دامت لا تأخذ الإسلام منهج ووحدة الأمة قضية.

❊ ❊ ❊

اتسمت سياسة الملكين الكاثوليكيين بالليونة في السنوات الأولى لسقوط غرناطة؛ فكان من نتائجها أن رغب الناس في عدم الهجرة، فاستمروا في ممارسة أعمالهم وحرفهم، ووضع عنهم (فرناندو) المغارم حيلة منه وكيدًا، ليغريهم بذلك ويثبطهم عن الجواز، فوقع الطمع لكثير من الناس، فاشترى كثير من المقيمين الرباع العظيمة، ممن أراد الذهاب للعدوة بأرخص الأثمان.

على أن هذه العهود والمواثيق لم تكن لتقف أمام تحقيق فرناندو وإيزابيلا لوحدة إسبانيا القومية، خاصة مع عرف عن هذا الملك من نقض للعهود والالتزامات، فبدأ في تغيير سياسته تجاه هؤلاء بإصدار مجموعة من المراسيم تحد من حرياتهم وتفرض عليهم التزامات جديدة. وهكذا «استطال عليهم النصارى، وفرضت عليهم الفروضات، وثقلت عليهم المغارم».

ولقد كانت أولى النتائج هجرة عدد كبير من مسلمي غرناطة إلى بلاد المغرب، مما أسهم في تقوية النظام الحضري في المجتمع المغربي، وكان في إعادة تأسيس مدينة تطوان التي كان المسيحيون قد دمروها قبل مائة عام شاهدًا على دور الأندلسيين المهاجرين.

شكل الواقع الاجتماعي الذي عاشه الموريسكيون عاملًا حاسمًا في عمليات الهجرة خارج إسبانيا، فلا المعاهدات ولا الاتفاقيات ولا الوعود المعقودة بين مسلمي الأندلسيين والإسبان بعد سقوط غرناطة استطاعت أن تحفظ لهم حريتهم الدينية وتقاليدهم الإسلامية، ولا أن يأمنوا على أرواحهم وأموالهم. كانت أوضاع المسلمين قبل سقوط آخر معقل إسلامي بالأندلس خاصة في الممالك الإسبانية أحسن من الوضعية التي أصبحوا عليها بعد أفول نجم غرناطة، حيث كانت سيادة المساجد والتقاليد الإسلامية واللغة، لكن سرعان ما بدأت

تتدخل الكنيسة في شؤونهم منذ عهد ألفونسو المحارب، فأصدرت قوانين ترفض الزواج بين المسلمين والمسيحيين.

ولقد استفحلت الأوضاع بعد استسلام أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر. ففي سنة 914هـ/ 1508م صدر أمر ملكي يمنع جميع الأندلسيين من أصل عربي، ودون استثناء، من لباسهم التقليدي ومأكولاتهم، وترتيب أثاث منزلهم على طريقة آبائهم.

***

⏮ إضاءات تاريخية: معاناة المسلمين بعد السقوط في كتابات مؤرخي الغرب كأنه حاضر الآن.

وقد أورد المؤرخ الفرنسي لوي كارديك عدة أمثلة تدل على محاولة الإسبان استئصال جذور ما بقي من الحضارة الإسلامية بالجزيرة الأيبيرية وملاحقة بقايا المسلمين هناك. فقد اتهم مثلاً جوان دوفلوراس Jean de Flores بطليطلة باتباعه للدين الإسلامي بسبب الإيمان الذي أظهره وعاداته، حيث كان لا يجلس على كرسي ولا يتناول طعامه على مائدة، وهو بهذا يحافظ على تقاليد محمد، ثم صدر حكم في حق المرأة أنادولينان Andelinan حرمها من حقوقها المدنية؛ لأنها لا تستطيع أن تحمل الذهب ولا الجوهر ولا الحجارة الثمينة ولا الحرير ولا الشملة ولا القماش الرقيق أو أي شيء آخر، هكذا كانت القوانين وأوامر المملكة وتعليمات دواوين التفتيش التي منعت بموجبها الحقوق المدنية للموريسكيين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فرض على هؤلاء نظام الإقامة الجبرية «كأنه أشبه بالنظام الذي يفرض على اللاجئين في الدول التي يذهبون إليها، بحيث لا يمكنهم الذهاب من مدينة إلى مدينة داخل الدولة إلا بإذن من السلطات وموافقة، كأن حال المسلمين الأمس ومحنهم هي واقعهم الآن» في شبه الجزيرة الأيبيرية. ففي سنة 919هـ/ 1513م صدر مرسوم ملكي يمنع المسلمين من التجول في البلاد، بل أكثر من ذلك فرض

عليهم الاستقرار في أحياء خاصة بهم بالمدن القديمة أو بالأراض، مثلما كان الحال بالنسبة لليهود في العصور الوسطى، وقد عرفت هذه الأماكن المخصصة لإقامتهم باسم Las Morerias. ولقد أشار بردويل إلى وجود حيين من هذا النوع في مدريد، كما وجد بغرناطة أيضًا حيان مختلفان من حيث الكثافة السكانية؛ منهم حي صغير ضم حوالي 100 منزل، في حين ضم حي أكبر منه حوالي 5000 منزل، وكانت هذه الأحياء تفصلها عن أحياء النصارى أسوار كبيرة.

***

من ناحية أخرى أدى دخول عدد كبير من المسلمين غير المتشبعين بالثقافة الإسبانية (من حيث اللغة والعادات) في المجتمع الإسباني إلى توقف عملية اندماج المدجنين، كما أدى دخول المسلمين للعالم السياسي الاجتماعي للمسيحيين إلى ردود أفعال شديدة من قبل زعماء المسلمين، نظرًا للفروق الثقافية الهائلة بين المسلمين والمسيحيين، وأعقب ذلك عملية دمج قاسية كانت تهدف لمحو الاختلاف، خاصة الاختلاف الديني الذي كان مصدر عناصر الاختلاف الأخرى.

كان من أبرز نتائج الاستيلاء على غرناطة، هو ضياع احترام الهوية الإسلامية للمسلمين في المجتمع المسيحي، وقد بدأ ذلك بعد سقوط غرناطة عام 1492م عين الملكان الكاثوليكيان إيرناندو دي تالابيرا أسقفًا لها، فبدأ على الفور عملية تبشير بطيئة طابعها اللطف، وكانت هذه العملية، ووفقًا لرأي مؤرخ إسباني، تحقق بعض النجاح بالتدريج. والحقيقة التي لا يعرفها المؤرخ أن المسلم كان من الصعب عليه أن يترك دينه سواء بلين أو قسوة، وذلك لقوة عقيدته.

بدأ وضع المسلمين يزداد سوءا مع وصل الكاردينال» ثينسينيروس» إلى غرناطة عام 1499م، ورأى أن الطريقة التي كان يتبعها سلفه لن تجدي في تحويل الغرناطيين إلى المسيحية، فانتهج سلسلة من عمليات التنصير الإجبارية التي أدت إلى تذمر المسلمين، حيث عُد ذلك انتهاكًا للمعاهدة، خاصة وأن الكاردينال

قام بأفعال أخرى وحشية؛ منها حرق المكتبات العربية، وكان ذلك سببًا في قيام ثورة البيازين، وهي الثورة التي سرت روحها إلى أماكن عدة في غرناطة، ولم يتم التمكن من إخمادها إلا بعد عامين، حيث شهد عام 1501م نهاية الثورة. وفي نفس العام قرر الملكان تنصير مملكة غرناطة، وهذا يؤكد الرأي بأنهم لم يكونوا على اقتناع بالمعاهدة وليس لهم نية تطبيقها والحفاظ عليها. ولقد أسهم كل ذلك في كراهية المسلمين لدين الغزاة. ولقد كتب بيرموديث دي بيدراثا: «إن جشع القضاة ووقاحة رجال الملك قد أديا إلى سخط الموريسكيين. كان القضاة ورجال الملك يرتكبون كثيرًا من الظلم بحجة تنفيذ الأوامر، ولم يكن رجال الكنيسة أفضل حالًا. وهكذا فقد الموريسكيون حبهم لديننا، وفقدوا صبرهم على معالجة ذلك». وهكذا فإن بيرموديث اعتبر أن التنصير كان محض خيال من هؤلاء.

***

⏮ إضاءات تاريخية: المستعمر ورؤيته للإسلام.

إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا مباشرة وبعنف هو الخطر الإسلامي، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد، دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية، إن ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمد جديد. «بن جوريون». لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق أي دين آخر. «هانوتو: وزير خارجية فرنسا سابقا».

***

وكتب أيضًا بيرموديث دي بيدراثا، أنه كان الملكان - بصفتهما مسيحيين كاثوليكيين - يسعيان للحصول على منافع روحية لرعاياهما أكثر من حرصهما

على مصلحتهما الشخصية الزائلة، كانا يودان لو أن الموريسكيين تمسكوا بالدين المسيحي؛ وكما يقال إنهما أوصيا رجال القضاة بهم خيرًا، لكن كل ذلك كان زرعًا في الرمال، بل في الصخور. لقد اعترف بأن هذه الأعمال كانت عديمة الفائدة، فقد كان الموريسكيون (الأندلسيون المنصرون) مسيحيين في الظاهر ومسلمين في الحقيقة، وهو أمر يتفق ومبدأ التقية في الشريعة الإسلامية، ووفقًا لمؤرخ إسباني، كان الموريسكيون «يهتمون بممارسة شعائر وأعياد طائفتهم أكثر من اهتمامهم بدين السيد المسيح ربنا، رغم أنهم كانوا يلقون من الملكين معاملة أفضل من تلك التي كانوا يلقونها من ملوكهم.

***

⏮ إضاءات تاريخية: التاريخ والمذاهب.

وفقًا لمبدأ التقية عند المسلمين الشيعة، يجوز للمسلم أن يخفي دينه عند تعرضه لخطر كبير في حياته ومعيشته؛ بسبب ممارسة دينه، فحرصًا عليه يجيز الإسلام أن يمارس الشعائر والعبادات الدينية سرا ويعلن ما يريده منه الأعداء، وذلك حفاظًا على حياة المسلم وتيسيرًا عليه لتجنب مخاطر الحياة والمعيشة، ونجد أن مفتي وهران أفتى بذلك للأندلسيين المنصرين عندما تعرضوا للأذى من قبل محاكم التفتيش الإسبانية، وذلك عام 1504م.

***

ولكنى أرى غير ذلك بخصوص موقف الملكان كما ذكره المؤرخ الإسباني، حيث أشكك في هذا القول، بدليل إقامة محاكم التفتيش ومعاملة الراهب ثنسنيروس لهم وحرق الكتب وغيرها من الأعمال المرتبطة بنقض للمعاهدة. وهكذا يمكن القول بأن المؤرخ الإسباني انحاز للملكين، رغم أن الواقع كان على غير ما يقول. ويتضح مغالاة المؤرخ الإسباني عندما يشير إلى أن مسلمي الأندلس تخففوا من الأعباء والضرائب وأساءوا فهم مغزى المعاملة الحسنة، فاشتاقوا إلى

سابق عهدهم. على الرغم أن هذا لم يحدث إلا لفترة قصيرة بعد سقوط غرناطة، وبعد ذلك تغيرت المعاملة من سيئ إلى أسوأ على هؤلاء من خلال محاكم التفتيش وولاة الملك، إلى أغنامهم وإلى صلاتهم ورقصهم.

ونرى من وجهة النظر لمؤرخ إسبانيا في ذلك الوقت أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين علانية، بل كانوا ملحدين مستترين. على أنه من وجهة نظر الإسلام أن الواحد من هؤلاء كان مسلمًا قويًا متمسكًا بعقيدته رغم ما تعرض له من أذى في كل ما يملك. وأضافت وجهة النظر الإسبانية القول بأن هؤلاء كان ينقصهم الإيمان رغم تعميدهم المتكرر، وكانوا يقومون ببعض الأعمال الحميدة من الناحية الأخلاقية. كانوا صادقين في التجارة والتعاقدات، وكانوا يعطفون على الفقراء، ولا يحبون الدعة، بل كانوا يعملون جميعًا، لكنهم كانوا لا يواظبون على صلوات أيام الأحد، ولا يوقرون أعياد الكنيسة، وكانوا يحضرون الصلاة خوفًا من العقوبة، وكانوا يعملون في أيام الأعياد وأبوابهم مغلقة، كانوا يعملون برضا يفوق رضاهم في الأيام العادية، وكانوا يوقرون يوم الجمعة أكثر مما يوقرون يوم الأحد، وكانوا يغتسلون حتى لو في شهر ديسمبر ويؤدون صلاتهم.

ونرى أن في ذلك دليلًا على تمسك الأندلسيين بإسلامهم رغم تعرضهم للأذى في أنفسهم وأموالهم، لقد كانوا يعمدون أبناءهم تنفيذًا للقانون، وعندما كانوا يعودون إلى منازلهم كانوا يزيلون كل العلامات المقدسة بالماء الساخن، وكانوا يقيمون شعائرهم الإسلامية، وكانوا يطلقون على أبنائهم أسماء إسلامية، وكانت عرائسهم يذهبن إلى الكنيسة؛ لكي يباركن وهن يرتدين أزياء مسيحية مستعارة، وعندما يعدن إلى منازلهم كن يخلعنها ويرتدين ملابس إسلامية، ويحتفلن بالزفاف بآلات موسيقية وأغنيات موريسكية، وكن يتعلمن الصلوات المسيحية الخاصة بالزواج؛ لأن القساوسة كانوا يمتحنوهن، وبعد الزواج كن ينسينها.

***

⏮ إضاءات تاريخية: رغم المحن فكن داعيًا لله بصمت.

سؤال طرحه بعضهم على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - عندما قال: «كونوا دعاة إلى الله وأنتم صامتون»، فقالوا: وكيف ذاك؟ قال: بأخلاقكم»، وصدق - رحمة الله عليه - ؛ لأن التحلي بالأخلاق الحميدة، والآداب الرشيدة من أعظم الطرق للدعوة إلى الله، ومما يجعل الضال يقبل عائدا إلى مولاه، ويؤكد ذلك أن الأخلاق الحسنة من أعظم ما يدفع الشبهة عن الدين.

***

وبعد سقوط غرناطة تحول نظام التعايش في الأحياء المنفصلة عن مدينة غرناطة بين المسلمين والمستوطنين المسيحيين حسب نظام المدجنين القديم. لقد انتهى بوفاة كبار السن، حسب قول دييغو أورتادو دي ميندوثا، وهو يشير بذلك إلى كل من الراهب إيرناندو دي تالابيرا وكونت تنديا الذي كان أول قائد لغرناطة. ولقد جاء التغير من قبل المسلمين؛ بسبب حملات التعميد التي قام بها الراهب فرانثيسكو خيمنيث دي ثيسنيروس اعتبارًا من عام 1499م، فغيرت وضع المسلمين بشكل جذري؛ حيث بدأت حملات التعميد الإجباري في عاصمة غرناطة، ثم انتقلت إلى مدن وقرى غرناطة. ومنذ عام 1500م وحتى عام 1502م تعين على كل مسلمي مملكة قشتالة أن يتقبلوا التعميد، وكان خيار النفي لا يكاد يوجد في تلك القرارات، لكنّ مسلمين كثيرين اضطروا إلى الهروب من مجتمع لا يتسامح مع عقيدتهم.

لم يكن التعميد مجرد شعيرة دينية مسيحية، بل كان يعني بداية وضع اجتماعي، كان الشخص يتحول رسميا إلى مسيحي بعد التعميد؛ وعليه فإن أولئك «المسيحيون الجدد» كانوا يخضعون لسلطة محكمة التفتيش التي كانت تراقب تصرفاتهم وتعاقبهم إذا رأت أنهم بعيدون عن العقيدة والشعائر المسيحية.

ورغم أن التعميد والتنصير كانا إجباريا، وبالتالي غير صالحين حسبما تنص العقيدة المسيحية، حيث الأصل الاختيار، وترى أن ممارسة الضغوط الاجتماعية لا

تنفي حرية الاختيار، ولكن اجتمعت لجنة من أعضاء محكمة التفتيش في مدريد عام 1524م، وقالت «إن المسلمين حين تلقوا ماء التعميد كانوا في كامل قواهم العقلية، ولم يكونوا مجانين ولا سكارى» وأنهم تلقوا التعميد بمحض إرادتهم، وهم بذلك لا يفهمون أن الشريعة الإسلامية تتضمن التقية التي تجيز للمسلم إخفاء عقيدته إذا كان إظهارها يعرضه للخطر، كما لا يسمح الإسلام بالمقاومة حتى الموت إلا في حالة الحرب الدينية في سبيل الله في دفاع شرعي عن المجتمع الإسلامي.

وفي 20 أكتوبر 1525م أمر (شارل الخامس) كل المدجنين في مملكة (بلنسية) بين تغيير دينهم أو مغادرة الأراضي الإسبانية في تاريخ أقصاه 8 نوفمبر من العام نفسه، بعد ذلك نشر مرسومًا إمبراطوريا في هذا السياق، حث فيه على أنه يجب على جميع موريسكيي بلنسية، كباقي الطوائف الأخرى، الحضور للخطب المسيحية وارتداء أهلة (جمع هلال) من القماش الأزرق مرئية على قبعاتهم، كما أبلغوا أنه لا يجوز لهم امتلاك أسلحة هجومية أو دفاعية، وترك العمل في الأعياد المسيحية، وكذلك عدم الاحتفال بالأعياد الإسلامية. وفي العام التالي تم تطبيق هذه اللائحة من الشروط على مسلمي أراغون أيضًا. وعلى الرغم من كل هذه القيود، كانت السياسة المسيحية في النصف الأول من القرن السادس عشر تهدف إلى محاولة الإدماج الكامل للمسلمين داخل المجتمع الكاثوليكي بدلًا من ترحيلها أو إبعادها عن شبه الجزيرة الأيبيرية، ذلك أن المراسيم كانت في كثير من الحالات تطبق في النوازل بشكل معتدل.

وعلى مدى القرن السادس عشر وحتى عملية الطرد النهائي بين عامي 1609 - 1614م كانت رغبة السلطات والمؤسسات المسيحية من مراقبة تصرفات المسلمين الدينية تزداد، وكانت المراقبة أكثر إحكامًا وتشمل أي اختلاف يمكن تفسيره على أنه دليل على الإسلام؛ من المأكولات والمشروبات إلى طريقة الاحتفال بالأعياد.

***

⏮ إضاءات تاريخية: الغرب قديمًا وحديثًا ما بين أكذوبة المدنية والتسامح الديني.

ونرى أن كل تلك المواجهات التي طالت المسلمين وحياتهم بعد سقوط غرناطة، كان مصدرها الخلط بين التنصير الإجباري والتعميد غير الشرعي الذي قبله المسلمون لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في مجتمع إسباني يسيطر عليه المسيحيون ولا يقبل بوجود اختلافات دينية. ونعتقد أن الخلط في المسائل الدينية هو أساس المشكلة الدينية للمسلمين في المجتمع الإسباني، كان المسيحيون يعتبرونهم «مسيحيين غير متدينين» بينما كانوا هم يعتبرون أنفسهم مسلمين بقلوبهم ولا يربطهم بالعقيدة المسيحية إلا الشكل الخارجي، وأنهم يفعلون ذلك؛ لكي يستطيعوا الحياة في ذلك المجتمع الذي يضطهد المسيحيين غير المتدينين ولا يسمح بوجود غير مسيحيين.

إن غموض الوضع يفسر اللائحة الدينية والاجتماعية للمسلمين الإسبان طوال القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر.

لم يتحمل النصارى الوجود الإسلامي والمسلمين على أرضه عندما تملك الأمر في الأندلس، بينما عاش النصارى واليهود أزهى عصور التسامح والمعايشة في ظل وجود الحكم الإسلامي على هذه الأرض، وفي وقتنا الحالي يفتخر الغرب بالمدنية والتعايش الديني في مجتمعاته، ولكن الحقيقة غير ذلك، فكل يوم ينال المسلمين على أرضه التضييق على شعائرهم وعلى حياتهم وعاداتهم، وتصل في بعض الأحيان إلى الاضطهاد وفرض القوانين التي تضييق الحال عليهم في لباسهم، ولكم في فرنسا مثال، وفي بعض الأحيان الهجوم على مساجدهم، ولكم في مذبحة نيوزيلندا وغيرها مثال، إن التسامح في مفهوم الغرب يمتد إلى كل الأديان ويقف عند الدين الإسلامي والمسلمين، فلنعلم ولنتأكد كل يوم أنه صراع حضارات وأديان بين الشرق والغرب، فهل يعي يومًا أبناء الشرق وحكامه لهذا.

***

ثورة البشرات ما بين عريضة المثقف مولاي وتعسف الملك فيليب الثاني وظلم:

تعد ثورة البشرات (1569 – 1571م) من الثورات والمعارك الكبيرة والفاصلة في حياة الوجود الإسلامي بعد سقوط الأندلس عام 1492م، وكانت معركة فاصلة للمسلمين لرد اعتبارهم في مواجهة الإهانات والاستفزازات لهم، حتى وصل الأمر إلى دينهم وإجبارهم على التنازل عنه، ومن هنا بدأت انتفاضة المسلمين ضد الحكم المسيحي، كان القانون الغاشم الذي أعلنته السلطات الإسبانية في أول يناير (كانون الثاني) 1567، موعدًا نهائيا لتخلي المسلمين نساءً ورجالًا عن لباسهم الإسلامي ولغتهم العربية، وعن كثير من عاداتهم، وجعل الشرطة مختصة بمراقبة المسلمين؛ مما زاد غضب المسلمين واستفزازهم، وأوغرت هذه التصرفات صدور المسلمين؛ مما دفعهم للانتفاض ضد الظلم.

مع صعود فيليب الثاني لسدة الحكم سنة 1556م حصل تغيير كبير تجاه سياسة الأقليات في إسبانيا، إذ تميزت هذه الحقبة بزيادة التعنت والتعصب الديني، عرف فيليب الثاني ملك إسبانيا في أنحاء أوروبا قائدًا للمقاومة المسيحية ضد توسع النفوذ العثماني، وقد ارتفعت في ذلك الوقت بشكل لافت أصوات أولئك الذين كانوا يخشون تحالف الأتراك «عدو أوروبا الموروث» مع موريسكيي إسبانيا، ولم يعد مغزى التحريض السياسي خلق الاندماج الاجتماعي المطلق، ونسج تقارب للأقليات الدينية والثقافية الإسلامية مع مجتمع كاثوليكي معين، بل كان الهدف الأساسي التمييز والفصل بإبعاد السكان الموريسكيين عن سكان البلاد الكاثوليك، لقد زاد الخطر العثماني بشكل كبير على مدى 50 عامًا مضت بسبب الخسائر الإسبانية المختلفة في البحر المتوسط، وكان هذا هو السبب الكامن وراء موجة الخوف عند الحكام المسيحيين من مؤامرة حيكت خيوطها ضدهم بين المغاربة المسلمين والدولة العثمانية، وفي هذا الإطار تطور جهاز بيروقراطي لا

يرحم، كان المسؤولون عنه يحملون أفكار الملك فيليب الثاني، وقد ساعدهم في ذلك التغيير المتسارع والواضح لمحاكم التفتيش.

أصدر فيليب الثاني في عام 1567م مرسومًا تضمن اتخاذ إجراءات قمعية، إذ حظر على موريسكيي غرناطة استخدام اللغة العربية حديثًا أو كتابة، ومنع تداول الكتب أو الوثائق المحررة بالعربية أيا كان محتواها، وحظر عليهم ارتداء ملابسهم التقليدية «اللباس الموريسكي»، وحظر أيضًا على النساء تغطية جزء من الوجه، ولا يستخدمن الحناء في نقش الأيدي أو الأقدام أو في صبغ الشعر، وحظر عزف الموسيقى الموريسكية في حفلات عقد القران والزفاف، كما حرم عليهم استخدام الحمامات، أو استعمال أسماء وألقاب عربية، وصدرت الأوامر بأن يترك الموريسكيون أبواب دورهم مفتوحة، إضافة إلى منعهم من تملك العبيد. وقد أثار ذلك ذهولًا كبيرًا في غرناطة.

أدى هذا المرسوم لظهور نص اكتسب أهمية غير عادية، تمثل في عريضة قدمها النبيل الموريسكي نونييث مولاي إلى محكمة غرناطة، أكد فيها بالحجج أن اللباس الموريسكي لا يرمز إلى الدين، ولكنه شكل من أشكال التنوع والسمات الإقليمية الخاصة بالمنطقة؛ إذ يختلف اللباس الغرناطي عن اللباس القشتالي أو الفالنسي، وأن العربية لا تعني الإسلام؛ لأن المسيحيين في الشرق يتحدثون العربية، وأن وضع الغرناطيين اللغوي إنما هو علامة تمييز إقليمية، شأنهم في ذلك شأن القطالونيين أو الجليقيين Gallegos؛ فهم يتحدثون بلغة مختلفة دون أن يكون لهذا علاقة بالعقيدة، إذًا، كانت هذه محاولة من جانبه.

لقد أراد نونييث مولاي أن يفصل المعالم الثقافية الغرناطية عن الهوية الدينية؛ لكي يجمع الموريسكيين في هوية إقليمية لا تتناقض مع المسيحية على الإطلاق، بدليل الوجود المسيحي في الشرق، كما أراد أن يوضح أن الغرناطيين لم يكونوا متفردين؛ لأن أبعاد التباين واضحة في اللغات والأزياء والعادات بين مختلف أقاليم إسبانيا، كما شدد كثيرًا على أن الموريسكيين وعاداتهم «ينتمون إلى

الأرض»، وأشار إلى أنه من الصعوبة تغيير الاسم على وجه الخصوص؛ لأن ذلك يعني ضياع الأسر والأنساب، أحد أركان الهوية الموريسكية، وكذلك الارتباط بالجماعة، وبمنع اللغة أيضًا ستضيع الوصايا ومحررات الأراضي والعقود، فهل يتساوى الجميع بدون نسب وبلا ميراث أو عبيد؟ هكذا سجل النبيل الموريسكي احتجاجه، وأن هذا المرسوم في المجتمع الإسباني المعروف بتعدد الطبقات، من شأنه أن يحكم على الموريسكيين بالتهميش، وجعلهم في أدنى طبقات المجتمع، إضافة إلى محو سماتهم الثقافية الخاصة إلى الأبد، إلا أن أحدًا لم يعره أي اهتمام.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: مؤامرات الغرب على المسلمين ودور المفكرين.

ومن هنا نرى أن الموريسكيين كانوا أمام مؤامرة كبيرة تهدف إلى طمس الهوية والعقيدة على السواء، «كما هو الحال لأن من محاولات طمس الهوية الإسلامية باسم الحداثة والعري والانفتاح وإلصاق الإرهاب بالإسلام والتشكيك في تاريخ الأمة وقداوتها، فحروب الحاضر هي الآن متممة لحروب الماضي»، فكان من الطبيعي أن يتحرك كبراؤهم لعرض الأمر أمام المسؤولين، لقد بدأوا محاولتهم بعقلانية، نلاحظ ذلك في رفع اعتراضهم من خلال النبيل الموريسكي مولاي، لكنهم لم يجدوا اهتمامًا بمذكرته وشكواه، فكان من الطبيعي أن يتحرك هؤلاء لعرض اعتراضهم بطريقة أخرى يفهمها المسؤولون على أرض الواقع، وهكذا كانت ثورة البشرات التي خسر فيها الجميع، « كل ما نرى في الأمة من فساد و ارتباك وفوضى وتدهور نشأ من عدم شعور الفرد بالواجب، وأهم عناصر قوة الأمة جودة تعليمها ونزاهة قضائها وحسن اختيار قادتها ومحاربة الفساد على كل مستوى». من هذا المنطق تحرك المخلصين من المفكرين وشجعان الأندلس لدفاع عن كرامتهم حتى آخر نفس فيهم.

❊ ❊ ❊

عشية أعياد ميلاد عام 1568، اجتمع الثوار وأعلنوا عصيانهم وثورتهم في قرية بيثنار Beznar (في وادي لكرين)، وأعلنوا إيرناندوا دي كوردوبا ملكًا لهم، فاتخذ له اسمًا إسلاميا هو «ابن أمية». وفي اليوم نفسه تمردت العديد من قرى مناطق أورخيبا، وبوكيرا، وخوبيليث، ثم تبعتها أغلب قرى البشرات. وفي ليلة ذلك اليوم توجه مساعد ابن أمية، فرج بن فرج، على رأس العشرات من أتباعه إلى البيازين، وحاول دفع سكانها للثورة، ولكنهم لم يتحركوا؛ فترك الحي وعاد أدراجه مع مئات من تابعيه المخلصين.

وفي تلك الأثناء مات المحقق العام «دون فيرناندو فالدس»، وحل محله الكاردينال «دون داسبينوزا» الذي تصفه الروايات الغربية بأنه كان خصمًا لدودًا للعرب، فاتفق مع كاردينال غرناطة على أخذ العرب بالشدة، وعلى تعيين مفوضين يطوفون أنحاء المملكة ويقدمون تقاريرهم عن حالة العرب، ثم تألفت لجنة لمناقشة التقارير وفحص حالة العرب، وتقديم المقترحات التي تراها مناسبة، كانت اللجنة مؤلفة من كبار رجال الدين، وبعض كبار الموظفين المدنيين، والقادة العسكريين. وبعد عدة اجتماعات، تغلب رأي رجال الدين، فقدمت اللجنة توصياتها الرامية إلى التشدد في تطبيق الأمر الصادر عام 1526، ولم يجرؤ المدنيون على معارضة رأي رجال الدين، وكان مما اقترحته اللجنة:

- منع استعمال اللغة العربية، والعادات والتقاليد العربية منعًا باتا.
- منع التسمي بأسماء عربية وتحريم لبس الألبسة العربية.
- هدم الحمامات وكل ما له مظهر حمام أو جامع.
- منع العرب من أن يمتلكوا عبيدًا.
- إجبار العرب على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة خلال الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.
- إجبار النساء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع.

قدمت اللجنة تقريرها ومقترحاتها إلى الملك بواسطة الكاردينال «دوديسا» رئيس الإدارة المدنية في غرناطة، فأصدر بها أمره في 17 أكتوبر (تشرين الأول) 1566. كان القائد العام المركيز «دو مونيخار» في البلاط حين صدور الأمر، ولما علم به انتقده أشد الانتقاد، وأبدى مخاوفه من مغبّة تطبيقه، وحاول أن يحول دون إعلانه، فلم يقبل الكاردينال المحقق العام «دا سبينوزا» بإدخال أي تعديل على الأمر، وطالب بتنفيذه كما جاء، ولما وصل الأمر إلى غرناطة قرر «دوديسا»، أن يجعل إعلانه يوم 2 يناير 1567، وهو يوم الذكرى السنوية لسقوط غرناطة، وحاول أن يمهد للأمر ليخفف من وقعه على العرب.

لكن زعماء العرب لم يقبلوا التعاون معه، فتولى هو دعوة العرب إلى ميدان باب البنود، الذي كانت تُجرى فيه مراسم الاحتفال بارتقاء ملك جديد للعرش في عهد بني الأحمر، ولما أذاع دوديسا الأمر على العرب علاهم الوجوم، وبدت عليهم علائم الثورة، فكيف لهم أن ينسوا كل الماضي العريض لقومهم في الأندلس؟ وحاولوا وقف الأمر أو إبطاله بالمراجعات الرسمية، فلم يفلحوا، وشرعت السلطات بملاحقة العرب لتنفيذ الأمر الملكي، كما زادت في تعسفها ومضايقاتها تنفيذًا للأمر المتعلق بمنع المسلمين من حمل السلاح إلا برخصة.

سببت الملاحقات كثيرًا من المشاكل والمآسي وابتزاز الأموال، فلم يجد الناس ملجأ لهم من السلطة والقضاء إلا في معاقل المنفيين بجبال الثلج «سيرا نيفادا»، وهناك تزايد عددهم وأصبحوا يشكلون قوة لا بأس بها، وبدأت فكرة الثورة تختمر في رءوس المنفيين وزعماء البشرات، وأصبح الجميع يرون أن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لوقف التعسف الإسباني. وكان آخر ما ألحقه دوديسا بالعرب من إساءات هو تجنيد قوة من الشرطة، أجبر العرب على تحميل نفقاتها لتقوم بالسهر على الأمن في الأحياء العربية، وتقصي المعلومات عن نشاطهم وتحركاتهم، فكانت الثورة هي الخيار الأخير ضد هذا الظلم الكبير، فاندلعت الثورة بقيادة محمد بن أمية في كافة أحياء غرناطة، وكانت ثورة من أجل الحفاظ على الكرامة

والعقيدة، وهي آخر ثورات المسلمين الحقيقية ضد ظلم العدو وقهره، فبثورتهم سطروا تاريخًا من البطولة والنخوة ضد عدو يحقد على ثقافتهم وعقيدتهم.

***

⏮ إضاءات تاريخية: مؤرخون إسبان أنصفوا الثورة وأرخوا لها.

أرخ الشاعر والدبلوماسي الإسباني دييغو أورتادو دي مندوثا لثورة البشرات في كتابه «حرب غرناطة» (بالإسبانية: La Guerra de Granada)، الذي لم ينشر في مدريد إلا عام 1610 ـ بعد ثلث قرن من وفاة مؤلفه ـ ولم ينشر في لشبونة إلا عام 1627، ويظهر أن تأخر نشر الكتاب كان مرجعه انتقاد مندوثا الحاد لبعض معاصريه الذين امتدت أعمارهم لما بعد وفاته، وانتقاده للسياسة الإسبانية وطريقة التعامل مع المسلمين، ولم تنشر طبعة كاملة من الكتاب إلا في عام 1730.

***

ولقد تمادت العجرفة الإسبانية في ملاحقة بقية المسلمين؛ حيث أصدر فيليب الثاني في حق حوالي 400 ألف موريسكي، أي ما يناهز 5٪ من نسبة سكان، مجموعة من الشروط مقابل السماح لهم بالاستقرار، أوردها Viardot على الشكل التالي:

- عليهم تعلم اللغة القشتالية في ظرف لا يتعدى ثلاث سنوات، ومن فاته الموعد ولم يتعلم اللغة القشتالية فلن يقبل منه الكتابة ولا الكلام بالعربية.
- عليهم تغيير ملابسهم بالتخلي عن الملابس الإسلامية، على أن يكون لباسهم كلباس القشتاليين.
- احتفالات الزواج والعرس، يجب أن تتم على الطريقة القشتالية، كما يجب عليهم ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجمع والأعياد الإسلامية.
- التخلي عن أسمائهم الإسلامية واتخاذ أسماء مسيحية.
- منع الاستحمام وهدم الحمامات حتى التي توجد في البيوت.

وبالنسبة للأسماء فمن خلال الدراسة التي قام بها بنصار Bennassar لاحظ أن الأسماء لحقها في البداية تحريف فمثلا حرف اسم يوسف إلى خوسي (Juce)، وأحمد إلى أميت (Amet أو Axarnet)، وعبد الله إلى أودالا (Audallas). لكن في حي البيازين فرضت الأسماء المسيحية بالقوة؛ فتم إحصاء ٪70 من حوالي 439 رجل يحملون أسماء نصرانية مثل خوان، فرانسيسكو، وألونسو، وهرناندو، في حين تم إحصاء ٪87 من النساء تحملن هن الآخريات أسماء نصرانية من قبيل ماريا، وإسابيل، وكاطلينة.

وجدت هذه السياسة معارضة شديدة حتى من قبل بعض النبلاء الإسبان الذين تولوا الدفاع عن الموريسكيين، فقد دافع فرانسيسكو مولي، وهو من إحدى الأسر النبيلة، عن الخصائص الثقافية للمجتمع الغرناطي التي صدرت ضدها التشريعات؛ فبالنسبة للغة قال: أليس من بين من يتحدث العربية مسيحيون طيبون في الشرق الأوسط ومالطا؟ وبخصوص الملابس أشار مولي إلى أن إسبانيا لها شأن عظيم بين الدول الأخرى، حيث يمكنها الافتخار بوجود أنواع كثيرة من الأزياء الإقليمية.

أما عن التشريع الذي يمنع الحمامات العامة فقال إن الحمامات موجودة دائمًا في جميع الأقاليم، فإذا منع الناس من الذهاب إلى الحمامات للاغتسال، أو من الاغتسال في بيوتهم، فإلى أين يذهبون؟ لكن مذكرته هذه أخفقت في إقناع السلطات بالعدول عن رأيها، مما دفع المسلمين إلى الاستمرار في تطبيق تقاليدهم، وذلك بطرق سرية، كطريقة الاحتفال بالزواج؛ حيث كان يتم الاحتفال به على الطريقة الأندلسية.

وبالإضافة إلى هذا عانى مسلمو الأندلس من أنواع الشتم والسب، فقد كان الإسبان دائمًا ينعتونهم بالبهائم لتحقيرهم، وبينما كان الإسباني يعطي لنفسه صفة الأسد أو النسر؛ لعلاقة هذه الحيوانات أو رموزها بالنبلاء، كان يضفي على المسلم الموريسكي صفة الحيوان المتوحش أو يشبهه بالنمل أو الأرانب أو الفئران

لكثرة ولادتهم أو باللصوص كالغربان.

ورغم كل هذه المحاولات ظل المسلمون متمسكين بدينهم بالخفاء، بل واخترعوا لغة جديدة حتى لا تعرفها محاكم التفتيش ويستطيعوا تعليم أولادهم الدين، وكانت تسمى لغة «الألخميادوا»، وهي لغة سرية بينهم، وكانت عبارة عن لغة عربية بحروف إسبانية، وظلوا متمسكين بدينهم وعقيدتهم حتى استاءت منهم إسبانيا وكنيستها رغم ما فعلوه وما أنفقوه من أموال ورجال وسلاح، فلم يستطيعوا تغيير دين هؤلاء رغم قلة حيلتهم، ولكن هذا هو الإيمان وعقيدة الإسلام، ومن ثم تم طرد المسلمين نهائيًا من البلاد ومن وطنهم بعد محاولات تنصيرهم وفشلها، هذا هو الغرب صاحب نظريات التسامح والتعايش والدولة، وسيظل الفرق بينهما عندما يتملكون وعندما يتملك المسلمون واضحا ومعروفا للجميع، فهم يهدمون ويظهر خبثهم، أما المسلمون عندما تملكوا أظهروا الخلق وبنوا حضارة وعلم.

***

⏮ إضاءات تاريخية: عندما تعود أخلاق الإسلام فينا سنحكم العالم ونقيم حضارة.

وهكذا أخفقت إسبانيا، رغم الإجراءات التي اتخذتها في إدماج الشعب المسلم مع الشعب النصراني الإسباني في تحقيق وحدة إسبانيا القومية، رغم كل محاولات التنصير والتضييق والإهانة في حق المسلمين ليصبحوا منهم، إلا أن هؤلاء ضربوا مثال في قيمة الإسلام وخلقه، وعظمته عندما يتملك من روح الإنسان وليس جسده، فهنا يصبح الإيمان نوره وبصيرته و ويزيد عزيمته على الصبر في الشدة، فرأينا ذلك في مسلمي الأندلس، حيث ما زاد التعذيب فيهم إلا زادوا تمسكًا بالإسلام وضحوا بكل شيء من أجله، هكذا هو الإسلام إذا حاربوه اشتد وإذا تركوه امتد، ولعل هنا استشهد بحديث أحد مفكري الغرب

«مرماديوك باكتول» حين قال: إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروها بها سابقا، بشرط أن يرجعوا الى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول؛ لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم.

***

ثورة غرناطة الكبرى «البشرات» آخر ثورات المسلمين من أجل العقيدة والتراث:

تعتبر معركة غرناطة (1568 – 1570م) من المعارك الكبرى التي لم تأخذ حقها في كتب التاريخ؛ حيث إنها من المعارك الفاصلة في حياة الوجود الإسلامي بعد سقوط الأندلس عام 1492م؛ وكانت معركة تحد للمسلمين لرد اعتبارهم في مواجهة الإهانات والاستفزازات لهم حتى وصل الأمر إلى دينهم وإجبارهم على التنازل عنه. ومن هنا بدأت انتفاضة المسلمين ضد الحكم المسيحي. كان القانون الغاشم الذي أعلنته السلطات الإسبانية في أول يناير 1567م كموعد نهائي لتخلي المسلمين نساء ورجالًا عن لباسهم الإسلامي ولغتهم العربية وعن كثير من عاداتهم وجعل الشرطة مختصة بمراقبة المسلمين؛ مما زاد غضب المسلمين واستفزهم، وأوغرت هذه التصرفات صدور المسلمين؛ مما دفعهم للانتفاض ضد الظلم.

الأسباب العامة الثورة: مع صعود فيليب الثاني إلى سدة الحكم سنة 1556م حصل تغيير كبير تجاه سياسة الأقليات في إسبانيا، حيث تميزت هذه الحقبة بارتفاع التعنت والتزمت الدينيين، فبالإضافة إلى مراقبته لفرنسا والفرنسيين، عرف فيليب الثاني في جميع أنحاء أوروبا كقائد للمقاومة المسيحية ضد توسع النفوذ التركي برا وبحرًا. وقد ارتفعت في ذلك الوقت بشكل لافت أصوات أولئك الذين كانوا يخشون تحالف الأتراك (عدو أوروبا الموروث) مع (موريسكيي) إسبانيا، ولم يعد مغزى التحريض السياسي، ولو بشكل إلزامي، خلْق الاندماج الاجتماعي

المطلق ونسْج تقارب للأقليات الدينية والثقافية الإسلامية مع مجتمع كاثوليكي معين، ولكن الهدف الأساس كان التمييز والفصل بإبعاد السكان الموريسكيين عن السكان الكاثوليك المتواجدين بالبلاد.

لقد زاد الخطر العثماني بشكل كبير على مدى خمسين عامًا مضت؛ بسبب الخسائر الإسبانية المختلفة في منطقة البحر المتوسط، وكان هذا هو السبب الكامن وراء موجة الخوف عند الحكام المسيحيين من مؤامرة حيكت خيوطها ضدهم بين المغاربة المسلمين والدولة العثمانية. وفي هذا الإطار تطور جهاز بيروقراطي لا يرحم، كان المسؤولون عنه يحملون أفكار الملك فيليب الثاني، وقد ساعدهم في ذلك التغيير المتسارع والواضح لمحاكم التفتيش.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: عداء الأمس بين الشرق والغرب هو عداء اليوم.

يظل الصراع الحضاري مستمرًا بين الشرق والغرب، متمثلًا في صراع أيدلوجي ودينى وسيادة وزعامة، يظل حقد الغرب مستمرا بنفس الفكر والهدف، ولكن بأشخاص مختلفين ودول مختلفة، ويظل الغرب منافسا ومتحديا لأي قوة إسلامية تريد النهوض والتقدم، وبعد هذه الكلمات نرى أن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي، فلسفته، وعقيدته، ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي، بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها.

إن روستو وهو المؤرخ والاقتصادي الأمريكي يحدد أن هدف الاستعمار في الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية، وأن قيام إسرائيل، هو جزء من هذا المخطط، وأن ذلك ليس إلا استمرارًا للحروب الصليبية.

❊ ❊ ❊

الأسباب الاجتماعية والحضارية: أصدر فيليب الثاني في عام 1567م مرسومًا تضمن اتخاذ إجراءات قمعية، بحيث حظر على مسلمي غرناطة استخدام اللغة العربية، حديثًا أو كتابة، ومنع تداول الكتب أو الوثائق المحررة بالعربية، أيا كان محتواها، وحظر عليهم ارتداء ملابسهم التقليدية «اللباس الموريسكي الإسلامي»، كما حظر على النساء تغطية جزء من الوجه، ولا يستخدمن الحناء في نقش الأيدي أو الأقدام أو في صبغ الشعر، وحظر عزف الموسيقى الموريسكية في حفلات عقد القران والزفاف، كما حرم عليهم استخدام الحمامات، أو استعمال أسماء وألقاب عربية، وصدرت الأوامر بأن يترك الموريسكيون أبواب دورهم مفتوحة، إضافة إلى منعهم من تملك العبيد، وقد أثار ذلك ذهولًا كبيرًا في غرناطة.

أدى هذا المرسوم لظهور نص اكتسب أهمية غير عادية، تمثل في عريضة قدمها النبيل الموريسكي نونييث مولاي إلى محكمة غرناطة كما ذكرناها سابقًا.

الأسباب الاقتصادية: اعتمد الأندلسيون في قشتالة على الزراعة وصناعة الحرير، وكانوا بصورة عامة مبعدين عن شغل الوظائف الحكومية أو المراتب العالية كمعظم الأقليات، وكان من بينهم التجار الصغار والعمال وأصحاب المهن الصغيرة، ومع أن بعضهم تصادف أنهم كانوا من الأثرياء، فإن مستوى معيشتهم كان منخفضًا بصورة عامة.

أما الاضطهاد الذي تعرض له الأندلسيون، خاصة في غرناطة، فأدى إلى اعتماد أهل المدينة على الاتجار بالحرير وصناعة الملابس الحريرية، ولذا؛ فإن ثروتهم الأساسية كانت إما في الحرير أو الذهب والأحجار الكريمة التي يمكن إخفاؤها أو نقلها بسرعة لو استدعت الضرورة ذلك. إضافة إلى هذه الأنشطة عمل آلاف الأندلسيين في الموانئ والنقل، ولا سيما باستخدام الحمير والبغال في عمليات نقل البضائع. ولا بد أن أعدادًا كبيرة منهم كانت تشتغل في مصانع صغيرة لإنتاج الورق والسكر والصابون، والتبغ فيما بعد، ولا سيما في المعمل الذي أقيم في إشبيلية، ولقد عرف عن الأندلسيين الجد والنشاط حيثما وجدوا، فقد يصل الأندلسيون منفيين

أو مرتحلين من غرناطة، لسبب أو لآخر، إلى منطقة ما دون أن يكون معهم الكثير، ولكن جدهم كان يوفر لهم الدخل. ومع الزمن كانوا يجمعون ثروة، وقد يوظفون البعض من سكان المنطقة التي يقيمون فيها لمساعدتهم.

ثم جاء اضطراب الأوضاع في غرناطة، وتقاتل أطراف السلطة هناك على النفوذ في وقت تعرضت فيه صناعة الحرير لكساد عام؛ بسبب سياسة الحكومة التي عمدت أولًا لمنع تصدير الحرير المصنوع في غرناطة، ثم إلى فرض ضرائب باهظة على الحرير اعتبارًا من سنة 1562م، فكان أهل غرناطة المتأثرين الوحيدين تقريبًا من هذه السياسة الموجهة، ومن ثم كان الالتفات إلى الزراعة لتحقيق دخل أكبر يخفف من الاعتماد على صناعة الحرير المضطربة.

على أن ذلك اصطدم بمشاكل جديدة، خاصة وأن محاكم التفتيش كانت تصادر أراضي الأندلسيين المتهمين بالهرطقة. لقد كانت السلطات تختلق كل الأعذار لزيادة دخل عمالها، وكانت الحكومة مشغولة بإعادة النظر في توزيع أراضي غرناطة ومصادرة ما تعتقد أنه ملك للإمبراطور، يضاف إلى هذه الصعوبات ارتفاع الضرائب التي كانت تفرض على الأندلسيين واضطرارهم لاستضافة جنود الحاكم العسكري في البيازين، فكان ذلك عبئًا اقتصاديا كبيرًا على مصادرهم المحدودة، وكان مضايقة اجتماعية هائلة، خاصة لأن الجنود كانوا مجرد أعين للدولة يحملون إلى قادتهم أخبار تصرفات أهل البيت الذي ينزلون فيه ويتلصصون عليه. وفي مثل هذه الظروف كان السعي وراء زيادة دخل الأسرة الأندلسية مضنيًا، فالحكومة كانت لهم بالمرصاد، وتحسن مستوى أسرة ما كان بادرة لفرض ضرائب إضافية عليها. ولذا؛ فإن الدوافع النفسية التي يجب أن تتوفر لتحسين الدخل كانت معدومة في السنوات القليلة التي سبقت اندلاع ثورة البشرات.

الأسباب الثقافية: قامت السياسة الإسبانية بتهميش المجتمع الموريسكي وتجهيله تمامًا بعد أن قدم رصيدًا فنيا وحضاريا ومعرفيا لم تعرفه مجتمعات البحر الأبيض المتوسط الأوروبية إلا مع عصر النهضة. لقد حرمت عليهم تعليم اللغة

العربية، وأمرت بالاستيلاء على كل المدارس وملاحقة الفقهاء والمعلمين الذين كانوا يقومون سرا بتعليم الأطفال المسيحيين، ومنعت الالتحاق بالجامعة ولا الحصول على الثقافة العلمية؛ بسبب قوانين صفاء الدم.

وتشير بعض الوثائق الإسبانية إلى محاكمة أحد المسلمين الموريسكيين من طرف محاكم التفتيش ومعاقبته كجداف على ظهر السفن الإسبانية؛ بسبب العثور على عدد من الكتب العربية في بيته. ولقد أنتج هذا الصراع الحضاري الثقافي أدب «الألخميادو» حيث ترك الموريسكيون تراثًا ثقافيا عمد مؤلفوه إلى تسجيله بلغة جديدة، وخصاله تعد من ابتكاراتهم؛ إذ تؤكد المصادر التاريخية انتشار هذه الثقافة الهجينة في إسبانيا على امتداد القرنين السادس عشر والسابع عشر.

***

⏮ إضاءات تاريخية: آداب ولغات منسية حافظت على التراث الإسلامي.

الأدب الألخميادي: نوع من أنواع المقاومة السرية، وهو لغة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة. وكلمة Aljamia أعجمية تعني كل ما هو غير مشتق من العربية، وهي نعت بني على كلمة Aljamiado. فالأدب الألخميادو هو أدب آخر مسلمي الأندلس، وهو أدب القليل يعرفه، رغم أنه حافظ على تراث الإسلام في الأندلس بعد السقوط، وساهم في تعليم أبناء المسلمين تعليم دينهم بعيدًا عن عيون وتضييق محاكم التفتيش عليهم، فهنا على الإنسان دومًا أن يفكر في الحلول ولا يقف مكتوف الأيدي أمام المصائب، فالحاجة بالفعل أم الاختراع.

ومن هنا، فإن المخطوطات الموريسكية نتاج مرحلة ارتبطت زمنيا ومكانيا بالصراع الحاد في إسبانيا بين ديانتين ونظامين حضاريين يختلفان سياسيا واجتماعيا وثقافيا؛ مما أدى بالموريسكيين إلى اتباع مقاومة ثقافية ترفض كل أشكال الثقافة الإسبانية، وهذا ما يؤكده «لوي كارديك» بقوله: «يبدو لنا الموريسكيون وهم يعيشون عيشة مزدوجة؛ إحداهما رسمية ومسيحية، والثانية دخيلة إسلامية، وإن

ذلك ليظهر في أعظم الأوقات من حياتهم حيث يجتمعون بين شعيرتين».

* * *

ونلاحظ أن التراث الموريسكي الأندلسي شمل كل مناحي الحياة؛ مما لا يدع مجالًا للشك في أن محاولة إذابة المجتمع الموريسكي في المجتمع الإسباني قتلت في مهدها وحكم عليها بالفشل.

الأسباب المباشرة للثورة ومقدماتها وأحداثها

عشية أعياد الميلاد عام 1568م اجتمع الثوار وأعلنوا عصيانهم وثورتهم، في قرية بيشنار Beznar (في وادي لكرين)، وأعلنوا إيرناندوا دي كوردوبا ملكًا لهم، فاتخذ له اسمًا إسلاميا هو «ابن أمية». وفي اليوم نفسه تمردت العديد من قرى مناطق أورخيبا، وبوكيرا، وخوبيليث، ثم تبعتها أغلب قرى البشرات. وفي ليلة ذلك اليوم توجه مساعد ابن أمية، فرج بن فرج، على رأس العشرات من أتباعه إلى البيازين، وحاول دفع سكانها للثورة، ولكنهم لم يتحركوا؛ فترك الحي وعاد أدراجه مع مئات من تابعيه المخلصين.

أما الأسباب المباشرة لذلك؛ فكانت تتمثل في حضور القسيس بيدرو جيريرا مجمع تارانت، حيث أظهر فيه كثيرًا من الحماسة، فلمع اسمه فيه، وعندما عاد إلى إسبانيا جعل من نفسه مراسلًا يوافي الفاتيكان بأنباء إسبانيا، وخصوصًا بأنباء العرب فيها وحالتهم. ويقول الكونت سيركور: إن تقارير جيريرا ما كانت تدل على وعي وفهم للواقع، وكان من نتيجتها غش البابا بيوس الرابع وخداعه. ولما رأى البابا حماسة جيريرا، كلفه بأن يبلغ الملك فيليب الثاني أنه يستنكر تسامحه مع العرب في ممارسة ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم التي تعتبر في نظره نوعًا من الهرطقة، ويطلب إليه اتخاذ تدبير صارم بحقهم، ليجتث جذور هذه العادات والتقاليد.

* * *

إضاءات تاريخية: لماذا حقد أهل الدين المسيحي وقادته للإسلام في جواب مفكري الغرب.

في كتابه «العالم العربي المعاصر» يقول مورو بيرجر: «إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية، ليس ناتجًا عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام، يجب محاربة الإسلام، للحيلولة دون وحدة العرب، التي تؤدي إلى قوة العرب؛ لأن قوة العرب تتصاحب دائمًا مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره. إن الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر بيسر في القارة الأفريقية».

***

أحداث ثورة غرناطة الكبرى «البشرات»:

إزاء فرض هذه القوانين المجحفة اجتمع زعماء المسلمين في الأندلس وتباحثوا فيما يجب عمله، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لإلغاء هذه القوانين أو للتخفيف من وطأتها ولكن مساعيهم كلها ذهبت عبثًا، ولما بلغ بهم اليأس ذروته تهامسوا على المقاومة والثورة، على أن يبدأ تنفيذ الفكرة أولًا في غرناطة، وكان زعيم هذه الفكرة رجلًا جريئا وافر العزم والحماسة، يدعى فرج بن فرج ينتسب إلى بنى سراج من أشراف غرناطة، واتفق الزعماء على إعلان الثورة يوم الخميس المقدس الموافق 14/ 4/ 1568م؛ لأن في هذا اليوم ينشغل النصارى باحتفالاتهم وصلواتهم، ولكن أنباء الاتفاق تسربت إلى السلطات القشتالية، فاضطر الثوار أن يؤجلوا موعد إشعال الثورة.

استمر المسلمون في الأندلس على عزمهم وأهبتهم، وأرسلوا خطابات عديدة إلى مختلف الأنحاء يدعون فيها إخوانهم إلى التأهب، وفي شهر ديسمبر سنة 1568م وقع حادث مفاجئ كان نذير الانفجار، إذ وثبت جماعة من الثوار المسلمين على بعض القضاة والجند القشتاليين في طريقهم إلى غرناطة ومثلت بهم جميعًا، ولم تمض بضعة أيام، حتى عمت الثورة في جميع أنحاء البشرات، وهرعت

الجموع المسلحة إلى ابن فرج، ووثب الثوار بالقشتاليين القاطنين فيما بينهم، ففتكوا بهم ومزقوهم شر تمزيق.

اندلع لهيب الثورة في جميع أنحاء الأندلس، واستعد الثوار المسلمين لخوض معركة الحياة أو الموت، واختاروا أميرًا لهم ينتمي إلى بنى أمية يدعى فرناندو دي فالور، وتسمى باسم محمد بن أمية، وكانت غرناطة في أثناء ذلك ترتجف سخطًا، وكان حاكمها منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى، فخرج من غرناطة بقواته في 2 يناير سنة 1569م، وسار إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة، ارتد الثوار على أثرها ففتك القشتاليين بهم فتكًا ذريعًا.

عقب ذلك جرت المفاوضات بين منديخار وبين محمد بن أمية في أمر التسليم والتفاهم على العفو والصلح، ولكن بعض الثوار المتحمسين رفضوا هذه المفاوضات واستُئنفت المعارك مرة ثانية ورجحت كفة القشتاليين أيضًا وهزم الثوار مرة أخرى، وفر محمد بن أمية واختفى في منزل أحد أقاربه ويدعى «ابن عبو»، ورغم هذه الهزائم لم ييأس الثوار واحتشدوا في شرقي البشرات في جموع عظيمة، ووقعت بينهم وبين القشتاليين عدة معارك شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، وفي نفس الوقت جرت مذبحة مروعة في سجن غرناطة، حيث تم ذبح نحو مائة وخمسين من أعيان المسلمين كانوا قد اعتقلوا كرهائن.

كان لهذه المذبحة أثر في إذكاء الثورة مرة أخرى، فانقض الثوار على الحاميات القشتالية في أنحاء البشرات ومزقوها تمزيقًا، وعاد محمد بن أمية وتبوأ عرشه مرة ثانية والتف حوله الثوار مرة أخرى وعاد النضال إلى أشده من جديد، وبينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تشتعل قتل محمد بن أمية على يد أبناء أمته نتيجة الدسائس والغدر، فاختار الزعماء بعده ابن عبو ملكًا عليهم، وتسمى بمولاي عبد الله محمد، وذاعت شهرته واستطاع أن يجمع حوله جيشًا مدربًا قوامه زهاء عشرة آلاف.

حين رأى فيليب الثاني استفحال الثورة، أرسل قوات عسكرية كبيرة لقمعها بقيادة أخيه الدون خوان فخرجت له قوة من الثوار بقيادة زعيم يدعى» الحبقي»، وبعد مواقع هائلة بين الطرفين نتجت عن قتل وأسر وسفك دماء الكثير جرت مفاوضات الصلح بشرط أن يتقدم الحبقي إلى الدون خوان وإعلان خضوعه له، ولكن هذا الصلح لم يرض ابن عبو الذي ارتاب في موقف الحبقي وهو يروج للصلح ويدعو للخضوع للعدو، فاستقدمه لمعسكره وأعدمه سرًا.

أرسل الدون خوان بعد ذلك إلى ابن عبو رسالة بالصلح، فأجابه أنه يأبى الخضوع ما بقي فيه عرق ينبض، وأنه يؤثر أن يموت مسلمًا مخلصًا لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك إسبانيا بأسره، فعادت الثورة إلى اشتعالها وسار الدون خوان في قواته واجتاحوا في طريقهم كل شيء وأمعنوا في التقتيل والتخريب، وهدموا الضياع والقرى والمعاقل، وأتلفوا الحقول، وأخذت الثورة تنهار بسرعة، وفر كثير من الثوار إلى إخوانهم في إفريقية.

***

⏮ إضاءات تاريخية: قادة تناسهم التاريخ رغم عظمة فكرهم وهمتهم وحبهم لدينهم ولأمتهم نفتقد أمثالهم في حاضرنا.

فرناندو دي فالور «ابن أمية» قائد ثورة غرناطة الكبرى، وفي ليلة ما يسمى بعيد الميلاد سنة 1568، اجتمع سرًا ممثلون عن مسلمي غرناطة وقرى جبال البشرات وغيرهما وأعلنوا تبرؤهم من المسيحية، وبايعوا فرناندو دي فالور «ابن أمية» ملكًا لهم، واختار اسم ابن أمية كونه ينحدر من سلالة أموية، فلقب به. فأصبح بذلك القائد الأندلسي المسلم الذي قاد ثورة مسلمي الأندلس ضد الملك فيليب الثاني، والتي عرفت بحرب البشرات وقد عرف بالشجاعة والإقدام، وكانت له ثقافة واسعة ومعرفة عميقة بالمجتمع وأحواله.. بعد مبايعة الأندلسيين الموريسكيين له قام في الحال بتأدية الصلاة وأقسم بعدها أنه سيموت من أجل شريعته الإسلامية

ومملكته. إثر ذلك ألقى خطابًا معبرًا يشرح فيه أسباب الثورة بثقافة ورؤية قائد افتقدنا لمثلها اليوم، وكانت كالتالي، وتم ذكرها بطريقة مختصرة وبتصرف:

«لقد أصبحنا مطرودين من رحمة الجميع، فلا النصارى يعاملوننا كنصارى، ولا المسلمون ينظرون إلينا كإخوان لهم ويساعدوننا، فلا يكلمنا أحد، ولا يعاشرنا أحد. يمنعوننا من أن نتكلم لغتنا، ونحن لا نعرف القشتالية الإسبانية، وكل ساعة يهددوننا وينزعون أبناءنا من أيدي أمهاتهم وآبائهم، ويرسلونهم بعيدين عنا لينسوا نوع المعيشة التي نعيشها ويتعلمون بأن يصيروا أعداءً لآبائهم، ويعلمونهم في مدارسهم، ويمنعون حتى لباسنا العربي، ويجبروننا على استعمال اللباس الفرنجي مع أنهم يلبسون ألبسة مختلفة، فالألماني والفرنسي يتزين بزيه، والرهبان والشباب والشيوخ كل واحد بزيه الخاص، ونحن الأندلسيون نحتفظ بعقيدتنا في القلب لا في الملبس» كأنه يحكى حال مسلمي ميانمار وما نالوه من عذاب وتشريد وتقطيع لأجسادهم؛ بسبب تمسكهم بعقيدتهم، كأنه يوصف حال الأغوز المسلمين في الصين، وكيف تعاملهم السلطات الصينية، وتسلب منهم أبناءهم وتعلمهم الشيوعية وتسلب منهم دين الإسلام، وتُضيق عليهم أداء شعائرهم ولغتهم وعاداتهم، كأنه يحكي وضع مستضعفي الأمة وصمت الشعوب الإسلامية وحكامها اتجاه هذه الأقلية المسلمة التي تنال كافة أنواع العذاب في سبيل التمسك بعقيدتها في ظل صمت المجتمع الدولي وأمة الإسلام، فكأن حال الأمس هو حال الحاضر للمسلمين».

صار ابن أمية يشد العزائم ويحفز الهمم باستعراض المشاكل السياسية الموجودة بين النصارى أنفسهم مختلفي الملة، وذكر ما حدث بين البروتستانت والكاثوليك في هولندا وفرنسا. واستطرد ابن أمية خطبته قائلا: «إذا كان هذا الخلاف ناشبا بين النصارى أنفسهم فما بالك بين النصارى والمسلمين، إذًا، يجب اغتنام الفرص، إن الملك ينقصه المال ورجال أكفاء، وليست غرناطة وحدها التي عليها أن تنهض وتثور، بل كل الأراضي الأندلسية التي كانت تحت حكم أجدادنا وهي الآن تحت

حكم أعدائنا، تشجعوا واثبتوا في أماكنكم وثقوا أننا سنعيد مجدنا وأرضنا»، كأنه يحكي حال الأمة الآن، ويصف الصراع الدائر بين الشرق والغرب، وماذا يريد الغرب من المسلمين، وما يجب على المسلمين فعله، كأنه يتحدث بلسان قادة يريدون العزة للأمة، ولكن صمتت الشعوب عن سماعهم، كأنه يقول أن الأمم ونهضتها لا تحتاج أموالا بل تحتاج رجالا أكفاء ذوا همة وقضية وعقيدة راسخة، من هنا يبدأ النصر والعزة».

***

وبرغم قلة العدد والعتاد استطاع الأندلسيون تحقيق مكاسب لا يمكن إنكارها تحت قيادة ابن أمية، وخاضوا معارك ضارية أمام أقوى الجيوش الأوروبية جيش إسبانيا ومن خلفها البابا والمرتزقة من شتى أنحاء اوروبا، وكل غايتهم استعادة أراضي المسلمين وكانت ثورتهم تنبض بالعزم والجهاد إلى أن قضى الله أمرًا كان مفعولًا، وأخمدت ثورتهم العظيمة.

نتائج ثورة غرناطة الكبرى «البشرات»:

في 28 أكتوبر سنة 1570م، أصدر فيليب الثاني قرارًا بنفي المسلمين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد، وكان مصير المنفيين مؤلـمًا جدًا، إذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض، وعانى الذين سلموا منهم مرارة غربة جديدة مؤلمة، وقد نص قرار النفي على وجوب وضعهم تحت الرقابة الدائمة، وتسجيلهم وتسجيل مساكنهم في سجلات خاصة، وعين لهم حيث وجدوا مشرفًا خاصًا يتولى شؤونهم، وحرم عليهم أن يغيروا مساكنهم إلا بتصريح ملكي، وحرم عليهم أن يسافروا إلى غرناطة، وفرضت على المخالفين عقوبات شديدة تصل إلى الموت.

بعد تنفيذ قرار النفي لم يبق أمام فيليب الثاني إلا أن يسحق ابن عبو الذي كان مختفيًا بجيشه الصغير في أعماق جبال البشرات، فكشف بعض الأسرى سر مخبئه

للقشتاليين، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره في 13/ 3/ 1571م، وقاوم ابن عبو ما استطاع ولكنه سقط مثخنًا بجراحه، وحملت جثته إلى غرناطة، ومن ورائها أفواج كثيرة من الثوار الذين سلموا عقب مصرع زعيمهم، ثم أجرى في جثته حكم الإعدام.

كان عدد المجاهدين في أول الثورة حوالي 4.000 مجاهد، ووصل إلى 30.000 مجاهد في قمتها، وقد وقع ضحية هذه الثورة عشرات الآلاف من الأندلسيين، خاصة النساء والأطفال، كما قتل عدة آلاف من الإسبان، وقد استعمل المجاهدون الأندلسيون في هذه الثورة تضاريس الجبال ومعرفتهم بالبلاد أحسن استعمال، فكانوا يضربون العدو ضربات سريعة ينتقلون بعدها بسرعة من جبل إلى آخر، ويتحاشون المعارك الطويلة، فكانوا مبدعين حتى في محنتهم، إذ اخترعوا حرب العصابات وأتقنوها، فخارت في أول الأمر معنويات الجنود الإسبان الذين تحولوا بعد ذلك إلى مجرمين بقتل أو استعباد جميع من يقع في يدهم من أسر المجاهدين، من أطفال وشيوخ ونساء للقضاء على معنوياتهم.

وهكذا انهارت ثورة البشرات، وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة على كل نزعة إلى الخروج والنضال، وخبت آخر جذوة من العزم والجهاد في صدور هذا المجتمع الأبي الذي عاش لا يسمع له صوت ولا تقوم له قائمة في ظل العبودية حقبة أخرى.

***

⏮ إضاءات تاريخية: من هنا تهزم الأمة.

تهزم الأمم والثورات عندما تفقد الإيمان بالقضية وإخلاص الرجال، ولكننا أمة تهزم بمعاصيها وليس بقلة العدة والسلاح، ولنا في قول الخليفة «عمر بن الخطاب» مثال، قال – رضي الله عنه – : والله إن الباطل لا يصمد أمام الحق طوال هذا الوقت إلا بذنب أذنبتوه أنتم أو أذنبته أنا»، قيلت هذه المقولة عندما جاء

أحد الرسل إلى عمر بن الخطاب من إحدى الغزوات يبشره بالنصر، فسأله عمر: متى بدأ القتال؟ فرد الرسول قائلا: قبل الضحى، فسأله عمر: ومتى انتهى؟ فرد الرسول: قبل المغرب، فبكى عمر – رضي الله عنه – . فسأله الرسول مستغربا: يا أمير المؤمنين أبشرك بالنصر وتبكي، فقال عمر – رضي الله عنه – له المقولة السابقة، افتقدنا لهؤلاء القادة وعدلهم وخوفهم من الله، وعندما افتقدنا لهذا الفكر والخلق، وعندما افتقدناه تداعت علينا كل الأمم من كل حدب وصوب وأذلنا الله، وعندما بلغت الذنوب الحد وتجاهلنا المنهج أصبنا بالهزائم والنكبات، وجعل الله كلمة العدو هي العليا وكلمة الأمة هي السفلى، فليصلح كل منا نفسه، ونربي الأجيال على عزة وعقيدة وقضية الأمة، حتى نعود أمة وحضارة من جديد.

❊ ❊ ❊

إجرام محاكم التفتيش في حق مسلمي الأندلس ما بين الإبادة والتنكيل:

⏮ تمهيد:

كان المسلم والنصراني يتعايشان منذ زمن طويل في إسبانيا، وكان كل واحد منهما سيدًا في أرضه ويتعامل مع الآخر معاملة المثل بالمثل، ولكن منذ دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة أصبح المسلم في أي مكان من إسبانيا مهزومًا. وإذا كان الظاهر من الناحية القانونية أنه كان ما زال يتمتع بنفس حقوق المواطنة في إطار نوع من التعايش، فإن الواقع كان يؤكد أن ضغط المنتصر وقهره كان يزداد يومًا بعد يوم، حتى وصل إلى التفكير بإنهاء وجوده.

إن اعتناق إسبانيا للمذهب الكاثوليكي على حساب المذهب الأريوسي، ثم النزعة الصليبية للكنيسة ولرجال الدين، ورغبتهما في نشر المسيحية... كل ذلك شكل سببًا في اضطهاد المسلمين ومحاولة تنصيرهم قسرًا. ظهرت هذه النزعة منذ وقت مبكر في الأندلس. فقد أعفت الكنيسة الإسبان من المشاركة في الحملات الصليبية في المشرق، واعتبر البابا أن حروب ملوك إسبانيا مع مسلمي الأندلس

هي حروب صليبية.

ولقد أورد ديفورك أن ألفونسو المحارب أجبر المدجنين من قبل رجال الدين على الاستماع للمبشرين في المساجد. اشتد الصراع في السنوات التي أعقبت سقوط غرناطة، علمًا بأن فرناندو كان يخشى في البداية عواقب الشروع في تنفيذ هذه السياسة؛ لعدم توطد الأمن في المناطق المفتوحة، ولأن المسلمين لم ينزع منهم السلاح تمامًا، وكان الضغط سيؤدي إلى الثورة، فتعود الحرب كما كانت. وأمام هذا التخوف استمرت ضغوط الكنيسة ورجال الدين، وبدأت العملية بإرغام المسلمين وإجبارهم على التنصر والتخلي عن معتقداتهم الإسلامية.

***

⏮ إضاءات تاريخية: مأساة أهل الأندلس في عيون مؤرخي المسلمين كأنه حالنا اليوم.

يقول المقري: «وتعرفنا عن غير طريق، وعلى لسان غير فريق، أن قطر الأندلس طرق أهله خطب لم يجد في سالف الدهر؛ وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقضي في الظاهر الكفر، ولم يقبل منهم الأسر، وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة، وخصوصًا أهل واسطتها؛ لقلة الناس وكونهم من الرعية الذهناء، مع عدم العصبية؛ بسبب اختلاف الأجناس. وعلم النصارى بأن من بقي من المسلمين إنما هم أسارى في أيديهم وعيال عليهم، بعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل». وأضاف: «إن طاغية قشتالة وأرغوان صدم غرناطة صدمة، وأكره على الكفر من بقي بها من الأمة، بعد أن هيض جناحهم وركدت ريحهم وجعل بعض جنده الخاص على جميع جهات الأندلس والطاغية يزدهي في الكفر ويختال، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه وتطمس معالمه ورسومه»، هكذا ما وصل على مسمع المسلمين، لك أنت تتخيل ما حدث على أرض الواقع، كأنه حالنا اليوم ما نسمعه عما يحدث لمسلمي بورما والروهينج والأغوز وغيرهما،

تخيل ما يحدث بهم على أرض الواقع وما يعانونه من ألوان الاضطهاد، فلهم الله ما دامت أفواه المسلمين أصابها الصمت ويدهم أصابها الشلل وعيونهم أصابها العمى، فأين المسلمون من حديث النبي ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»، قال النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – : ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا». قال ابن بطال، فهنا دعوة لتعاون المؤمنين مع بعضهم البعض في أمور الدنيا والآخرة حتى يكتب لهم الفلاح، فأين نحن من هذه الأحاديث وهذا المنهج؟

❊❊❊

وهكذا اعتنق عدد من المسلمين النصرانية، وخاصة مجموعة من الوزراء والأمراء في مقدمتهم الأميران سعد ونصر ولدا السلطان أبي الحسن من زوجته النصرانية دي سولس المعروفة بـ«ثريا»، حيث تنصرا ومُنحا ضياعًا، وسمي أحدهما باسم الدوق فرناندو دي جراندا، والثاني باسم دون أخوان دي جراندا، ثم الوزير بن كماشة الذي انتظم في سلك الرهبان.

اعتمدت إسبانيا في تحقيق هذه الأهداف على سياسة الإغراءات التي تمثلت في الهبات والمنح، وكانت هذه المنح تشمل جماعة معينة أو منطقة بأسرها، كما هو الحال بالنسبة لأهل وادي الكرين والبشرات، فقد أصدر الملكان مرسومين في عام 906هـ/ 30 يونيو 1500م يبرئ سائر أهالي هذه النواحي الذين تنصروا من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة عليهم لصالح العرش، ورفعها عن منازلهم وأراضيهم وسائر أملاكهم المنقولة والثابتة، وإلغاء ضريبة الرأس لمدة ست سنوات وإقالتهم من الغرامة التي فرضت عليهم من جراء ثوراتهم.

ورغم كل هذا وجدت الحكومة الإسبانية صعوبة في إدماج كل المسلمين

وتنصيرهم، فامتنع الكثير منهم. يقول المقري: «وبالجملة فإنهم (أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم عن التنصر واعتزلوا النصارى، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن منها بلفيق وأندرش وغيرهما».

وأمام فشل فاعلية القرارات والمراسيم التي أصدرها الملكان، تم تفويض مهمة تنصير المسلمين واجتثاث عقيدتهم إلى محاكم التفتيش ودفعهم إلى الاندماج. وهنا يتوجب العرض لمحاكم التفتيش وكيفية وأسباب إنشائها، واختصاصاتها، وماذا جنى المسلمون منها، وكيف يمثل لهم هذا المسمى ذكريات لا تنسى وحكايات مؤلمة بالنسبة لدينهم وحياتهم وأجسادهم.

محاكم التفتيش

تختلف محاكم التفتيش عن المحاكم العادية من عدة أوجه، فهي تختص بنوع محدد من الجرائم، والتي تراها المحكمة نوعًا من الإلحاد. ثم إن المحكمة كانت تتولى النظر في الجرائم التي يرتكبها أصحاب ديانة معينة مختلفة عن المسيحية، حتى لو كانوا مسيحيين جددا أجبروا على اعتناق المسيحية. ويمكن إدراك المسمى من الاسم (محاكم التفتيش) حيث تعني البحث والتفتيش عن الملحدين، أي إنها لا تنتظر حتى يتقدم إليها أحد بشكوى، بل تتحرك من تلقاء نفسها بحثًا عن قضايا. كانت تلك المحاكم متنوعة ومنتشرة، أما أشهر هذه المحاكم فكانت محاكم التفتيش البابوية، ومحاكم التفتيش الإسبانية بداية من عام 1478م.

1 - محاكم التفتيش البابوية:

في عام 1095م أعلن البابا أوربان ضرورة «استرداد» بيت المقدس من أيدي المسلمين، ولكي يحشد متطوعين لذلك أعلن أن الاشتراك في الحروب الصليبية يعدل التوبة عن أي ذنب، ويستحق صاحبه الغفران كذلك، ثم أصبحت صكوك الغفران تباع للمساهمين في نفقات تشييد كاتدرائية القديس بطرس، وبعد ذلك

أصبحت تلك الصكوك تباع بأثمان زهيدة ولأي سبب. والغريب أن الحملات الصليبية أتت بنتائج غير التي كانت تتمناها الكنيسة الكاثوليكية، فقد عاد المتطوعون إلى أوروبا وهم يحملون مبادئ تخالف مبادئ الكنيسة.

ولما خشيت الكنيسة الكاثوليكية من حدوث انشقاقات عليها؛ أرسل البابا إينوثينثيو الثالث حملات تفتيشية حققت بعض النتائج المرجوة منها، إلا أن المخالفات استمرت. وأخيرًا دعا البابا للقيام بـ«حملات صليبية داخلية» في جنوب فرنسا عام 1208م، وكان المشاركون في تلك الحملات يحصلون على الغفران وعلى الأراضي المصادرة من «الملحدين»، مما جعل عدد المشاركين يصل إلى 500 ألف متطوع. وقد استولى المتطوعون على مدينة بيزيرس Beziers، وذبحوا ستين ألفًا من سكانها من بينهم نساء وأطفال، وكان الجنود يسألون القساوسة: كيف نفرق بين المسيحي المخلص والملحد؟ فكانوا يجيبونهم: اقتلوا الجميع وسيتولى الرب التمييز بين الفريقين.

ورغم كل ذلك استمر «الإلحاد» في تولوز؛ مما أدى إلى استمرار الصراع حتى عام 1253م، وكان البابا قد أصدر أمرًا بإنشاء محكمة التفتيش البابوية عام 1215، إزاء المجازر التي ارتكبت ضد أبرياء في جنوب فرنسا، وتصاعدت صيحات الاحتجاج في أنحاء عديدة من العالم المسيحي؛ مما ترتب عليه عقد اتفاقية تولوز عام 1229م التي أقرت إنشاء محكمة التفتيش.

وهكذا تأسست محاكم التفتيش لأول مرة في إيطاليا سنة 629هـ/ 1231م بأمر من البابا هونوريوس الثالث، ثم في فرنسا سنة 631هـ/ 1233م، ثم في إسبانيا عام 633هـ/ 1235م بأمر من البابا غريغوريوس، وبدأت في قشتالة، ثم امتدت إلى الجنوب في عهد فرناندو وإيزابيلا، وكانت الغاية من تأسيسها في أوروبا عامة وفي إسبانيا خاصة محاربة الهرطقة وتأمين وحدة الدين المسيحي عند الجميع، بالإضافة إلى مصادرة الأملاك وأخذ الأموال.

بالإضافة إلى ما تقدم كان الباباوات يحثون ملوك أوروبا على إصدار قوانين تعاقب على جريمة «الإلحاد» بالإعدام، وقد استجاب الإمبراطور فريدريك الثاني لنداء البابا إينوثينثيو الثالث وأصدر قانونًا يعاقب «الملحد» بالإعدام حرقًا. وبمرور الوقت كان الباباوات يدعون الملوك إلى سن قوانين مشابهة. وكانت الأحكام التي تصدرها المحكمة قابلة للاستئناف أمام البابا الذي كان يلغي الأحكام عادة نظير مبلغ يدفعه المتهم، أو نظير خدمة تراها الكنيسة ضرورية. وكانت محكمة التفتيش البابوية أحيانا تصدر «عقوبات دينية» ضد من يخالف المنهج الذي تسير عليه الكنيسة، منها حضور جلسات وعظ وأداء صلوات وصيام، وغير ذلك.

2 - محاكم التفتيش الإسبانية:

نشأت محاكم التفتيش الإسبانية عام 1478م بقرار من الملكين الكاثوليكيين فيرناندوا وإيزابيلا. ربما كان السبب الأول في إنشائها هو تحول الكثير من اليهود إلى المسيحية عام 1391م، وذلك بعد تعرضهم لضغوط شديدة؛ مما جعل ذلك التحول ينقصه الصدق، وجعل محل ريبة وشك من المسيحيين القدامى والكنيسة، رغم أن اليهود أصبحوا مسيحيين، ولكن أطلق عليهم لفظ مسيحيين جدد، فأنابت محاكم التفتيش لمراقبتهم والتفتيش عليهم.

وبعد وفاة أنريكي الرابع ملك قشتالة آل عرشه لأخته إيزابيلا عام 1465، وقد تزوجت الملكة الجديدة من فيرناندو الذي تولى عرش أراغون بعد وفاة خايمى الثاني. كان القسيس الذي تعترف أمامه الملكة إيزابيلا وتحترمه هو «توماس دي توركيمارا» الذي كان له نفوذ واسع داخل القصر الملكي. استمع توركيمارا لشكاوى المسيحيين القدامى من المسيحيين الجدد، فبدأ يتحدث عن أهمية إنشاء محكمة تفتيش في قشتالة في عام 1478م؛ وذلك بعدما اكتشف مجموعة من الأشخاص في إشبيلية تمارس طقوسًا غير معهوده في الديانة المسيحية، وهذا ما أقنع به الملكة، وجعلها تطلب من سفرائها في روما إذنًا من البابا لإنشاء

محكمة تفتيش في قشتالة وأراغونه. من هنا أصدر **البابا سيكستو الرابع** مرسومًا في نوفمبر 1478م، يأذن فيه لملكي إسبانيا بتعيين أعضاء محكمة التفتيش، وقد وصل أعضاء محكمة التفتيش بالفعل إلى إشبيلية في ديسمبر 1480م، ومن هنا بدأت محاكم التفتيش الإسبانية عملها؛ حيث كان أول أعمالها محاكمة مجموعة من اليهود المنصرين، وأصدروا حكمًا بإعدام بعضهم حرقًا في فبراير 1481م.

كان ضحايا تلك المحاكم دائمًا من العرب المسلمين ومن اليهود. فبالنسبة لليهود يرى دسكولا أن الملكين الكاثوليكيين لم ينسيا الدور الذي أسداه اليهود للمسلمين لتسهيل عمليات الفتوحات الإسلامية في الأندلس، زد على ذلك تشبثهم بعقيدتهم. أما بالنسبة للمسلمين فقد تمكنت هذه المحاكم من التدخل في الحياة اليومية لهم واستطاعت أن تسهل كثيرًا لكل مسيحي أن يقوم بإدانة الهرطقة متى كانت لديه معلومات أو باستدراج الأطفال للاعتراف بما كان يجري بين أفراد الأسر، وبالموازاة مع عمليات الملاحقة، قامت إسبانيا، ومعها محاكم التفتيش، بمجموعة من الإجراءات لإنجاح مخططاتها، ومنها:

1 – تحويل مجموعة من المساجد إلى كنائس؛ فتم تحويل مائتين وثلاثة عشر مسجدًا في المناطق التابعة لمطرانية بلنسية إلى كنائس، وأربعة عشر في أسقفية طرطوشة، وعشرة مساجد في سيكورى، وأربعة عشر في أوريولة.

2 – حرق مجموعة من المخطوطات الدينية. يقول أحد الشعراء واصفًا عملية الحرق التي تعرضت لها الكتب الإسلامية في رسالة إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني:

الشاعر:

وكل كتاب كان في أمر ديننا ففي النار ألقوه بهزء وحقرة

أنا: كأنك تحكى حالنا، يحرق كل يوم قرآننا في ساحات الغرب، وكل يوم يرسم ويهان نبينا على صفحات جرائدهم، فيصيبني العجب، إلى هذا الحد يستهان بنا وبرمز ديننا ونحن أمة المليار، أم أصبحنا أمة كغثاء السيل، ترى الجميع

- حكاما وشعوبا - كأنهم صم بكم عمي، فهم لا يتكلمون، ولكن إذا كان الأمر يخص توافه الأمور والجدال والخلاف ترى الأصوات تخرج من كل مكان والكل أصبح بطلا وعالما، أمة أصابها الهون، وأصبحت قضيتها هي دنيا تصيبها وتناست آخرة وعقيدة، فسلط الله عليها كلاب الأرض، وسلط على شعوبها جور السلطان، فنحن أمة لا يصلح حالها إلا الدين، ولا يكون لنا السبيل على الكافرين إلا عندما نكون مؤمنين ولسنا مسلمين.

الشاعر:

ولم يتركوا فيها كتابًا لمسلم ولا مصحفًا يخلى به للقراءة

أنا: ولم يتركوا فينا عقلًا ولا وعيًا في هذا الزمان، بل نشروا الجهل في كل أرجاء الأمة، أدنى ما فينا أصبح أعلى قدرًا فينا، فأصبنا الضعف وسلمت ثروات الأمة للغرب، وفسدت الأخلاق والذوق العام، ولم يبق من القرآن إلا رسمه، وتركنا منهجنا وأخذنا بمنهج الشيوعية والرأسمالية، فأصبحنا أضحوكة كل الأمم رغم ما نملكه، كأنك تحكي حالنا يا شاعر الأندلس، ولكننا نخاف أن نصبح لدينا دول لها نفس المصير وتتباكى عليها الأجيال القادمة، فهل من معتبر، فهل من قائد يقود لديه حلم العقيدة والأمة ويكون قويا وحفيظا وعليما وأمينا، فينقذ هذه الأمة من الموت البطيء.

3 - تشكيل إرساليات ومدارس خاصة لتعليم أبناء الموريسكيين خلال القرن السادس عشر. ففي بلنسية جرى إعداد ست إرساليات تبشيرية كبرى؛ شكلت الأولى القرار التنفيذي لقرار الارتداد الصادر في عام 932هـ/ 1525م.

4 - تأليف مؤلفات وكتب تطعن في الإسلام، كمؤلف برناردیو بيريز «في مواجهة القرآن» الذي ظهر في قشتالة عام 936هـ/ 1529م وفي بلنسية عام 939هـ/ 1532م، ثم كتاب «إزهاق القرآن» للراهب الفلورنسى ريكولودى فونتكروني الذي ظهر في إشبيلية منذ عام 906هـ/ 1500م، وفي طليطلة عام 908هـ/ 1502م، ثم كتاب «نور

الإيمان ضد القرآن» من تأليف خوان دي تين، وظهر في بلنسية عام 921هـ/ 1515م، وغيرها من الكتب التي تعادي الدين الإسلامي.

ومع ذلك، فإن كل هذه الإجراءات ما كانت لتحول دون استمرار تشبث المسلمين بدينهم، خصوصًا بعد فتوى أحمد أبو جمعة الوهراني التي بنى عليها الموريسكيون طريقة وكيفية ممارستهم للشعائر الإسلامية، وكانت المنطلق الأساسي لظهور التقية عند مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة.

***

⏮ كأنك ترى: فإن الكفر ملة واحدة ومنهج المستعمر واحد.

عند النظر في هذه الإجراءات والتدقيق فيها، ستجدها نفس الإجراءات التي اتخذها المستعمر عندما استعمر البلاد الإسلامية، كأنه منهج يتوارثونه من بعضهم البعض، ويتمثل هذا المنهج في الطعن في الدين وفي القدوات وغياب التعليم، وإرسال حملات التبشير من خلال منظمات تتدعي الإنسانية مثل منظمات الإغاثة والحقوق الإنسانية وغيرها، وأيضًا الاستبداد ونهب الثروات، وخلق أنواع عديدة من أشكال الحكم وقضايا الجدال والخلاف، وتمكين نخبة من الأمور يكون ولاؤها له، ويتطور المنهج في كل مرحلة حسب المتطلبات من الشرق، ليظل الشرق وخيراته وشعوبه تحت سيطرته، والآن هي حروب واستعمار فكري وهي أصعب أنواع الحروب، هكذا يكون الكفر ملة واحدة، ويكون الصمت وعدم الوعي عواقبهم أيضًا واحدة، وهي الاستبداد والفقر والمهانة.

***

وهكذا استمر المسلمون على عقيدتهم ودينهم؛ مما جعل محاكم التفتيش تتابع خطواتهم وتلاحقهم، وتحكم عليهم بأشد العقوبات، لمجرد تهمة بسيطة أو شبهة.

فكان إذا قضي على المسلم بالإدانة فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ، وبأبشع الإجراءات، فيؤخذ من السجن دون أن يدري مصيره الحقيقي، ويؤدي

رسوم الإيمان الأوتودافي (وتعنى عملية حرق التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش، أي الإعدام بالحرق Auto – da – fe) وهي الرسوم الدينية التي تسبق التنفيذ، ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ، وهناك يتلى عليه الحكم لأول مرة، وقد يكون الحكم في التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة، أو بالإعدام حرقًا في حالة «الكفر» الصريح.

وقد يكون الحكم في حالة الذنوب الخفيفة بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة، وهو ما يسمى حكم التوفيق. وكانت أحكام الإعدام هي الغالبة في عصور الديوان الأولى في قضايا الكفر. أما في حالة البراءة عند وجود ذنوب خفيفة، فيعطى المتهم بعد أن يطهر من كل شبهة للكفر وفقًا لإجراءات معينة شهادة بطهارة من الذنوب، وهي كل ما يعوض به عما لحقه في شخصه وشرفه وماله من ضروب الأذى والألم.

مارست محاكم التفتيش أيضًا مختلف أنواع التعذيب بقصد اعتراف هؤلاء بخطاياهم. وتدل طرق التعذيب هذه على أبشع ضروب الوحشية والبربرية التي ارتكبتها هذه المحاكم ورجالها باسم الدين المسيحي. ومع ذلك استطاع المسلمون أحيانا الإفلات من قبضة محاكم التفتيش عن طريق الرشوة خاصة، فمثلًا كان للمتهم أن يلتمس العفو من الكرسي الرسولي، وكانت الخزانة البابوية تغنم عن هذه الالتماسات أموالًا طائلة، فكانت فرصة لا يستفيد منها سوى الغني.

كان مقر محكمة التفتيش الإسبانية في إشبيلية، ثم انتقل بعد ذلك إلى طليطلة، وكانت سلطة رئيس المحكمة لا تناقش، وكان يرأس مجموعة من الأعضاء عددهم خمسة، وهم يشكلون المجلس الأعلى، وقد منح البابا «كليمنت الثامن» أعضاء المحكمة الإسبانية سلطة النظر في المطبوعات والمخطوطات وحظر قراءة الكتب والأوراق التي يرون أنها تخالف الآداب العامة أو عقيدة الكنيسة الكاثوليكية. ولقد كانت محكمة التفتيش تتكون من نائبين وعالم لاهوت، وكان لهم زيٌّ خاص، وكان هناك قاض مهمته تقييم العقارات والثروات والمصادرة، وكان لكل هؤلاء عدد من المساعدين من بينهم كاتب المحكمة الذي يسجل

الأسئلة التي توجه للمتهمين، وكذلك الأجوبة والاعترافات التي يدلي بها المتهم بعد تعرضه للتعذيب، وكان هناك في كل قرية أو مدينة لجان تتولى تنفيذ أوامر محكمة التفتيش وإلقاء القبض على كل من تحوم حوله الشبهات.

كانت محكمة التفتيش تتولى ملاحقة الملحدين (والملحد في نظر هذه المحكمة والكنيسة هو المسيحي الذي يشك في إيمانه). ومن هنا، كان لا بد من أن يكون المسلم واليهودي بمنأى عن خضوعهما لسلطة محكمة التفتيش، ولكن مع تنصيرهم، بإرادتهم أو بإجبارهم، خضعوا تلقائيا لتلك المحاكم الظالمة التي جعلت أجسادهم تذوق كل لون من ألوان العذاب.

ومما سبق ندرك أهمية عمليات التنصير الجماعي التي قام بها الكاردينال فرانسيسكو ثينسيروس ومن سار على نهجه. إنه ببساطة أوجد عملًا لأعضاء محكمة التفتيش. ومن هنا، يمكننا أن ندرك سبب محاولات الموريسكيين الاتصال بروما وإخبار البابا بأنهم لم يلقوا ماء التعميد، أي إنهم غير خاضعين لسلطة محكمة التفتيش. ولما كان تمويل محكمة التفتيش الإسبانية ذاتيا، فإن ذلك يدعونا إلى القول بأن قسطًا وافرًا من القضايا التي نظرتها تلك المحاكم كان يستند إلى دوافع اقتصادية، وهو ما يفسر تعنُّت المحاكم تجاه القضايا المنظورة أمامها.

محاكم التفتيش وإجبار الأندلسيين (الموريسكيين) على التنصير

على إثر استلام غرناطة لم يحاول الملكان تحويل المسلمين عن دينهم بالقوة، كانوا يأملون أن ينتهي بهم المطاف إلى المسيحية، لكنهم - ومن وجهة نظر المؤرخين الإسبان - لم يكونوا يعتزمون إجبارهم على ذلك. والحقيقة أن الملكين اعتزما تنصير هؤلاء، ولكن كان عليهم الصبر لبعض الوقت، ويلينوا لهم الأمر حتى إذا رفضوا وجدوا الذريعة لإجبارهم على التنصير عنوة، بدليل إنشاء محاكم التفتيش التي شجعوها على إجبار هؤلاء وتعذيبهم.

بدأت محاكم التفتيش عملها في قشتالة ضد اليهود؛ فطردت ألوفًا منهم.

وبعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين الموريسكيين سنة 906هـ/ 1502م، أصبحت محاكم التفتيش تتابع الموريسكيين بصرامة. ففي وصية فرديناند لشارل الخامس نجده يأمره «بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للكاثوليكية، وتضييق الخناق على طائفة محمد».

والواقع أن النص السابق يقطع كل حجة على من يدعي أن دواوين محاكم التفتيش لم تبلغ حملاتها درجة اللاإنسانية، ولعل هذا ما فندته باحثة عربية حين أوضحت أن ما ذكره المؤرخون المعاصرون والقدماء عن مظاهر الاضطهاد التي طبقت في حق المسلمين، معتمدين على مختلف الوثائق الإسبانية والعربية، إنما يبقى «وصفًا ذابلًا أمام الصورة التي قدمها هؤلاء المضطهدون عن أحوالهم في نداء الاستغاثة الشعرى الذي وجهوه إلى السلطان بايزيد الثاني سنة 1505م».

***

إضاءات تاريخية: معاناة ومأساة الأمة الأمس واليوم في عيون شعراء الأندلس.

الشاعر:

سلام كريم دائم متجدد خص به مولانا خير خليفة

أنا: سلام على أمة عجز فيها الرجال على أن يكونوا على قدر المسؤولية، فلم يعد فيها خليفة، ولا عمر ولا عثمان ولا أبو بكر؛ كي يحملوا همها، فتجرأ عليها عدوها من كل جانب، فلم يعدو فيها خالد يحمل سيفه الحاد على رقاب العدو، فنهشها كل عدو وتجرأ على احتلال أرضها.

الشاعر:

سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس بالغرب من أرض غربة

أنا: سلام على أمة تخلفت عن ركاب تقدم الأمم، وأصبحت حبيسة فقرها رغم ما تملك من الثروات والجغرافيا، سلام على أمة أصبحت كالعبيد وهي

تملك لأنها لم تقل لظلم وللجاهل لا، سلام على أمة أصبحت هي الغربة، رغم ما تملك من الخيرات، سلام على أمة تركت الجهاد والدفاع عن أرضها وعرضها ومقدساتها فذلها العدو وأهان كبيرها وصغيرها، سلام على أمة ظنت العزة في الركوع أمام الله، ونسيت الركوع وأمانة الله لها، فأذلها الله، فنحن أمة أعزنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة في غير الله سيذلنا الله، وإذا لم نقل للظالم: لله سنظل عبيدًا له، وتظل الأوطان هي الغربة الحقيقية لما فيها من ظلم وقهر الرجال.

الشاعر:

وقد بُدلت أسماؤنا وتحولت بغير رضا وغير إرادة

أنا: تبدلت فينا نحن أيضًا الأحوال، بعدما كنا أمة نمتلك الدنيا من شرقها لغربها عندما كنا نحكم بشرع وكتاب الله وهمة الأبطال، فأصبحنا أمة يحتلنا ويطمع فينا الداني والقاصي، تبدلت الأحوال فينا بعدما كنا أمة علمت الدنيا كلها العلم والعدل والتسامح، وكانت منبر الحضارة والتنوير، أصبحنا أمة يضرب فيها المثل في الجهل والظلم والاستبداد والفقر، تبدلت فينا الأحوال بعدما كنا نحكم بقال الله وقال الرسول، فتملكنا ضياع وأراضي عدونا، فتبدل فينا الحال وحكمنا بما قالت أمريكا وإسرائيل وماركس ولينين وسيميث، فأذلونا ونهبوا خيرات الأمة وأذلوا الشعوب واحتلوا الأرض والفكر، فكأنك يا شاعر الأندلس تحكي جرح أمتك في زمنك بلسان حالنا الآن، فهل من واعٍ ومعتبر.

***

كان الإسبان يعتمدون على المهمة التبشيرية للمطران الأول (فراى إيرناندوا دي تلابيرا Fray Hernando de Talavera) الذي كان حريصًا على عدم التسرع واستعمال الوسائل السلمية فقط، ولكن الملكان وجدا أن التنصير سيأخذ وقتًا طويلًا قبل أن يتحقق فأخذا الخطوة التالية، وهو ما يؤكد ما سبق وأن قلناه. ففي سنة 1499 م كلف الكاردينال ثيسنيروس Cisneros بتسريع عملية التنصير، فشعر

المسلمون بأن العهد الذي منح لهم قد نقض، ومن ثم ثاروا؛ مما أعطى للعاهلين الذريعة لإرغام جميع مسلمي مملكة قشتالة على التنصير. وفي سنة 1502م كانت انتفاضة ببلنسية «الأخويات المهنية 1520 – 1522 – Germanias» هي التي أدت إلى تغيير الوضع القائم، فقد استدعى الأسياد رعاياهم المسلمين لمحاربة المتمردين، وتم تعميدهم بالقوة، واعتبر هذا التعميد شرعيا بموجب القانون الكنسي، حيث إن التعميد حتى وإن تم بالإكراه يخلق وضعًا لا رجعة فيه، فلا مجال إذًا للعودة إلى الوراء، ومسلمو بلنسية كانوا محكومين بأن يظلوا مسيحيين، مهما أجبروا على ذلك.

لقد وجدت محاكم التفتيش في الموريسكيين ميدان نشاطها المفضل خاصة وقد سعت السياسة الإسبانية إلى تبني سياسة ضد الأتراك العثمانيين على جميع المستويات، ومما يؤكد ذلك جبروت محاكم التفتيش التي تأسست أساسًا من أجل الاختلاس والاستيلاء غير الشرعي على أملاك الموريسكيين. ولتحقيق هذا الغرض الذي يقتضي بضرورة قطع الموريسكيين عن كل ما له صلة بالإسلام قولًا وفعلًا واعتقادًا، وزعت بيانات تكشف عن مظاهر اتباع الدين الإسلامي، للوشاية بأصحابها، ومما ورد فيه: «إذا تم الاحتفال بيوم الجمعة، وإذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة، وإذا تزوجوا على النهج المحمدي، وإذا غنوا الأغاني العربية، وإذا غسلوا موتاهم ولفوهم في الكفن، وإذا سمعنا أن الدين الإسلامي هو الأحسن، وأنه لا يوجد غيره للوصول إلى الجنة».

لقد وجد هذا المظهر في سجلات محاكم التفتيش. ففي سنة 1538م قدم الموريسكي «خوان دي بورقوص» إلى محكمة طليطلة؛ لأنه كان ينظم في بيته اجتماعات ليلية تعزف أثناءها الآلات الموسيقية، ويقام رقص «الزامبرا» ويأكل الكسكس، وأخذ عليه وعلى ضيوفه أنهم يعيشون كأنهم في أرض الإسلام، ويغنون أغاني عربية ويتنادون بأسمائهم الإسلامية.

ولقد بلغت نسبة الموريسكيين المقدمين لمحاكم التفتيش 3.3٪ من النسبة

العامة حتى سنة 1530م. وقد ظهر الموريسكيون بشكل مكثف خلال سنة 1518م؛ إذ بلغ عددهم 219 في منشور العفو الصادر في 19 أبريل 1518. ويمكن تصنيف الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين والمعاقب عليها من قبل دواوين محاكم التفتيش إلى: الوضوء – الطهارة – الصلاة – صوم رمضان – الاحتفال بيوم الجمعة – عدم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير – قراءة كتب عربية – القول بأن الديانة المحمدية هي الأصح – ختان الأطفال.

وقد تمادت محاكم التفتيش في غيها؛ فقد حاكمت امرأة اسمها «لويزة الأزرق» التي اختلط عليها أسماء زوجها وأبنائها السبعة، على أن تناديهم بأسماء لاتينية أمام أعضاء محاكم التفتيش فأحرقت حية.

وهكذا أقرت محاكم التفتيش قطع الموريسكيين عن جذورهم وعن هويتهم الثقافية؛ مما جعل المؤرخ الفرنسي «برووديل» يصر على «أن المشكلة الموريسكية هي صراع ديني، وبمعنى آخر صراع حضاري يصعب حله، فهو مدعو لأنه يستمر».

ويرى «بيريز» أنه في عام 1526م وصلت الأمور إلى أبعد من ذلك؛ فقد تقرر تنصير جميع مسلمي مملكة أراغون، دون إعطاء أي تفسير. وعنده أنه بعد هذا التاريخ رسميا لن يكون هناك وجود للمسلمين بإسبانيا. ومن الواضح أنه يقصد عدم استطاعة المسلمين إعلان دينهم كديانة مصرح بها، ومنعهم من إقامة شعائره، فأصبح جريمة أن يكون مسلمًا، ولعله كان محقًا في هذا؛ بسبب شدة الاضطهاد.

أما الحقيقة فمختلفة تمامًا، فقد ظل الأندلسيون المنصرون مسلمين كما كانوا، كما أن الملكين كانا يدركان تمامًا أن المتنصرين الجدد لن يصبحوا أبدًا مسيحيين. وهنا تأكيد لرأينا السابق، وتناقض في مواقف الكاتب تجاه الملكين؛ حيث ذكر من قبل أنهم لم يجبروهم، وهنا يصرح بأنهم يدركون أن هؤلاء لم يصبحوا مسيحيين بعد.

إلا أن الإسبان كانوا يأملون أن يصبح أولاد المسلمين وأحفادهم كذلك، ولتسريع الاندماج طلب منهم أن يتخلوا عن أعيادهم، وملابسهم التقليدية،

وفي بلنسية سنة 1524م؛ أصدر المحقق العام بلاغًا يدعو فيه إلى عدم التعرض للموريسكيين، إلا في الحالات التي تكون فيها مظاهر الكفر واضحة للعيان. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، تدخل «الديوان المقدس» بصرامة أكبر، ومع ذلك نجد عدد الموريسكيين المدانين كان أقل بكثير من عدد اليهود المتنصرين. فعقوبة الإعدام نادرًا ما كانت تصدر في حقهم. وفي سنوات 1550و1580م أربعة عشر شخصًا فقط أرسلوا إلى المحرقة في غرناطة. وتجدر الإشارة إلى أن ستة منهم أدينوا بسبب مشاركتهم في ثورة 1569م، وهو ما يعتبر عددًا ضئيلًا لا يتناسب مع من شاركوا في هذا الثورة. وفي أغلب الأحيان، كان الحكم المفروض على الموريسكيين هو «التصالح» مع الكنيسة مرفقًا بمصادرة الممتلكات.

وفي بلنسية ما بين 1530 – 1609م تعرض أكثر من خمسة آلاف شخص للملاحقة، أغلبهم من الموريسكيين، إلا أن قلة منهم هي التي حكم عليها بالإعدام، وكانوا غالبًا ما يتهمون بالتواطؤ مع قراصنة الجزائر، أو بالدعوة إلى الإسلام في إطار محيطهم. إذًا، كان التآمر السياسي والتبشير الديني أخطر الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الموريسكيون.

لم تظهر المشكلة التي طرحها الموريسكيون بنفس الحدة في جميع المناطق، حيث توقف الأمر على نسبة كثافتهم داخل المناطق التي سكنوها، كما ارتبط بتقلبات حروب الاسترداد. هناك بعض الاستثناءات التي كانت فيها حرب الاسترداد فعلًا مرفقة أو ملحقة بهجرة أو طرد للمسلمين. فعلى سبيل المثال، وفي منطقة نيبلا Niebla المسترجعة سنة 1262م، لم يبق هناك مسلم واحد، كما أن الوثائق لم تسجل تنصيرات في حقهم، وهو ما يدفعنا لاستنتاج أن الساكنين الأصليين قد أجبروا على الرحيل. وقد تكررت هذه الوضعية بعد قرن، على إثر استرداد الوادي الكبير Guadalquivir، فالمسلمون الذين كانوا يعيشون هناك جلهم طردوا، ولم يكن المدجنون يمثلون سوى 0،5/ من سكان الأندلس، الذين تحولوا إلى المسيحية.

***

⏮ إضاءات تاريخية: كأنك ترى حرق الموريسكيين قديماً تراه بعيونك في حاضرنا.

هذه المذابح وهذا التشريد وهذا الألم الذي يعانيه المسلمون في هذه المنطقة خاصةً على حدود بنجلادش، أظن هذا كله يعود إلى أمر واحد، وهو أن العالم الإسلامي فقد وجوده كعالم مستقل، يستطيع أن يدافع عن كرامته وعن شرفه وعن حيثيته، أعتقد أن هذه المسألة هي المسألة الكبرى التي نقع نحن فيها اليوم، هؤلاء المسلمون في بورما يسمون الشعب الوحيد الذي ليس له أصدقاء، كأن هؤلاء، أما حمزة فلا بواكي له، كأنهم متروكون ولا يهتم بهم أحد، فهذه التجزئة في اعتقادي نتيجة لضياع العالم الإسلامي في شخصيته وفي فكره، ومن بورما إلى مسلمي جورجيا. إن أوضاع المسلمين في جورجيا تزداد صعوبة كل يوم، وذلك بسبب عدم وجود ضغوط على جورجيا التي يتحدث سياسيوها عن الحرية التي يتمتع بها المسلمون بممارسة شعائرهم، في حين أن عمليات القتل والتصفية مستمرة في مناطقهم على قدم وساق، ومن جورجيا إلى مسلمي الصين، حيث تقوم الحكومة الصينية والحزب الشيوعي ببناء معسكرات اعتقال كبيرة في المنطقة الحدودية الشاسعة، للسيطرة على السكان من عرق الإيغور الناطقين باللغة التركية والمعتنقين للمذهب السني وجماعات إسلامية أخرى، بما في ذلك الكازاخستانيون، وتعتقلهم وتحرمهم من الصلاة وتعتقل أطفالهم في معسكرات من أجل تعليمهم الشيوعية ونزع الدين الإسلامي منهم، وتحرق الكتب والمصاحف وتصادر سجاجيد الصلاة، فكأن الحرق والتشريد مكتوب على هذه الأمة، فلم تنته مأساة الأندلس والموريسكيين، حتى تظهر كل يوم مأساة جديدة للمسلمين، من بورما لفلسطين لليمن لسوريا للعراق لجورجيا للصين؛ لأننا أصابنا الوهن وأحببنا الدنيا وتكالبنا عليها ونسينا الآخرة، فنزع الله المهابة من صدور عدونا اتجاهنا، وسلط الله علينا كلاب الأرض حتى نعود إليه، فلا نفلح إلا بقال الله وقال الرسول وبعلم عصري وأخلاق الإسلام.

***

وفي القرن السادس عشر أصبح عدد الموريسكيين قليلًا بشكل عام، وتوزعوا في تجمعات حضرية صغيرة؛ حيث كانوا في طريقهم إلى الاندماج، ولم يكن هناك ما يميزهم في الظاهر عن المسيحيين القدامى إلا في ثلاث مناطق: أراغون وبلنسية وغرناطة. ففي المنطقتين الأوليين، الأقدم من حيث تاريخ «الاسترداد»، كان الموريسكيون يعيشون حياة غير مستقرة، ودون زعماء (الاسترداد) حديثي العهد، حافظ الموريسكيون على نخبهم الدينية والاجتماعية، إلا أنهم أينما وجدوا كانوا خاضعين لسيطرة النبلاء الإسبان الذين كانوا يستغلونهم، ولكن في نفس الوقت يحمونهم من مضايقات السلطة، بما أنهم كانوا يمثلون يدًا عاملة مجدة ومطواعة وذات كفاءة. في ظل هذه الظروف، نفهم على نحو أفضل كيف تمكن المسلمون من الاستمرار في إسبانيا خلال القرن السادس عشر. لقد اقتصر تطبيقه على بعض المظاهر البسيطة، كالامتناع عن أكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، وتلاوة القرآن، وصيام شهر رمضان، والاحتفال بأهم الأعياد الدينية. ورغم رقابة محاكم التفتيش، ظلت الكتب العربية متداولة، وكان الموريسكيون مسيحيين رسميا لكنهم مسلمون في الواقع.

ومن أجل إدماج الموريسكيين، كُرست جهود كبيرة. ففي غرناطة سنة 1559م، أوكل المطران بيدرو غيريرو Pedro Guerrero إلى الرهبان اليسوعيين إدارة مدرسة أساسية تقع داخل الحي الموريسكي بالبيازين Albaicin، لتلقين الأطفال مبادئ القراءة والكتابة وبعض الصلوات في سنة 1568م. كانت هذه المؤسسة تضم ثلاثمائة تلميذ، ثلثهم فقط من الموريسكيين، فقد كان الآباء يسحبون أبناءهم بمجرد أن يصبح هؤلاء قادرين على العمل، عند بلوغهم سن الثامنة أو التاسعة. ولقد بذل بعض اليسوعيين الآخرين مجهودًا للتبشير باللغة العربية، لكن سرعان ما سيفقدون هذه الحماسة أمام لا مبالاة المستمعين وهو ما نعتبره دليلًا على قوة إيمان الأندلسيين المجبرين على التنصير، بشهادة مؤرخ إسباني.

كما قام الرهبان بعمليات تبشير في المنطقتين الآخريين للموريسكيين؛ أراغون

وبلنسية. في المنطقة الأخيرة نبرز على وجه الخصوص، جهود دوق غاندية Gandia «فرانسوا بورجيا Francois Borgia» الذي فتح مدرسة خصصها لاستقبال الشباب الموريسكيين. وعندما التحق الدوق بالرهبان اليسوعيين سنة 1546م تنازل عن هذه المؤسسة لطائفة «عصبة المسيح» لكن كانت النتائج محبطة؛ فما بين سنتي 1554 – 1555م، ظلت المقاعد الاثني عشر المخصصة للموريسكيين شاغرة.

أما القديس «توماس دي بيلايبا Thomas de Villanuea» فقد كان أقل طموحًا؛ حيث اقترح إجبار الموريسكيين على الالتزام بالممارسات المسيحية العلنية، واعتبر أن الباقي سيأتي بشكل طبيعي، في استباق لمقولة بسكال «تظاهروا بالسذاجة». أما خلفه خوان دي ريبيرا Juan de Ribera فكان أكثر تطلبًا من سابقه، كان لديه كره لكل ما هو عربي، والذي كان بنظره مرادفًا للهرطقة. لذلك؛ منع رجال الدين من تعلم اللغة العربية، في الوقت الذي كان فيه الكثير من الموريسكيين لا يفهمون اللغة الإسبانية. ولنضف أخيرًا أن المناطق التي كانت مأهولة بالموريسكيين كانت الكنائس فيها أكثر إهمالاً منها في المناطق المسيحية، إذ نادرًا ما كان هناك من يقوم عليها، وفي غالب الأحيان كانوا أشخاصا ذوي ثقافة محدودة.

ونعتقد أن هذا السبب ضعيف ولم يكن ليمنع دخول الموريسكيين المسيحية، فالكنيسة حتى ولو مشيدة ورجالها على أرقى مستوى، فإن الموريسكيين بقوا ثابتين على عقيدتهم. إن من ضحى بما يملك من مال وولد في سبيل تمسكه بعقيدته، حتى ولو أخفاها، ولو تعرض لأبشع سبل العقاب والتنكيل.. أيمنعه شكل ومدى الاهتمام بالكنيسة من دخول المسيحية. لقد خفي عن الجميع السر، وهو إيمان الموريسكي العميق بدينه الإسلامي ومدى اقتناعه بهذا الدين ورسوخه بداخله.

إن المسيحيين القدامى الذين قطنوا المناطق القروية لم يكونوا يعاملون أحسن من أقرانهم سكان المناطق الحضرية؛ فمعظمهم لم يتلقوا أي ثقافة دينية، ومع ذلك لم يكونوا ليعتبروهم مسيحيين غير حقيقيين، لكن الموريسكيين كانوا يختلفون في كل شأن عن باقي المجتمع؛ في اللغة، في طريقة لباس المرأة وتزينها، في عادات الحياة

اليومية، في عادات الأكل؛ حيث كانوا - على سبيل المثال - يطبخون بالزيت، لا بشحم الخنزير. كان المسيحيون القدامى يعتبرون هذه الخصوصيات تعود إلى الدين الإسلامي، وأن هذه المظاهر من مظاهر الإسلام، إلا أن وجه التعارض بين المسيحيين القدامى والموريسكيين لم يكن الدين وإنما الحضارة وأسلوب الحياة.

وفي سنة 1566م قرر مجلس قشتالة تطبيق التدبيرات التي كانت قد تقررت سنة 1526م، وظلت حتى ذلك الحين حبرًا على ورق. لقد منع بالفعل على الموريسكيين، ومنذ ذلك التاريخ، الحديث باللغة العربية، والاحتفال بالأعياد التقليدية، واستخدام الحمامات العمومية، وارتداء ملابس خاصة، كما منعت النساء من ارتداء الحجاب. ولقد كلف الموريسكيون شخصًا منهم للتفاوض مع السلطات، وهو فرانثيسكوا نونييث مولاي Francisco Nunez Muley، الذي حاول التأكيد على أن اللباس لا علاقة له بالدين؛ فكل إقليم بإسبانيا له لباسه التقليدي، فلماذا لا يعتبر لباس الموريسكيين اللباس الخاص بإقليم غرناطة؟ لم يرغب فيلب الثاني في الاستماع إلى أية حجة، فالقرارات المتخذة يجب أن تنفذ دون تأجيل، إلا أن وقت التنفيذ ما كان ليكون أسوأ اختيار.

وعبر تاريخ محاكم التفتيش، يلاحظ أنها كانت مقرونة بجشع ديني ومادي، الأمر الذي جعل الموريسكيين دائمًا يشعرون بالحقد تجاهها. ويصف أحد عمال محاكم دواوين التفتيش أعمالها ومآلها بالقول: «فهم الإسبانيون أخيرًا أن تحويل شعب عن دينه جملة بطريق الإكراه عمل عقيم لا يؤدي إلى النتيجة المنشودة، ولم يُجد نفعًا ديوان التنقيب، ما قام به من الفحص البليغ عن هؤلاء المتنصرين في الظاهر، ومن ضروب العقوبات البربرية كالتعذيب والتخويف». وهنا نورد إحصاء بعدد الذين أحرقوا في مدينة مرسية بين أعوام 1557 و1563م، كما ذكره المؤرخ الفرنسي لوي كارديلاك، وهذه الإحصائية كالتالي:

السنوات	عدد الذين أحرقوا	عدد من أحرقوا على صورة تمثال	عدد الذين تلقوا عقوبات
1557	11	–	43
1559	33	05	43
1560	14	22	29
1560	16	08	48
1562	23		17
1563	17	04	47

ففي سنة 1564 تلقى موريسكي مائتي جلدة، وقضى خمس سنين في الأشغال الشاقة بالبحر، أما المدعو «رودريقوا الروبيوا» فحجز عنده عدة كتب من مخطوطة من طرف نظام التفتيش الديني في أراغون 1567.

ونلاحظ من الجدول ازدياد أعداد المعاقبين من قبل محاكم التفتيش من عام 1560 إلى 1563م، وهذا يفسر شدة الاضطهاد في هذه الفترة، التي ستكون عاقبتها تمرد الموريسكيين وقيام ثورة غرناطة الكبرى» البشرات».

***

⏮ إضاءات تاريخية: الإسلام وقوته رغم ما عاناه من وجهة نظر مفكري الغرب.

كان قادتنا يخوفننا بشعوب مختلفة، لكننا بعد الاختبار لم نجد مبررًا لمثل تلك المخاوف.. كانوا يخوفنا بالخطر اليهودي، والخطر الياباني الأصفر، والخطر البلشفي.. لكنه تبين لنا أن اليهود هم أصدقاؤنا، والبلاشفة الشيوعيون حلفاؤنا، أما اليابانيون فإن هناك دولًا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتهم، لكننا وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام، وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي

حيويته المدهشة. [لورانس براون]. إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد التملص من السيطرة الأوروبية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية. [القس سيمون].. إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية، أمكن أن يصبحوا لعنةً على العالم وخطرًا، أو أمكن أن يصبحوا أيضًا نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير... يجب أن يبقى العرب والمسلمون متفرقين، ليبقوا بلا قوة ولا تأثير. ما دام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق». القائل: جلادستون، رئيس وزراء بريطانيا سابقًا .»

قال لويس التاسع ملك فرنسا الذي أسر في دار ابن لقمان بالمنصورة في وثيقة محفوظة في دار الوثائق القومية في باريس: إنه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال الحرب وإنما باتباع ما يلي: إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وعدم تمكين البلاد العربية والإسلامية أن يقوم فها حكم صالح، وإفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء حتى تنفصل القاعدة عن القمة، والحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه عليه أن يضحي في سبيل مبادئه، والعمل على الحيلولة دون قيام وحدة عربية في المنطقة، والعمل على قيام دولة غربية في المنطقة العربية تمتد لتصل إلى الغرب.

«إننا كنا نعتبر أنفسنا سور أوروبا الذي كان يقف في وجه زحف إسلامي يقوم به الجزائريون وإخوانهم من المسلمين عبر المتوسط ليستعيدوا الأندلس التي فقدوها، وليدخلوا معنا في قلب فرنسا بمعركة بواتييه جديدة ينتصرون فيها ويكتسحون أوروبا الواهنة ويكملون ما كانوا قد عزموا عليه أثناء حلم الأمويين بتحويل المتوسط إلى بحيرة إسلامية خالصة، من أجل ذلك كنا نحارب في الجزائر». «القائل أحد مؤرخي فرنسا: من محاضرة عنوانها لماذا نحاول البقاء في الجزائر».

***

غرف آلات التعذيب:

كتب الكولونيل «**ليمونسكى**» أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا عام 1809م عن تلك الغرف ناعتًا إياها بأنها: «غرف آلات التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية». ولقد جاء في وصفه المؤثر أن تلك الغرف «امتدت إلى مسافات كبيرة، وكانت كلها تحت الأرض، وقد رأينا بها ما يستثير النفس ويدعوها أن تتقزز ما عاشت وامتد بها العمر.

رأينا غرفًا صغيرة بحجم الإنسان، بعضها عمودي، وبعضها أفقي، فيبقى سجين العمودية فيها واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه، ويبقى سجين الأفقية ممددًا حتى يموت، وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى ويسقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد البالية، فتحت كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية لا تزال في أغلالها سجينة مقيدة؛ أما السجناء فرجال ونساء، تتفاوت أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين.

وعن آلات التعذيب، كتب الكولونيل «عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم؛ وكان يبدأ بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين. كل ذلك على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على كل الجسد، فيخرج من الجانب الآخر لها كتلة واحدة».

وأضاف: «عثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تمامًا، توضع فيه الرأس بعد أن تربط أيدي وأرجل صاحبها بالسلاسل، فلا يقوى على الحراك، وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام، في كل دقيقة نقطة وقد جن الكثيرون بسبب ذلك اللون من العذاب قبل الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله هذه حتى يموت»... وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى «السيدة الجميلة» وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة امرأة جميلة، مرسومة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها

عدة سكاكين حادة؛ وكانوا يطرحون المعذب الشاب فوق هذه الصورة ويطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه بعنف فتمزق السكاكين جسم الشاب وتقطعه إربًا... كما عثرنا على عدة آلات لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب حديدية حادة، ومجالد من الحديد الشائك لجلد المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظم». وفي هذا الإطار من الوصف نجد الكثير من آلات التعذيب التي وقعت رقاب الموريسكيين تحتها، ويوجد العديد من أساليب التعذيب وآلاته الخاصة بمحاكم التفتيش ولكن نذكر هنا لمحة عن هذه الآلات وأساليب التعذيب كالآتي:

الثور الحديدي: قطعة نحاسية صلبة على شكل ثور، مفتوحة من جهة واحدة ليتم إدخال الضحية بها، ثم يتم إشعال النار تحته حتى يتحول لون الثور إلى الأصفر ويخرج البخار من أنفه، يستمعون إلى صوت صراخ المذنب وهو يشوى حتى الموت.

ناي المشاغبين: كان «ناي المشاغبين» إحدى الأساليب المستخدمة لتعذيب الضحايا، كان يتكون من حلقة كبيرة يتم وضعها حول رقبة المذنب، ويوجد حلقات أخرى صغيرة يتم وضع أصابعه بها، مع تسخين هذه الآلة مع درجة حرارة تعتمد على مزاج المعذب، كانت تتسبب هذه الآلة بتسلخات جلدية عميقة تصل إلى العظام والمفاصل وقد تؤدي في النهاية إلى الموت.

كاسر الأصابع: أداة تتكون من مسامير حديدية يتم وضع الأصابع بين فكيها، يتم إغلاقها ببطء حتى تتهشم العظام وتتفتت، ويستمر المعذب بإغلاقها حتى تلتقي المسامير العلوية بالسفلية. تتنوع أشكالها وتتعدد، فمنها لتهشيم أصابع القدم وأخرى للركبة والكوع.

الحوض: يتم وضع الشخص في حوض وأمره بالجلوس بوضعية القرفصاء مع إبقاء وجهه ظاهرًا، يتم طلي وجهه بالحليب والعسل حتى تتغذى عليه الحشرات، يبقى المذنب غارقًا في فضلاته حتى يجهز عليه الدود ويقتله ببطء شديد.

المخلعة: تم تصميم هذه الأداة لخلع كل جزء موجود في جسم الضحية،

فكان يستلقي عليها ويتم ربط يديه وقدميه، ثم تدار الأداة من خلال بكرات موجودة على طرف الأداة، ليبدأ جسد المعذب بالتمدد بطريقة لا يمكن احتمالها حتى تتمزق العضلات وكل شيء موجود في جسده.

القفص المعلق: بعد أن يتم تعذيب المذنب ويكتشف أنه لم يلق حتفه بسبب تعذيبه، يتم نقله إلى القفص المعلق وهو قفص حديدي يتم وضع الشخص بداخله في العراء وأمام الشمس ليمتص الحديد الحرارة، ولا يتم تقديم الطعام ولا الماء له، إضافة إلى وضع إبر أسفل المذنب على أرضية القفص لتؤلم قدميه إن أراد أن يريح رأسه على ركبتيه.

كرسي محاكم التفتيش: جاء المسمى نتيجة لاستخدامه بكثرة من قبل محاكم التفتيش، كانت الأداة عبارة عن كرسي مثبت في كل جزء منه عدد مهول من المسامير، يتم تثبيت الضحية عليه لتخترق المسامير كامل جسده، ولم يكتفوا بذلك بل يتم وضع أثقال فوقه ليضمنوا أن المسامير قدّت أعضاءه.

الشوكة الزنديقة: هي عبارة عن طوق يلف حول الرقبة مع أداة حديدية تشبه الشوكة موجهة نحو الذقن وأخرى نحو الصدر، وبهذا لن يستطيع الشخص أن يغفو أو تغمض له عين، لأنه إن فعل ذلك ستنغرس بجسده وتهلكه.

تعددت أساليبهم الشنيعة في حق الملايين من الأبرياء، ولم أذكر هنا إلا جزءا بسيطا من إجرامهم وسوداويتهم في حق الذين أرادوا فقط أن يمارسوا ديانتهم بكل سلمية. رحلت غرناطة ورحلت معها أرواح الأبرياء بين يدي الطغاة الذين لا يعرفون معنى الإنسانية، يتملكني الفضول كيف للعالم أن ينسى هذه الفظائع وأن يتهم المسلمين ويناديهم بالإرهابيين؟ وهم من وضعوا أسس الإرهاب قديماً وحديثًا بأفكار تغلب أفكار الشيطان ذاته، ينادون بالإنسانية وتاريخهم كله دموي تجاه الشرق، ينادون بالتسامح وتاريخهم كله عنف وعنصرية ضد الآخر، فنحن في العالم المعاكس، وكل شيء وعكسه ووفقًا للمصلحة، فمتى يعرف المسلمين هذا

ويستيقظون من غفوتهم، ويتحدون ويعرفون ما لهم وما عليهم.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: ماذا نريد من تاريخ محاكم التفتيش؟

بعد الذي عرضناه عن محاكم التفتيش نطرح السؤال التالي: لماذا نعود إلى محاكم التفتيش ونستعرضها هكذا؟ هل لنتباكى على مآس مضت أم لنستذكر أحزانًا انقضت؟

الإجابة نستشفها مما فعله ويفعله الصهاينة بسبب ما زعموه من محارق الهولوكوست، وما ادعوه من حرق النازية لآلاف اليهود في المحارق، فما زالت الصهيونية تضع الغرب بشكل خاص، والعالم بشكل عام أمام تلك المحارق التي كانت أحد تبريراتها لاحتلال فلسطين، بينما ما زال العالم يجهل الكثير عن محاكم التفتيش التي ذهب ضحيتها آلاف وآلاف المسلمين، وإذا كانت محارق النازية قد استمرت أعوامًا، فقتل وإحراق وتعذيب المسلمين عبر محاكم التفتيش استمر مئات من الأعوام، وفي الوقت الذي تفتح فيه دول الغرب النصراني أرشيفها، ووثائقها للصهيونية لتؤلف منه ما تدعي أنه وثائق عن محارق اليهود في عهد النازية، ما زال الفاتيكان والكنائس ترفض فتح أرشيفها وكشفه أمام المسلمين وغير المسلمين كي لا تظهر وثائق جديدة عن فظائع محاكم التفتيش.

إن المسلمين بحاجة الآن لدراسة متمعنة لتاريخ محاكم التفتيش وفظائعها وضحاياها من المسلمين، وأن تعتمد وثائق أرشيف الفاتيكان والكنائس الكاثوليكية في إسبانيا وغيرها من الدول النصرانية لوضع تاريخ حقيقي لتلك المحاكم، وإبراز هذا التاريخ للعالم، مع مقارنة موضوعية بين التعسف الكنسي والجرائم التي ارتكبت ضد المسلمين باسم المسيحية، وبين التسامح الإسلامي وكيف عاش المسيحيون بأمان وسلام في الدولة الإسلامية بحماية الإسلام الحنيف، مع ملاحظة أن معظم ما كتب عن محاكم التفتيش حتى الآن يعتمد

على رؤية نصرانية من قبل مستشرقين ومؤرخين غير مسلمين وبما تسمح به السلطات النصرانية، وأيضًا علينا أن نوضح للعالم وللأجيال من صنع الإرهاب ومن يدعمه، ومن الإرهابيون الحقيقيون، ومن عدو الإنسان والمعتقد، هل الدين الإسلامي والشرق أم الغرب ورجال دينه؟

***

كل هذه المحاكم والأساليب لم تنجح في إجبار المسلمين على ترك دينهم كما تريد الكنيسة التي أدركت مدى عمق الإيمان بالعقيدة الإسلامية في نفوس (الموريسكيين) فقررت إخراجهم من إسبانيا، فأصدر مجلس الدولة بالإجماع في (608م) قرارًا بطرد جميع (الموريسكيين) من إسبانيا، ولم يحل شهر أكتوبر عام (1609م) حتى عمت موانئ المملكة وبلنسية من لقنت جنوبًا إلى بني عروس شمالًا حركة كبيرة، فرحل بين (91606م) إلى (11610م) نحو (120) ألف مسلم من موانئ لقنت ودانية والجابية ورصافة وبلنسية وبني عروس وغيرها.

وفي (1611م) صدر قرار إجرامي للقضاء على المتخلفين من المسلمين في بلنسية، يقضي بإعطاء جائزة ستين من العملة الإسبانية، لكل من يأتي بمسلم حي، وله الحق في استعباده، وثلاثين عملة إسبانية لمن يأتي برأس مسلم قتل، وقد بلغ عدد من طرد من إسبانيا في الحقبة بين سنتي (1609 1614م) نحو (327) ألف شخص، مات منهم (65) ألف غرقًا في البحر، أو قتلوا في الطرقات، أو ضحية المرض، والجوع، والفاقة، وقد استطاع (32) ألف شخص من المطرودين العودة إلى ديارهم في الأندلس، بينما بقي بعضهم متسترًا في بلاده بعد الطرد العام لهم، وقد استمر الوجود الإسلامي بشكل سري ومحدود في الأندلس في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وتم طرد المسلمين نهائيًا في الفترة فيما بين (1609 – 1614م) وذلك في عهد الملك فيليب الثالث، وتم تهجيرهم إلى دول المغرب العربي، ومصر والدولة العثمانية وغيرها من الأماكن المختلفة، وانتهت فصول الوجود الإسلامي في الأندلس وإسبانيا.

ملخص الفصل الثالث:

تحولت طليطلة إلى مركز لاستقبال الموريسكيين الغرناطيين، حيث استقبلت مجموعة كبيرة في يونيو 1571م، ثم 74 قادمين من ألمرية في نوفمبر 1572م، و32 من بورتشينا وموتريل في فبراير 1573م، و11 من المونيكار وموتريل في أغسطس. وهكذا يمكن أن يزيد عدد ضحايا هذه الحملة من الطرد – بعد نوفمبر 1570م – عن 5000، وربما يصل إلى 10000 شخص.

ومما سبق نخلص إلى أن عدد ضحايا المراحل الثلاثة هو 80000 شخص، وهو عدد قد يقترب من الواقع، ويمكن الحصول عليه بجمع الأرقام الجزئية التي تبلغ عشرين ألفًا في المرحلة الأولى، وخمسين ألفًا في المرحلة الثانية، وعشرة آلاف في المرحلة الثالثة.

وفي النهاية، لا بد من القول بأن الطرد كان سببًا في خراب معظم مدن إسبانيا، وكان عاملًا مهما من بين عوامل أخرى جعلت من القرن السابع عشر قرن ترد وانحطاط.

وفي ختام هذا الفصل، نستطيع أن نستخلص أن الموقف الدولي تغير مع وصول فيليب الثاني إلى العرش؛ حيث بدأ الأتراك ومسلمو شمال أفريقيا في تهديد غرب البحر المتوسط خلال خمسينات القرن السادس عشر. من هنا بدأ المجتمع الإسباني ينظر إلى الموريسكيين على أنهم جواسيس يشكلون خطرًا على الدولة الإسبانية؛ وبدأت الاضطهادات والعمل على التضييق على حياتهم وكبتهم داخل المجتمع، كما بدأت سلسلة الاضطهادات والتنصير؛ مما جعل هؤلاء يثورون على هذا الحكم الظالم، وكانت ثورة البشرات (1568م – 1571م) التي كان من أسبابها ظلم محاكم التفتيش التي تم إنشاؤها عام 1483م (لملاحقة المارقين عن

الدين المسيحي).

ولن ينس التاريخ القس الجزار «توماس دي تركيمادا» الذي عين مفتشًا عاما لهذه المحاكم التي باشرت أفظع جرائم الإنسانية في حق هذه الأقلية العزل.

أما أهم ما نستخلصه من حرب غرناطة (15681571م) فمنها أنه يجب النظر إلى حرب غرناطة وفهمها على أنها المحاولة الأخيرة للحفاظ على الفروق الثقافية والدينية للبيئة المحيطة. أما هزيمة الثوار فتعتبر الخطوة الأولى التي قامت بها إسبانيا في إفناء هذه الأقلية. في الوقت نفسه تعتبر إسبانيا هزيمة الثوار بالنسبة للمسيحيين نهاية موقف خاطئ في بلد يعتبر معقلًا للمسيحية.

لقد أدت الحرب إلى تأصيل التطرف؛ فأصبح الموريسكي يشعر بأنه أكثر إسلاما محاولًا الهجوم وتدمير آله أعدائه والدفاع عن دينه. وفي النهاية تم نفي سكان غرناطة وتوزيعهم وتشتيتهم على كل أنحاء إسبانيا. لقد أشير للملك فيليب الثالث أن الموريسكيين لا يزالون مشدودين بالحنين إلى ماضيهم أكثر من رغبتهم في الاندماج في الديار الكاثوليكية، ما يدفعهم في المستقبل إلى التحالف مع المغرب والدولة العثمانية التي أصبحت سيدة البحر الأبيض المتوسط، وكانت سفنها تغير على شواطئ شبه الجزيرة الأيبيرية. كما رغب الملك فيليب الثالث في وضع حد لضغط بابا الفاتيكان، ناهيك عن الاتهامات الرائجة في باقي دول أوروبا التي تعتبر إسبانيا الدولة الكاثوليكية الوحيدة التي تعيش بين ظهرانها أقلية مسلمة؛ ومن ثم أخذ قرار الطرد. ووفقًا لما ذكرته بعض الكتابات الإسبانية فإن قرار وعملية الطرد للأندلسيين تمثل أول تصفية عرقية ودينية تشهدها أوروبا.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1 – **أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفي 914هـ 1509م**: المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ج2.

2 – **المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد المقري المتوفى 1041هـ 1631م)**: أزهار الرياض العولمة أخبار عياض، ضبط وتحقيق وتعليق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ عبد الباري، ج3، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1940، ج1، ص 69 71 78 79 120.

3 – **المؤرخ المجهول**: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق: حسين مؤنس، ط1، مطابع الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1991، ص 118، 123، 154.

المراجع العربية:

1 – **أسعد حومد**: محنة العرب في الأندلس، ط2، بيروت 1988، المؤسسة العربية للدراسات، ص902.

2 – **جمال يحياوي**: سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492 – 1610م، دار هومة، الجزائر2900، ص219.

3 – **جمال عبد الرحمن**: مقدمة كتاب ميكيل دي أيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، مرجع سابق، هامش ص69 – 70.

4 – **حسن مراد**: تاريخ العرب في الأندلس، دار الفرجاني للنشر، القاهرة 1984.

5 – **حنيفي هلايلي**: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي، دار الهدى، الجزائر2010.

6 – **شاكر مصطفى**: موسوعة دول العالم الإسلامي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت 1993، ج2.

7 – **عادل سعيد بشتاوي**: الأندلسيون المواركة، دار أسامة للنشر، ط1، القاهرة 1983.

8 – **عبد الرحمن علي الحجي**: محاكم التفتيش الغاشمة، وأساليبها، ط1، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت 1987.

9 – **محمد رزوق**: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 17، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991.

10 – **عبد الله حمادي**: الموريسكيون الأندلسيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492 – 1616م)، الجزائر 1989.

11 – **عبد الواحد ذنون طه**: حركة المقاومة العربية الإسلامية بالأندلس بعد سقوط غرناطة، بغداد 1988.

12 – **علي مظهر**: محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وفرنسا، مطبعة أنصار السنة المحمدية، القاهرة 1947.

13 – **علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني**: انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان2005، ط1.

14 – **ليلى الصباغ**: ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ أواخر عام 1568م والدولة العثمانية، مجلة الأصالة، عدد27، الجزائر، 1975م، ص117. ولقد ذكرت ما أورده المقري: أزهار الرياض، المصدر السابق، ص109.

15 – **أمحمد ابن عبود**: مباحث في تاريخ الأندلس، منشورات عكاظ، الرباط 2001.

16 – **محمد رزوق**: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 – 17، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991، ص85، 86..

17 – **محمد عبد الله جمال الدين**: المسلمون المنصرون، دار الصحوة للنشر، القاهرة 1991.

18 – **محمد عبد الله عنان**: دولة الإسلام العولمة الأندلس العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص17، الطبعة الرابعة، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة 1997.

19 – **محمد عبده حتاملة**: التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد فيليب الثاني (1527 1598)، عمان الأردن 1982م.

20 – **محمد علي قطب**: مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، الناشر دار الكتب المصرية، القاهرة1985، ص116.

21 – **محمد قشتيلو**: الموريسكيون في الأندلس وخارجها، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ط1، الرباط المغرب2008

22 – ــــــــــــــ : حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، الطبعة الأولى مطابع الشويج تطوان،2001 م.

23 – ــــــــــــــ : محنة المورسكوس بإسبانيا، مطبعة الشويخ، تطوان 1980..

24 – **مولاي أحمد الكامون هاشم السقلي**: التأثير المورسكي في المغرب، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المغرب 2010.

25 – **وائل علي حسين**: محاكم التفتيش والمسؤولية الغربية مجلة الراية العدد 186 بيروت 1982م.

المراجع المترجمة إلى اللغة العربية:

1 – **بدرو لونغاس**: حياة الموريسكيين الدينية، ترجمة وتحقيق: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2010، ص34، 35.

2 – **جوزيف بيريز**: التاريخ الموجز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، ترجمة: مصطفى أمادي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط1، 2012، ص61.

3 – **دومنيغيث أورتيث – برنارد فينسينت**: تاريخ الموريسكيين، مأساة أقلية، ترجمة: عبد العال صالح، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2007.

4 – **فريدريش إيدلماير**: مصير مسلمي إسبانيا في العصر الوسيط، ترجمة: مؤنس مفتاح، مجلة الثقافة العربية، عدد 460، الرياض، مارس 2015، ص83.

5 – **لي هنري تشارلس**: العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ترجمة حسن سعيد الكرمي، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1988، ص132.

6 – **ليفي بروفنسال**: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، مكتبة دار الحياة، بيروت لبنان.

7 – **ليونارد باتريك هارفي**: تاريخ المورسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، ضمن أعمال الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1998، ج1، ص114.

8 – **لوي كارديك**: حياة الموريسكيين الدينية، عامل تماسك لطائفة كانت تشكل أقلية في إسبانيا في القرن 16م، في: محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، وزارة التعليم والشؤون الدينية، عنابة الجزائر، 1976، مج 3، ص882.

9 – ـــــــــــــــ : الموريسكيون المسيحيون والأندلسيون – المجابهة الجدلية (1492 – 1640) مع ملحق لدراسة عن الموريسكيين في أمريكا، ترجمة وتقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية وديوان المطبوعات

الجامعية، الجزائر، تونس 1983.

10 – **مارمول كارباخال** «مصدر»: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ج1، المركز القومي للترجمة، القاهرة2012.

11 – **مرثيديس غارثيا أرينال**: شتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون)، ترجمة: محمد فكري عبد السميع، ط1، المجلس القومي للترجمة، القاهرة 2006، ص132.

12 – ـــــــــــــــ : الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة: جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس القومي للترجمة، القاهرة2003، ص53.

13 – ـــــــــــــــ : محاكم التفتيش والموريسكيون، ترجمة: خالد عباس، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة2004، صـ7.

14 – **ميكيل دى إيبالثا**: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، القاهرة 2005، ص341.

15 – **واشنطن إيرفنغ**: سقوط غرناطة، ترجمة: هلاني يحيى نصري، ط1، مؤسسة الانتشار العربي – لندن 2000م.

المراجع الأجنبية:

- Anne Marie Joseph Albert، **circout; Histoire des mores Mudejares et des morisques ou des Arabes d، Espagne sous la domination des chretines**، paris 1846، T3 note2، p25

- F. Braudel, **La Mediterranee et le monde mediterraneen a l, époque de philippe ll**: 4Ed Armand. Colin paris 1979, T. ll,

- Louis Viardot، **Histoire des Arabes et des mores** d،Espagnem etition paris pagnerre 1851 T1، p37.

الفصل الرابع
الحضارة الإسلامية في الأندلس، جسر التواصل بين الشرق والغرب

تمهيد:

أجمع العلماء على أن الحضارة الإسلامية تحتل مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرى التي ظهرت في تاريخ البشرية، كما أنها من أطول الحضارات العالمية عمرًا، وأعظمها أثرًا في الحضارة العالمية، من خصائص الحضارة الإسلامية أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الكريم أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك؛ كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة إلا الحضارة الإسلامية، فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد..... وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

***

إضاءات تاريخية: خصائص الحضارة الإسلامية تراها في واقع الدول العظمي.

كان من عظمة الحضارة الإسلامية وخصائصها، أن الجميع كان يعيش في كنفها وتحت رعايتها، لا تمييز بين عرق وعربي وأعجمي أو بين لون وآخر، إنما كان معيار التقوى والكفاءة والإيمان بالقضية وهو معيار التفوق، فتميزت، وأصبح العظماء عظماء عندما صلح وحسن إسلامهم، فعمر بن الخطاب عندما أصبح أمير المؤمنين والفاروق بعد أن كان عمير ومن أهل الندوة والكفر، وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وإلخ، أصبحوا أسيادنا عندما أخلصوا لربهم ولدينهم، فاليوم أمريكا واليابان والدول المتقدمة تأخذ بهذه الخاصية، فمعامل أمريكا معظمها من الأجانب بل والأعجب من الدول الإسلامية التي تحاربها أمريكا، فأمريكا تأخذ بكفاءة الفرد وتعينه وتنسى جنسه ولونه وعرقه فالمعيار التفوق، فنجحوا وأصبحوا دول عظمى، ونحن تركنا ديننا وحضارتنا وأهلكتنا العصبية والقومية، فأصبحنا دول عالم ثالث بعد أن علمنا الدنيا بأكملها، وأصبحوا هم دول العالم الأول، فالسبيل في منهجنا وقضية الإسلام.

***

وإذا كانت الحضارة الرومانية قد اشتهرت بالطرق التي تربط بين أرجاء الإمبراطورية، فإنها قد عرفت كذلك بالحواجز التي أقامتها بين الفئات المختلفة من رعاياها، إذ فرقت في الحقوق بين سكان روما وسكان سائر إيطاليا ثم بين الرومان وسائر رعايا البلاد المفتوحة، وبين الذين خضعوا للإمبراطورية ومن كانوا خارجها الذين أطلقت عليهم «برابرة».

ولكن من عظمة الحضارة الإسلامية، أنها قد أزالت الحواجز والمسافات بين البشر وأمامهم على الأرض سواءً بسواء، وكانت مراكز البريد تعين على التنقل في أرجاء دار الإسلام المترامية، ووجدت «الأربطة» أو «الرباطات» بفعل الجماعة

ذاتها فيما بعد تستضيف العابرين وتقدم لهم ولدوابهم الطعام والمأوى، ويذكر الإصطخرى الجغرافي المسلم مثلًا عن مسلمي ما وراء النهر: «وأما سماحتهم فإن الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه داخل دار نفسه...»، وهكذا أزالت الحضارة الإسلامية الحواجز النفسية والمكانية بين أبنائها في مختلف أنحاء العالم فكانت بحق إنسانية عالمية.

⏮ وهي حضارة إنسانية:

تقرر العدل والمساواة بين الناس دون النظر إلى ألوانهم أو أجناسهم، فبعد أن أعلن القرآن مبدأ المساواة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أصبحت عدالة الإسلام وحضارته للإنسان بإطلاق أيًا كان أصله العرقي، واللغوي، أو طبقته، أو عقيدته.

***

⏮ إضاءات تاريخية: عظمة الحضارة تكمن في كلام ومواقف نبي الأمة لا في كلام زعماء الحضارة الحديثة.

وقد وقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حجة الوداع ليعلن في خطابه الخالد: (الناس من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى). ولم تكن هذه المساواة لتقف عند حدود المبادئ التي تعلن في مناسبات متعددة، كما يقع من زعماء الحضارة الحديثة اليوم بل كانت مساواة مطبقة تنفذ كأمر عادى لا يلفت نظرًا، ولا يحتاج إلى تصنع أو عناد، فقد نفذت في المساجد حيث كان يلتقي فيها الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله – عز وجل – والخشوع بين يديه، ونفذت في الحج حيث تلتقي العناصر البشرية كلها من بيضاء وملونة على صعيد واحد وبثياب واحدة من غير تمييز بين أبيض وأسود أو استعلاء من البيض على السود، بل إننا لنجد ما هو أسمى من هذا، فلقد أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بلالا الحبشي يوم فتح مكة أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ويعلن كلمة الحق، والكعبة هي الحرم المقدس عند

العرب في الجاهلية وهي القبلة المعظمة في الإسلام. ولم يرض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأبى ذر وهو من أكرم صحابته أن يسب آخر فيقول له يا ابن السوداء، بل قرّعه، وقال له: (أعيرته بسواد أمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية!) وهذا حد فاصل بين العلم والجهل، بين الحضارة الإنسانية والحضارة الجاهلية.

***

ولقد كان في الحضارة الإسلامية المتميزون في كل ميادين العلم والأدب وهم سود البشرة، لم يمنعهم سوادهم أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفاء كالشاعر نصيب أو علماء أجلاء يتخرج على يديهم الألوف من البيض كالفقيه الجليل عطاء بن أبى رباح. وفي تاريخنا عشرات المواقف والأمثلة للمساواة العنصرية في ظل الحضارة الإسلامية.

تميز الدين الإسلامي عن غيره، بأن النبي جاء بدعوة خاتمة لكل الرسالات والدعوات، ونزل القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمنًا عليها, وجاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – كخاتم المرسلين بالرسالة العالمية الجديدة للبشر كافة والعالمين أجمعين، لذلك؛ فقد اقتضت عالمية الرسالة الخاتمة أن تكون جامعة مانعة جامعة لكل خير يحتاج إليه الإنسان في دنياه وأخراه، ومانعة لكل ما يؤذيه ويكدر صفو حياته ويعطل سيره لأخراه، فجاء الإسلام بدعوة دين ودولة ودعوة حياة اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية ووضع أسس العقيدة النقية ونظم العلاقات على كل المستويات لتنتج لنا في النهاية مجتمعًا مسلمًا متميزًا في كل شيء عقديًا وسلوكيًا وأخلاقيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وفكريًا وحضاريًا.

ومن أبرز ما تميزت به الحضارة الإسلامية والتي تمثل تفاعل كافة القيم والتعاليم الإسلامية مع المجتمع البشري هي تلك النظم التي قامت عليها تلك الحضارة الإسلامية والتي شملت أمور الحكم والإدارة والسلام والحب والاجتماع والاقتصاد وكل ما يتصل بتنظيم أمور الدولة المسلمة التي هي المحتوي

العلمي لقيم الحضارة الإسلامية، ومن هنا نعرض مثالا حقيقيا وواقعيا لعظمة هذه الحضارة وما قدمته للإنسانية، فسنسقط هذا العرض على حضارة الإسلام في الأندلس.

* * *

⏮ إضاءات تاريخية: قالوا عن مدنية الإسلام.

كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط، وإن الدين الحق الذي وجدته يسير مع المدنية أينما صارت هو الإسلام.. ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات ومناهج علمية وقوانين اجتماعية، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ، وإذا طلب مني أن أحدد معنى الإسلام، فإنني أحدده بهذه العبارة (الإسلام هو المدنية). المؤرخ الإنجليزي ويلز.

* * *

الحضارة الإسلامية في الأندلس:

⏮ تمهيد:

بلغت الحضارة الإسلامية في الأندلس مستوًى متقدمًا ومتطورًا قلّ نظيره في زمانه؛ حتى غدت في كثير من الأحيان مقصد العلماء والأدباء والمثقفين، وقبلة طلاب العلم من العالم الإسلامي، وكانت مقصد المتعلمين المتنورين من أوروبا المسيحية، يتعلمون من علومها، عائدين به إلى بلدانهم التي عانت في تلك المراحل من ظلام الجهل، ومحاربة العلم وأهله، كما هو حالنا الآن نذهب إلى بلدهم ونفتخر بشهادتهم، هكذا هو التاريخ يكون كالدائرة المغلقة، الكلمة لمن يعتبر وتعلم منه.

سيطر المسلمون على أغلب مناطق الأندلس وصولًا إلى جنوب فرنسا، وأثناء عهد الولاة دخلت أعداد كبيرة من السكان الأصليين في الإسلام، وبقي من بقي على دينه متعايشًا مع المسلمين مشاركًا لهم في حياتهم التي تطورت حتى صار

لها طابعها الخاص المتفرد المختلف عن باقي الأقاليم الإسلامية، والمتميز بتنوعه وشموله اجتماعيًا وثقافيًا وفنيًا وعلميًا وأدبيًا.

العصر الذهبي

مع وصول الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل الفار من ملاحقة الدولة العباسية له، عرفت الأندلس الاستقرار، وأسس لحكم الأمويين في الأندلس، الذي استمر بين عامي 756 و1031، وكان من أهم أسباب نجاح المسلمين في الأندلس هي الشروط المتسامحة للأهالي عند التسليم، وهو ما وجد فيه الأهالي راحتهم وأمانهم، وجعلهم يشعرون بالطمأنينة التي فقدوه مع الحكم القاسي للغزاة القوط، وساهم في بناء حضارة تشاركية ومتكاملة على تراب الأندلس.

وكان عبد الرحمن قد أسس إمارة قرطبة ووحد جماعات المسلمين التي شاركت في فتح الأندلس، وفي القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة عاصمة الدولة الأموية في إسبانيا، وكانت معروفة في الشرق والغرب بثرائها وتطورها، كما مثلت جسرا بين الفلسفة اليونانية وأوروبا، وتعرف فترة حكم المسلمين في الأندلس بـ «العصر الذهبي» للعلم، إذ انتشرت المكتبات والمعاهد العلمية والحمامات العامة وازدهر الأدب والشعر والعمارة وأسهم المسلمون وغيرهم في هذه النهضة الثقافية، وفي بعض الأحيان توصف هذه الفترة أيضا بـ «العصر الذهبي» للتسامح الديني والعرقي بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

***

⏮ إضاءات تاريخية: وجهات نظر المؤرخين العرب والأجانب في عملية الاندماج والتسامح داخل المجتمع الأندلسي.

ولكن بعض المؤرخين يعتقدون أن هذه فكرة مبالغ فيها، وقد تدفع بعض القراء للاعتقاد بأن الأندلس في العهد الإسلامي كانت متسامحة بمعايير بريطانيا القرن الحادي والعشرين، ويقول في ظل الحكم الإسلامي تمتع اليهود والمسيحيون

ببعض الحرية بشرط طاعة الحاكم، وبصفة عامة كان غير المسلمين في إسبانيا الإسلامية يعاملون أفضل من غيرهم من الشعوب التي تعرضت للغزو في ذلك الزمن، ومن مظاهر ذلك: لم يفرض عليهم العيش في أحياء خاصة «كالذي فعلته أوروبا مع اليهود وأسكنتهم في جيبوتات» لم يستعبدوا ولم يمنعوا من ممارسة شعائرهم الدينية ولم يجبروا على التحول للإسلام ولم يمنعوا من ممارسة أي عمل يريدونه وتميزوا في مهن بارزة مثل الصرافة وتجارة الذهب والفضة وعملوا في دواوين الحكام المسلمين وساهموا بشكل إيجابي في الثقافة والمجتمع.

وتقول وجهة النظر الأخرى عن العصر الذهبي لغير المسلمين في إسبانيا الإسلامية أن اليهود والمسيحيين كانوا يعيشون في حالة «أهل الذمة»، والذمي لم يكن عبدا، ولكن ليس له حقوق مكافئة لحقوق المسلم، وكان غير المسلمين ينعمون بالتسامح في إسبانيا الإسلامية إذا التزموا بالتالي: الاعتراف بالسيادة الإسلامية وقبول الحكم الإسلامي ودفع ضريبة الجزية للحكام المسلمين، وهي أعلى قيمة من الضرائب الأخرى وعدم استمالة المسلمين لدينهم والالتزام بالقيود المفروضة على بناء الكنائس والمعابد وعدم حمل السلاح ولا يمتلكون عبيدا من المسلمين ولا يرثون المسلمين، وكان كثير من المسيحيين في إسبانيا قد اندمجوا في الثقافة الإسلامية حيث تعلم بعضهم العربية وارتدى بعضهم ملابس الحكام بل وارتدت بعض المسيحيات الحجاب وبعضهم حمل أسماء عربية. وقد حمل المسيحيون الذين اندمجوا في الثقافة العربية اسم الموزاراب أو المستعربين، وإذا دققنا في هذا نجد أن الغرب وحضارته الحديثة لم تفعله إلى الآن أو بدرجة متفاوتة، ويتم التعامل مع الأقلية المسلمة بطريقة مختلفة مع باقي الأقليات ويتم التضييق عليهم وعلى عاداتهم وشعائرهم، وتوصل في بعض الأحيان للاضطهاد كالذي يحدث في الصين وجورجيا وميانمار... إلخ.

❊ ❊ ❊

الحياة العلمية وتطورها في الأندلس:

في بدايات الحضارة الإسلامية في الأندلس كانت الحياة العلمية متأثرةً بالحالة العلمية في باقي الأقطار حيث صبت أغلب اهتمامها في دراسة الطبيعة وأحول الكون؛ لتنتقل بعد ذلك العقلية العربية من الإيمان بالماورائيات «الميتافيزيقية» نحو النزوع الفكري العلمي في سبيل إدراك الحقائق، ولا سيما في العلوم البحتة كالفلك والحساب والفلاحة، وبالرغم من إدراك المفكرين العرب أن الإنسان لا يمكنه أن يصل إلى المعرفة المطلقة التي تمكنه من الإجابة عن جميع الأسئلة؛ إلا أنهم آمنوا أن الإنسان بإمكانه أن يصل إلى أقرب نقطة من بؤرة الحقيقة.

وبهذه الخطوات ولتطور الفكري لدى المسلمين، وبالبحث عن الحقيقة والملاحظة، أخذ علم الفلك القائم على الحساب والمشاهدة والتجربة الدقيقة يبتعد عن أفكار التنجيم القائم على التوهم، واقترن علم الفلك بعلم الأرقام والحقيقة، ونقل العرب للأندلس الأرقام الهندية التي تعرف بالأرقام العربية، وألغي العمل بالأرقام اللاتينية الرومانية، وهي التي تعود بأصلها إلى ترتيب أحرف الهجاء، وبسبب إرسال السفارات والمعاملات التجارية انتقلت هذه الأرقام إلى أنحاء أوروبا.

***

⏮ إضاءات تاريخية: علماء عرب وضعوا علوم علم الفلك، فأين نحن الآن من هذه العلوم؟!

برع في مجال الفلك في ظل الحضارة الإسلامية في الأندلس عدد لا يحصى من العلماء، على رأسهم أبو القاسم المجريطي صاحب كتاب «رسالة في الإسطرلاب» وقد أنجب المجريطي عددًا من التلاميذ الذين بنوا المدارس ودور العلم، ونبغ منهم أبو السمح الغرناطي، وابن الصفار الذي برع بالفلك والرياضيات، وكذلك المهندس المعروف عبد الرحمان بن زيد الذي اشتهر بالفن المعماري والفيزياء، وتبعهم الزرقالي القرطبي الذي قام بأكثر من 400 عملية رصد فلكي؛

بهدف تحديد أوج الشمس، ومحاولة الضبط الدقيق لنقطة الاعتدال الربيعي، وغيرهم الكثير من الأسماء التي قدمت التجارب وألفت العديد من الكتب، ولا بد في خضم الحديث عن علم الفلك في ظل حكم الحضارة الإسلامية في الأندلس أن نذكر صاحب التجربة الأولى في الطيران، العالم عباس بن فرناس الشهير في مجال الفلك والكيمياء والفيزياء، وهو الذي شرح آلية طيران الطائر، وقام بتجربة الطيران الأولى بمساعدة ثوب اخترعه من الحرير والريش، فتسنى له الطيران لمسافة اختلف العلماء في تقديرها مع إقرارهم بطيرانه وتحليقه قبل أن يسقط حين حاول الهبوط، وقدر له بعدها أن يعيش ليشرح أسباب سقوطه، مؤكدًا أن عدم وجود الذيل في ذلك الثوب كان من أهم الأسباب، هكذا هي الحضارة الإسلامية فهي من وضعت الخطوط العريضة لأهم علوم هذا الزمان، بل لأهم علوم يفتخر بها أصحاب الحضارة الحديثة أنهم وصلوا لهذه العلوم وأبدعوا فيه وتناسوا فضل علماء المسلمين عليهم الذين أناروا لهم الطريق.

ولكن للحقيقة من حقهم أن يفخروا؛ لأنهم ابتدأوا من حيث انتهينا، وأخذوا يطوروا أفكار علماء المسلمين حتى نجحوا، أما نحن وقفنا في مكاننا نجادل لا نقرأ، ندعي العلم ونستهلك فقط ما ينتجون، فأصبحنا من أمة منتجة علم وحضارة إنسانية إلى أمة مستهلكة، وسوقًا للغرب، ومنتجة حضارة من الحجارة والسفاهة، وحتى عندما أردنا أن نطور لم نأخذ ما يفيدنا ونعي مثلهم في النقل والتطوير، بل أخذنا ما يفيد هوانا وتركنا ما يفيد نهضتنا وعقولنا، فكم عالم لدينا الآن في معامل العرب ولمسلمين؟ فكم صناعة حيوية تمتلكها الأمة الآن رغم ما تملكه من أموال طائلة؟ فقط نصنع حضارة الأحجار وننسى حضارة الإنسان والفكر، فأما هم فطنوا لما فطنت إليه الحضارة الإسلامية السابقة، فنجحوا حيث كان الأصل هو الإنسان ورقيه ووعيه وعلمه، وليس الحضارة بالحجارة وشكلها وعلوها.

***

ومنذ بدايات الحضارة الإسلامية في الأندلس خطت جميع العلوم الزراعية خطوات كبيرة، ولا سيما في صناعة النسيج الحريري ومجالات المحاصيل الغذائية، وامتد أثرها إلى أنحاء أوروبا، وقوي هذا المجال بمؤازرة العلماء المختصين بالأعشاب الطبية والأدوية؛ حيث كانت فنون الصيدلة وعلوم الطب تشهد تطورًا كبيرًا بمختلف اختصاصاتها، حتى صدرت عن بعض العلماء كتب ورسائل في جوانب محددة متخصصة، وبلغ الطب أوجه في الحضارة الإسلامية في الأندلس أثناء القرن السادس الهجري حين جمع علماء الطب مع علوم الفلسفة والأمور النفسية، وباتوا يقرنون العلوم الكونية كالطب بمتعلقاتها الإنسانية، كما اعتنى الأندلسيون بالطب الباطني والطب الوقائي.

***

⏮ إضاءات تاريخية: كان لدينا حضارة حقيقية وعلوم علمية وإنسانية عندما كان لدينا علم وعلماء ودولة ترعى هؤلاء.

من علماء الأندلس الذين اشتهروا في علوم الزراعة أبو الحسن القرطبي وعبد الرحمن بن وافد الذي كان مشرفًا رسميًا على الحدائق الملكية في قرطبة، وذاع صيت العالم والأديب أبو بكر الإشبيلي، وتلميذه أبو زكريا بن العوام، وتطول قائمة العلماء الذين برعوا في فنون الصيدلة والطب، ومنهم أبو جعفر الغافقي مؤلف كتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «المرشد في الكحل» عن طب العيون، وكذلك اشتهر ضياء الدين ابن البيطار صاحب كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية»، وهو موسوعة طبية مرتبة على أحرف الهجاء، وفي الأندلس لمع اسمُ واحدٍ من أعظم أطباء المسلمين وهو أبو القاسم الزهراوي الذي حقق إنجازات لا تحصى في فن الجراحة وطب النساء والحمل والولادة، وإزالة الأورام، ووصف مرض الناعور، واستخراج الحصى، وخياطة الجروح بالخيوط الحريرية، وله الفضل في اختراع عدد كبير من أدوات الجراحة التي لا تزال تستخدم حتى اليوم، كنا أمة سباقة في كل شيء، عندما عملنا لقضية أنا مسلم وأفتخر بديننا،

فكنا نحيا لهدف وقضية عامة، أما الآن فنعيش لقضية الحياة وقضايانا الشخصية، فأصبح لدينا فقر في كل شيء، حتى في إدارة أنفسنا وأوطاننا، بالعلم وقضية الدين وبحلم كل شخص لأمته ولعقيدته - لا لحلم نفسه - نحيا وتعود أمجادنا وعلمنا من جديد، فلنتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الإثم والفسوق والعدوان.

***

شهد الأندلس تطورًا كبيرًا في مجال العلوم الإنسانية أيضًا، وعلى رأسها الفكر التعليمي الذي لاقى دعمًا كبيرًا من الحكام الذين اهتموا باللغة والشعر والفلسفة والمناهج الدراسية، فوضعت الشروط التي يجب توفرها في المعلمين كالتقوى والأمانة العلمية، كما تطور الفكر التأريخي الإبداعي الذي جمع بين العقل والنقل، وخرج علم التاريخ من الثوب الديني مفسحًا المجال إلى المؤرخ التاجر والمؤرخ الطبيب والمؤرخ الفيلسوف، وعلى هامش هذا تطور فن الرحلات، ووصفها الدقيق للجغرافية والمدن وطبائع المجتمعات.

***

⏮ إضاءات تاريخية على واقع حضارتنا اليوم:

كانت حضارة إنسانية فعلمت الدنيا كلها، وعندما خرجت هذه الحضارة من صفة الإنسانية، ظهر لنا الفساد في البر والبحر، ظهر لنا المعلم الموظف والطبيب الموظف والمهندس الموظف والمؤرخ الهاوي والموظف، تحولت المهن الإنسانية التي تساهم في إرساء إنسانية الإنسان ورحمته وتنويره، إلى مهن تساهم وتدعم تجهيله وتعلمه الانحطاط وغياب الأمانة والخلق باسم نيل الدرجات والشرح فخاطبت جوارحه قبل عقله لتخرج لنا موظفين لا أهل علم، ومن مهن ترحم وتخفف معاناة الإنسان إلى مهن تذله وتأخذ ما في جيبه، ومن مهن تنقل الحقيقة وتبرز الحدث وعظمة الأمة وقادتها إلى مهن تساعد المستعمر في نشر الجهل وتضليل الشعوب وتغيبهم، هكذا الفرق بين الحضارة الإسلامية الإنسانية وبين حضارة

الاستبداد المكملة لنهج وفكر المستعمر، فعندما تركنا الأخذ بمنهج ديننا وغابت إنسانيتنا أصبح يحكمنا هوانا وقانون الغابة.

***

شهد الأندلس تطورًا كبيرًا في مجال الأدب، حيث ازدهر الأدب ازدهارًا كبيرًا بشقيه النثري والشعري في مختلف العصور السياسية الأندلسية، ففي النثر اشتهرت بدايةً الكتابات الرسمية التي سجلت الغزوات وأخبار الفتوحات، واتكأت في كثير من ملامحها على الأسلوب الديواني المشرقي، كما تطورت الكتابات الوصفية، ولا سيما في المقارنة بين المدن وأنواع الزهر، وكذلك تطورت الكتابات الذاتية، ومنها فن الرسائل المتبادلة بين الأدباء والسلاطين والوزراء وتسمي «الأخوانيات»، وقد اعتنى أغلب الكتاب بظاهرة الزينة اللفظية وفنون البديع إلا قليلًا ممن فضلوا الكلام المرسل السهل، ومن أهم الأدباء الذين اشتهروا في فنون النثر من خطابة ومقامة ومناظرة وغيرها ابن عبد ربه صاحب كتاب «العقد الفريد»، وابن الشهيد صاحب «رسالة التوابع والزوابع»، وابن سيدة صاحب «شرح مشكل أبيات المتنبي»، وابن الزيدون الذي افتن برسائل الغزل وبالرسائل الهزلية.

وكان الشعر من أبرز مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس، حيث تفنن الأندلسيون في مختلف الأغـراض، وتميزوا بأغراضهم التي ناسبت ظروف الأندلس من الفتح إلى الانهيار، من ذلك الأراجيز العلمية والمنظومات التي أرخت أحداث الفتوح والغزوات، ثم الشعر الذي يتحدث عن أمجاد الحضارة الإسلامية في الأندلس، وبرع الأندلسيون بالشعر التعليمي، ووصف الطبيعة، ثم برعوا في رثاء المدن الزائلة والممالك التي سقطت بيدي الإسبان، وأبدعوا في فن الموشحات الذي اقترن بفنون الغناء والموسيقا، وقد اشتهر من الشعراء بداية عدد من الأمراء الأندلسيين كعبد الرحمن الداخل، ومن العامة يحيى بن الحكم الغزال، وفي عهد الخلافة ابن عبد ربه وجعفر المصحفي، ثم في باقي العصور اشتهرت أسماء كثيرة كابن هانئ الأندلسي، وابن زيدون، ومن الأمراء المعتمد بن عباد،

واشتهر من النساء ولادة بنت المستكفي، وفي عهد المرابطين ابن خفاجة والأعمى التطيلي الذي نبغ في الموشحات، وفي عصر الموحدين الرصافي البلنسي، وابن مرج الكحل، واشتهر أبو البقاء الرندي في رثاء المدن ولمع في العصر الأخير اسم الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي ترك أكثر من 60 مؤلفًا شعرًا ونثرًا.

وازدهر الغناء الذي بدأ ترفًا في قصور الملوك والأثرياء الذين استقدموا المغنين والقينات «الإماء المغنيات»، ثم دخل الغناء والموسيقى في الطقوس والتقاليد الشعبية ليتحول بعدها لطابع أندلسي بحْت جمع مختلف أساليب الطرب والموسيقى الحجازية والشامية والعراقية والمغربية والزنجية والمسيحية الكنائسية، واشتهر من المغنين علي بن نافع المعروف بـزرياب الأندلسي، وابن باجة، وابن أبي الصلت الأندلسي الذي أسس مدرسة للموسيقى ومن النساء قمر البغدادية وقلم الباسكية وصبح البشكنجية.

فن العمارة الإسلامية في الأندلس من أعظم مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس فن العمارة الذي لا يزال شاهدًا على عظمة تلك الحضارة التي استمرت مئات السنين، وقد أولت جميع العصور الأندلسية اهتمامًا كبيرًا قل نظيره في جميع مجالات العمران كدور العبادة، وما فيها من قباب ومقرنصات إسلامية ومآذن، ومن أبرزها مسجد قرطبة، وكذلك القصور المشهورة بالحدائق ونوافير المياه والصالونات الفريدة المرخمة والجدران المزخرفة والغرف والإسطبلات، ومن أهمها قصر الحمراء في غرناطة، وتشهد على حرفية المهندسين وخبراتهم العظيمة مدن بأكملها كمدينة الزهراء وقرطبة وغرناطة وإشبيلية بكل ما في هذه المدن من مبانٍ ودورٍ للسكن وحدائق وأسواق ومدارس ومكتبات ومستشفيات.

***

إضاءات تاريخية: قالوا عن حضارة الإسلام وعظمته فافتخر أنك من هذه الأمة وتدين بهذا الدين.

إن حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية في عالم

الإنسانية، فلقد كان العرب أساتذتنا.. وإن جامعات الغرب لم تعرف موردًا علميًا سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدنوا أوروبا مادةً وعقلًا وأخلاقا، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه.. إن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها.. وإن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.. فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل: حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان.. ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيرًا من أخلاق أمم الأرض قاطبةً. جوستاف لوبون.

***

كانت المدن الأندلسية بمثابة الأسواق الدولية في الوقت الحاضر، وذلك طيلة فترات حكم الحضارة الإسلامية في الأندلس، وقد تنقل التجار بحرية كبيرة بين المدن، وعلى طول الطرق البرية والبحرية مع بلاد المغرب وإفريقيا، وكذلك مع المشرق الإسلامي، واشتهر التاجر الأندلسي بالسلع التي تصنع في الأندلس، وعلى رأسها الصناعات الزراعية كالخشب، وخيوط الحرير الأندلسية، وزيت الزيتون، كما ازدهرت تجارة الجواري اللائي يقعن في الأسر، ويستقدم التاجر الأندلسي من إفريقيا والمشرق مختلف أنواع البضائع كالتوابل والصوف والحبوب، وازدهرت تجارة الكتب والمؤلفات بين الأندلس والمغرب مع انتقال أعداد كبيرة من علماء المشرق للأندلس أو العكس، وشهدت موانئ الأندلس تطورًا كبيرًا مع تطور صناعة السفن.

المجتمع الأندلسي وعلاقته بالشعوب الأوروبية تتبع شبه الجزيرة الأيبيرية جغرافيًا لقارة أوروبا، وهو ما كان سببًا كافيا لتأثر الحضارة الإسلامية في الأندلس بكثير من المكونات الأوروبية مع حفاظها على الإرث الأكبر الذي نقلته من بلاد المسلمين، ولا سيما بلاد المغرب وشمال إفريقيا، وكل هذا جعل للأندلس انتماءً مزدوجًا خلق مجتمعًا متميزًا ومركبًا في علاقاته الداخلية والخارجية، وقد تكون المجتمع الأندلسي من خليط كبير انصهر وتمازج وتعايش لسنين طويلة، فالمكون

العربي تشكل من قبائل عديدة توافدت إلى الأندلس أيام الفتح وفي العصور اللاحقة، يضاف إليه المكون المغربي الإفريقي المتمثل بقبائل البربر التي شاركت بالفتوح، ثم ازدادت في عصر المرابطين والموحدين، وقد تمازج المسلمون عمومًا مع المكون الأوروبي تمازجًا كبيرًا وفيهم الإسبان والقوط والرومان والفاندال والجرمان، وجماعات من اليهود ومن غير اليهود استفادوا جميعهم من الفتح الإسلامي الذي أعاد لهم حقوقهم التي نهبها حكام الدولة القوطية.

***

⏮ إضاءات تاريخية: تعلم عندما كانت حضارتنا هي مقصد الغرب ليتعلم وينهال من ثقافتها ليبني.

كانت الحضارة الإسلامية في الأندلس سببًا في دخول أعدادٍ كبيرةٍ من السكان الأصليين في الإسلام، فيما بقي القسم الآخر على النصرانية واليهودية تحت حماية الإمارة الإسلامية، ونتج عن تزاوج العرب بالإسبانيات عنصر جديد يدعى بالمولدين، وقد شكل مع الوقت القسم الأكبر من السكان، وقد حدث شرخ في هذا النسيج في عهد ملوك الطوائف والعهود اللاحقة حتى السقوط، مع وجود عناصر جديدة أخرى هم المدجنون والمستعجمون، وهم المسلمون الذين بقوا في المدن التي وقعت تحت أيدي الإسبان، فاصطبغت ثقافتهم بسمات المجتمع الإسباني، ومنهم من حفاظ على دينه، ومنهم من اعتنق المسيحية، وكانت حصيلة هذا الاندماج احتكاكًا كبيرًا ومتميزًا بين العقيدتين وبين الثقافتين والحضارتين على نحوٍ فريدٍ ليس له مثيل، ولم تنقطع العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بين الأندلس والشعوب الأوروبية رغم الحروب البرية والبحرية الطويلة، وعندما بدأت الصحوة العلمية لدى بعض الفئات الأوروبية لم يجدوا غير بلاد المسلمين يقصدونها لينهلوا من معين علومها وثقافتها.

***

أثر حضارة الأندلسيين المُهجرين في بلاد الشرق:

⏮ الأندلسيون في المجتمع المصري:

وقد كان المُهجرون من أبناء الأندلسيين المضطهدين، يأتون إلى سواحل بلاد المغرب العربي كما نص قرار الطرد، ومنها إلى سواحل مصر وبلاد الشام، وكانت الثغور المصرية، وبخاصة الإسكندرية، ورشيد، ودمياط، وأيضًا من المراكز الرئيسية الكبرى، مثل: القاهرة، والمنصورة، والسويس، واندمجوا وتعايشوا مع أبناء المجتمع المصري.

والواقع أن صلة أهل الأندلس بمصر تعود إلى فترة طويلة سابقة على انهيار الدولة الإسلامية 1492م، وعمليات الاضطهاد التي تلتها، ولذا؛ فإن أبناء الأندلس أمّوها حينما حلت بهم محنة الاضطهاد، وفضلوا الإقامة بصفة خاصة بثغر الإسكندرية، على زعم أنها ثغر رباط، أي جبهة قتال، مدفوعين في ذلك برغبة صادقة، في مواجهة أخطار العدو البحري وحث الناس على الجهاد، من أجل استرجاع فردوسيهم المفقود.

كانت الإسكندرية والقاهرة من المراكز التجارية والحضارية المهمة، وكانت مصر أيضًا ممرًا ضروريًا للمسلمين القادمين من المغرب والأندلس لأداء فريضة الحج، إن الموريسكى الحجري بيخارانو في رحلة الحج إلى مكة من المغرب قد مر بمصر، وفي عودته التقى بمفكرين مصريين وكتب بعضًا من مؤلفاته في مصر قبل أن يعود إلى تونس، وقد أرسل نصوصًا جديدة إلى أصدقائه.

⏮ أثر المُهجرين الأندلسيين في المجتمع المصري: اقتصاديا، واجتماعيا، وثقافيا.

من العرض السابق لوثائق محكمة الإسكندرية الشرعية كنموذج لما يحويه أرشيف المحاكم الشرعية المصرية من وثائق، تعتبر مصدرا من المصادر الرئيسية لدراسة أوضاع المُهجرين الأندلسيين، الذين أمّوا بلاد المشرق العربي – ومنها مصر نستطيع أن نؤكد أن هؤلاء المُهجرين كان لهم تأثيرهم في المجتمع المصري،

اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

ففي الناحية الاقتصادية: ثبت لنا أنهم عملوا في المجالات الاقتصادية المختلفة التجارية، والزراعية، واشتغلوا بالمهن المختلفة، ووظفوا رءوس أموالهم في مختلف المجالات الاقتصادية، ولعبوا دورهم في الحياة الاقتصادية المصرية خلال العصر العثماني الأول (1517 – 1798م)، ولا شك أنه كان لهذا النشاط الاقتصادي أثره على المجتمع المصري؛ مما قوى روابطهم بهذا المجتمع، وجعلهم يتعايشون مع أبنائه اقتصاديا، وبرزت آثارهم الاقتصادية فيه.

أما من الناحية الاجتماعية: فقد سبقت الإشارة الى اندماج هؤلاء الأندلسيين اجتماعيا مع أبناء المجتمع المصري، وأبناء الجاليات الأخرى المتواجدة فيه واختلاطهم بجميع هذه الفئات عن طريق التزاوج من ناحية، والاندماج معها عن طريق التعامل اليومي، والاشتراك في الأعمال المختلفة المهنية وغيرها، وتأثرهم بتقاليد وعادات هذه الفئات، ونشر بعض عاداتهم وتقاليدهم، التي أتوا بها من بلادهم بين أبناء المجتمع المصري، إلى حد تأثر المجتمع السكندري بالذات بكثير من العادات والتقاليد الأندلسية والمغربية التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

أما الأثر الثقافي: فهذا واقع ملموس لا يزال قائم حتى اليوم، فالثقافة الصوفية التي انتشرت في الإسكندرية، كانت على يد متصوفة أندلسيين، وكم علم هؤلاء المتصوفة من أجيال، من أبناء المجتمع السكندري، وجميع مقامات الأولياء الصالحين القائمة في الإسكندرية لأولياء من أقطاب المتصوفة الأندلسيين، ومما يدل على تأثير هؤلاء المُهجرين الأندلسيين، أن اللهجة الأندلسية المغربية لا تزال غالبة على أبناء المجتمع السكندري، هكذا نرى أنه كان لأبناء الأندلس الذين أتوا مصر منذ مطلع القرن السادس عشر، على أثر انهيار الدولة الإسلامية فيها عام 1492م، تأثيرهم على مختلف نواحي الحياة في المجتمع المصري بعامة، ومجتمع الإسكندرية بصفة خاصة.

***

⏮ إضاءات تاريخية: أجمل ما قيل في حق مصر وشعبها، ولماذا هي دومًا مستهدفة؟

قال الحجاج بن يوسف الثقفي عن المصريين في وصيته لطارق بن عمرو حين صنف العرب، فقال عن المصريين:

لو ولاك أمير المؤمنين أمر مصر فعليك بالعدل فهم قتله الظلمة وهادمي الأمم وما أتى عليهم قادم بخير إلا التقموه كما تلتقم الأم رضيعها وما أتى عليهم قادم بشرٍّ إلا أكلوه كما تأكل النار أجف الحطب؛ وهم أهل قوة وصبر وجلدة وحمل، ولا يغرنك صبرهم ولا تستضعف قوتهم، فهم إن قاموا لنصرة رجل ما تركوه إلا والتاج على رأسه، وإن قاموا على رجل ما تركوه إلا وقد قطعوا رأسه، فاتق غضبهم ولا تشعل نارا لا يطفئها إلا خالقهم، فانتصر بهم فهم خير أجناد الأرض، واتق فيهم ثلاثا:

1 – نساؤهم فلا تقربهن بسوء وإلا أكلوك كما تأكل الأسود فرائسها.

2 – أرضهم وإلا حاربتك صخور جبالهم.

3 – دينهم وإلا أحرقوا عليك دنياك.

ستظل مصر هي القلب النابض لمصر حتى في أضعف لحظاتها، الكل يرمي عليه اللوم لعظم آمالهم فيها لا من ضعف أصابها، فمصر لم تذكر خمس مرات في القرآن إلا لعظمتها، وعظمة مكانتها، فدومًا تتعلق آمال هذه الأمة على مصر، فهي دومًا الصخرة التي تكسر عليها طموحات العدو، فهي من أوقفت المغول عند حدهم، وهي عندما وجدت القائد الحقيقي وصاحب القضية وسليم العقيدة حررت فلسطين والأقصى، وكذلك هزمت الصهاينة، فمصر دوما بموقعها وامتدادها التاريخي والحضاري وثرواتها الطبيعية والبشرية قادرة على أن تقود الأمة إذا وجدت من يصدق القضية، لذلك؛ يدبر لها الأعداء ليل نهار المكائد حتى لا تقدر على أن تستيقظ، ولذلك؛ يجعلوها دومًا تغرق في ثلاث: الجهل

والفقر والمرض، لأنهم يعلمون إذا استيقظت مصر ستوقظ كل الأمة وتحطم ما بنوه من مستوطنات ونظم استبداد، لذلك؛ يدبرون لها المكائد وقضايا الجدال والخلاف حتى لا تفرغ إلى البناء والنهضة وتكون حصن الأمة والمستضعفين في الأرض كما كانت دومًا.

***

أثر الأندلسيين الحضاري في تونس:

لقد طال نشاط الأندلسيين في تونس جل ميادين الحياة الاقتصادية والفنية والعسكرية وغيرها. ففي الميدان العسكري ساهموا في ازدهار صناعة السفن المستعملة في مجال القرصنة، كما قاموا بتكوين فرق عسكرية (مليشيات) وكذلك خبراء في المدفعية.

⏮ المجال الاقتصادي:

أما المجال الاقتصادي (الصناعي والتجاري) فلم يقل أهمية وإبداعًا عن المجال العسكري والفلاحي، حيث عرف نقلة جديدة بفضل خبرة المهاجرين بإدخال فنيات صناعية وتنظيمية، كانت تأثيراتها بالغة على الحياة الاقتصادية والتجارية، خاصة التجارة الخارجية، بدءًا من تطوير صناعة الشاشية التي احتلت حيزًا كبيرًا من المعاملات التجارية المحلية والمغاربية والتي وصلت إلى مصر. وقد تفنن الصناع الأندلسيين «الموريسكيون» في حسن اختيار ألوانها وصوفها. وتذهب بعض الدراسات إلى أن هذه المهنة قد تعممت في البلاد التونسية، ووصل إنتاجها من خمسمائة ألف إلى مليون قطعة سنوية. وقد أثر ذلك القطاع في صناعة النسيج، وخصوصًا منها المعتمدة على الحرير، وهو ما أطلق عليه البروقار.

اتضح ذلك أيضًا في إبداعات قطع السروج الجلدية الثمينة، والصابون ذي الروائح الطيبة، وصناعة تقطير العطور التي عكست معرفة دقيقة وعميقة بمختلف الأزهار، والتي منحتهم أحقية استخراج أنواع مبتكرة من الروائح

أطلق عليها العطور الأندلسية.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: حكاية على رقي الإنسان عندما يكون متشبعا بالحضارة، فمهما طالته المحن سيظل تحضره ورقيه فيه؛ لأنه تربى عليه.

إن هذا الشعور العالي القيمة بالأزهار دفع إحدى السيدات العثمانيات، وهي عزيزة عثمانة إلى وقف غلة ملك لها، لشراء وتأمين وضع باقة أزهار يومية على قبرها بعد وفاتها، وهو أمر يدل على الرقي، كانت هذه العملية تتم في فصل الربيع، في أغلب القرى الأندلسية، خاصة تلك الموجودة بالوطن القبلي وزغوان، وتتمثل في تقطير الورود كالنسرين والنارنج والعطر شاه، وتحويلها من خلال عملية خاصة إلى سائل، يتم استعماله في صناعة العطور والتداوي والأكل، فمن هنا تعلم: الحضارة ليست أدوات نستعملها ونستهلكها، بل هي أخلاق سامية نوظفها ونطبقها على واقعنا. وتيقن: إن الحضارة لا يمثلها الغرب أو الشرق بل يمثلها الإنسان القادر على تذوق الجمال أينما يراه.»الصادق النيهوم».

❊ ❊ ❊

كما تفنن الأندلسيون في صناعة الزرابي، وتم إدخال أبجديات الطباعة المستجلبة من الخارج، وهو أمر يدل على قدرات الأندلسيين المُهجرين الفنية ومعرفتهم الدقيقة للمهن المهمة. ولا يغيب عنا تنوع إبداعات الأندلسيين في صناعة الخزف والتي عرفت شهرة واسعة جدا في تونس حتى يومنا هذا. وتؤكد وثائق أرشيف فلورنسا أن عددًا من الأندلسيين الذين احترفوا صناعة الخزف كانوا على علاقة مع خزفيين أوروبيين من مارسيليا، وأن بعضهم أقام مصنعًا بمناطق Jurad de Bayonne وBayonne وBiarritz وأن تلك المصانع ظلت قائمة حتى سنة 1806 و1809م.

أما صناعة مختلف أنواع الأسلحة، وصناعة البارود وملح البارود، وبناء

السفن وتجهيزاتها، فغدت هي الأخرى وليدة إبداعاتهم الفنية. بل إن «يوسف داي، باي» تونس، كلف أحد المهندسين الأندلسيين بتوسيع ميناء La Bocco de Quella Fiumara لاستقبال البواخر ذات الحجم الكبير، ولهذا الغرض حفروا أعماق البحر نحو 24 شبرًا. ولا شك أن ذلك كان يتطلب استيعاب أسس وفنيات هذا العلم بدقة متناهية. ولا يغيب عنا في هذا المجال دورهم الفعال في الحركة البحرية ضد الإسبانيين وضد الأساطيل الأوروبية ودعمهم للأساطيل العثمانية بالخبرة الفنية البحرية، وتوفير القيادات العسكرية ذات الكفاءة يومئذ، هذا فضلًا عن تقديم شبكة من المعلومات الصحيحة عن السواحل والموانئ الإسبانية.

كما اشتهر الأندلسيون بالصناعات اليدوية التي أتوا بها من الأندلس، سواء من الجلد أو الخشب أو النحاس. كما تفننوا في صناعة «الشاشية/ الطواقي» المشهورة في شمال أفريقيا. لقد عرفت صناعة الشاشية بالأندلسيين وعرفوا بها، ورغم اختلاف المؤرخين حول أصولها وهل هي أندلسية أو كانت موجودة في تونس قبل قدومهم، فمن المؤكد أن حضورهم أعطى دفعًا جديدًا لهذه الصناعة فنهضوا بها وطوروها وطبعوها بنمطهم الخاص، ولعل من بين أبرز العائلات الأندلسية التي عرفت بحذقها لهذه الصناعة كانت عائلة «**كرباكة**» من مدينة كباكة، وعائلة «**سيدة**» من مالقة، وعائلة «**طروال**» من مدينة تريل، وعائلة «**العروسي**» من جبل الأوراس قرب قرطبة، وعائلة «**ويشكا**» من جهة ويشكا، وعائلة «**القسطلي**» من قرية كاستيا في غرب البرتغال ولورقة والريكاخون والإيريني والكاشو والدرافل، وكذلك عائلة «بالوخة» ذات الأصول الغرناطية العريقة، وغيرها من العائلات الأخرى.

كما ساهم الأندلسيون بحظ وفير في ازدهار الزراعة بتونس؛ لإتقانهم ودرايتهم الكبيرة بميدان ري الأراضي، حيث درس «القفصي» أيضًا قنوات الري التي شقها الأندلسيون في منطقة باتان لتزويد بعض أحياء تونس بالمياه، كما درس علمهم في تلبيد صوف الطواقي، وقاموا بترميم قنوات مائية تنتمي إلى العصر

الروماني والعصر الإسلامي إبان القرون الوسطي. ومن بين الأشغال العامة يمكننا أن نذكر التحصينات العسكرية وتعبيد الطرق للعربات، وإنشاء قناطر على نهر مجيردة وعلى أنهار أخرى تستخدم كطرق اتصال. وترك الأندلسيون المُهجرون وأحفادهم آثارًا معمارية تختلف درجات أهميتها.

***

⏮ إضاءات تاريخية: بصمات وعبقرية حضارة الأندلسيين ستجدها حتى في أوطان المهجر، فكن إنسانا واترك بصماتك في كل حي ووادٍ ووطن تذهب إليه؛ لأنك من أمة أقرأ ومن ثم ابنِ، فلك في هذا مثال:

لقد حملت الأقلية الأندلسية معها إلى تونس تجربة وخبرة نوعية عالية في إحياء الأراضي، تمثلت بادئ الأمر في حسن استغلال المياه عن طريق بناء السدود وإيجاد وتعميم الخزانات والقنوات التي كان يصل طولها إلى 30 كم، وآليات تصريف المياه لسقي الأراضي التي بلغت يومئذ 2500 هكتارًا وفقًا لبعض الدراسات، حيث أحيوا خط جلب المياه زغوان قرطاجنة بطول 75 كم. إن هذه التقنيات الفلاحية العصرية أدخلت مشاتل عديدة وجديدة لزراعة الزيتون، خصوصًا في طبرية، حيث أدى الأندلسيون دورًا مباشرًا في تطويرها. كما قاموا بزراعة قصب السكر، وسجلوا تقدمًا ملحوظًا نتيجة استعمال طواحين الهواء، وتم غراسة الأشجار المثمرة وتربية الماشية وتجديد الغابات، وخاصة زراعة الكروم والرمان والتوت الأندلسي والتين الشوكي، وإدخال أنواع جديدة على المشهد الفلاحي المغاربي. كما ظهرت بزغوان والفضاءات الفلاحية الأخرى أنواع مستحدثة من الفواكه والخضروات مثل البطاطا والطماطم والباذنجان والزعفران والكراث والقرنبيط وغيرها من أسماء الخضر المستوردة والتي كان مأتاها الأندلس أو أمريكا اللاتينية. كما قاموا بالإشراف على بساتين الليمون والأرنج والحوامض والبقول. وتؤكد الدراسات أن هؤلاء الأندلسيين لم يتركوا شبرًا من الأرض دون زراعته، **فتعلم من هم حكمة:** الحضارة تعلم أما الثقافة فتنور. تحتاج الأولى

إلى تعلم، أما الثانية فتحتاج إلى تأمل. «علي عزت بيجوفيتش»، وأيضًا الحضارة ليست كومة، ولكن بناء وهندسة معمارية. «مالك بن نبي».

***

أما تربية دودة القز وصناعة الحرير والسكر، فقد عرفت على أيدي سكان البشرات الغرناطيين الماهرين والمُهجرين تطورًا بارزًا في هذا المجال، ولم يغب عن هؤلاء جلب بعض أنواع الطيور تحمل أسماء إسبانية مثل ما يعرف اليوم بالكناري، وفي هذا الإطار فإن سمة الاخضرار وروائح الأشجار قد عزز من رونق وجمال البيت الأندلسي الداخلي والتي كانت السمة البارزة فيه، بحيث لا يمكن أن نعثر على بيت دون وجود أشجار مثمرة بدواخل صحنه، وكذا غراسة الأزهار ذات الروائح الطيبة.

ولا شك أن مثل هذه الحداثات الزراعية أنتجت أنواعًا جديدة من الخضر والفواكه أثرت مباشرة على نوعية المأكولات المحلية بإحداثها أنواعًا جديدة منها «المرمز» و«العجة» التي جلبها الأندلسيون من كاتالانيا و«الشكشوكة النابلية» وغيرها من المأكولات الأندلسية والحلويات التي اشتهرت بها بعض المدن الأندلسية حتى اليوم مثل: السنيورة، والملبس، والصمصا وغيرها من الحلويات الأندلسية الأصلية، والتي ترجمت عمق التأثيرات المختلفة التي أحدثها الأندلسيين في المجتمع التونسي.

كما ترك الأندلسيون المُهجرون بتونس أشياء مهمة في البناء والزخرفة في الفسيفساء، وأتقنوا صناعة النسيج وخاصة الحرير علي يد النساء الأندلسيات. كانت صناعة الحرير من الصناعات التي يرجح أن الأندلسيين جلبوها معهم، فكانوا يربون دودة الحرير في أشجار التوت بكل من «الحرائرية» والتي أطلق عليها هذا الاسم نسبة لاختصاصها في هذا المجال، كذلك مدن زغوان، ومنوبة، وقرمبالية، وتستور. كما أدخلوا استعمال الخيوط الذهبية والفضية في هذه

العملية، وبذلك تطورت صناعة «السفساري» و«**الفوطة**» و«التقريطة». ومن أبرز العائلات التي اشتهرت في هذا المجال عائلة «**شكلابو**»، كما برعت عائلة «**كاترال**» في حرفة التسفير الفني للكتب.

لقد ساهم الأندلسيون في ازدهار الميدان الاقتصادي بفضل اتصالهم بإسبانيا، وكان للصناعيين منهم فضل كبير، خاصة مع الموجة الكبرى للمهاجرين في القرن السابع عشر. وقد كان من بينهم تجار حملوا معهم موظفيهم إلى تونس، ومنهم «مصطفى دي كارديناس» الذي ترأس مجموعة من المهاجرين وأحد وجهائها. ومن الأندلسيين من تولى وزارة الاقتصاد. كما كان من بين الأندلسيين المُهجرين في تونس شعراء وكتاب، نذكر منهم «عبد الرازق كاراباكا».

المجال المعماري والثقافي: عرف هذا المجال في تونس في أيام الأندلسيين ازدهارًا كبيرًا؛ لكونهم أتوا بثقافة أيبيرية ساهمت في النهضة الثقافية آنذاك في عصر العثمانيين. لقد كان مجال العمارة مميزًا؛ حيث كانت عمارة مستقيمة وتنتهي دومًا إلى ساحة مع تقاطع الأزقة على زوايا، كما أنهم قاموا بتمهيد وتبليط الشوارع واستعمال نوع جديد من العربات، أطلق عليه «الكراريط». وكذا استعملوا بشكل مكثف «القرمود»، وهي مادة بناء مميزة للتقاليد المعمارية الأندلسية واستعملت في عدة مناطق بإيالة تونس كتستور السلوقية، وهو نظام تسقيف ذو انحدار خفيف لا يتجاوز الثلاثين درجة، ويجعل السقف محميا من الرياح وحتى الانزلاقات، وقد بنيت عدة أشكال كنصف أسطوانة بطول ذراع، توضع في واجهة البيوت لتجميل المنظر الخارجي؛ مما ترجم حرصهم على شخصيتهم الفنية والثقافية المتميزة، والتي مارسوها سابقًا في بيئتهم بالأندلس، وسعوا بكل تفان إلى استمرارها في بيتهم الجديد بإيالة تونس أو بالفضاءات المغاربية الأخرى.

وقد عرف كذلك عن الأندلسيين مهارتهم في البناء، هذه المهارة وظفوها في إنشاء العديد من المعالم، ومن بين أبرز العائلات التي اشتهرت في هذا المجال يمكن أن نذكر**عائلة النيقر (الأسود)**، التي عرفت بتقاليدها العريقة في هذا

المجال، فضمت العديد من المهندسين كسليمان النيقرو الذي قام بترميم صومعة جامع القصبة في القرن السابع عشر وترك مخطوطًا بعنوان «بلوغ المنى في قواعد الردم والبنا». كذلك برز من بين أفراد هذه العائلة علي النيقرو الذي كان أمينًا على حضيرة قصر المحمدية، وبقي بمنصبه حتى عام 1852م. أيضًا الأسطى حميدة النيقرو، الذي كان ناظرًا على بناء «سبالة» باب سعدون بالحاضرة سنة 1803م.

وهناك «**عائلة البلانكو**» التي عرفت بمساهماتها المعمارية الهامة؛ فقد كان الحاج محمد البلانكو أمين البنائين على ما يرجح في النصف الأول من القرن الثامن عشر، كما كان أيضًا على البلانكو أمين حضيرة قصر المحمدية في سنة 1848م، بالإضافة إلى أن محمد بن حميدة البلانكو المتوفي سنة 1931م كان أمين البنائين بقرية رأس الجيل. وقد قام العديد من المؤرخين (مثل القفصي زبيس) بدراسة هذه الآثار؛ حيث شيد الأندلسيون المساجد، ومن بينها المسجد الشهير بمدينة توستور، وكذلك مسجد سليمان الذي يحتوي على كتابات موريسكية فوق جدرانه، وقد بني في عصر وصول الأندلسيين إلى تونس.

أما تأثيرهم في الطرب فكان مباشرًا، حيث أدخلوا أنماطًا موسيقية تعتمد على «الأداء الآلي القائم على الوتريات والصدميات، وبصفة خاصة على الرباب والعود والطار، ومنحوا للموشحات الأندلسية نفسًا جميلًا وهادئًا وعميقًا في تونس وغيرها من المجتمعات العربية، وكذا إسبانيا. ومنذ عدة سنوات فقط، تم الانتباه إلى تقويم الموسيقى العربية الأندلسية، وكذا السفرادية وإحلالها موقعًا جديدًا في هذه الجدلية الحضارية.

وفي التصوف، نجد «عائلة ابن عاشور» التي انتقلت من الأندلس إلى سلا بالمغرب ومنها إلى تونس، وبرزت في مجال التصوف. ومن بين رجالات هذه العائلة يمكن أن نذكر محمد بن عاشور (ولد 1602م) مؤسس الزاوية العاشورية وابنه عبد القادر بن عاشور المتوفي سنة 1737م.

ولعلنا في دعوتنا للمحافظة على التراث العائل بالأندلسي، لا نتحدث فقط عن التراث المادي، بل وعن العادات والتقاليد، التي لحسن الحظ بقي بعضها إلى اليوم. ومن هذه العادات يمكن أن نذكر **الاحتفال بالعرس**. وفي هذا الإطار كانت الطعمة مأدبة غذاء يقيمها أهل العريس «يوم البناء/ الدخلة»، ويقدم فيها ما لذ وطاب من الحلويات الأندلسية ككعك الورقة وحلويات الشبابك. وبعد أن يتم الضيوف الأكل يقرأون الفاتحة، وعند خروجهم يجدون والد العريس بباب المنزل فيهنئونه قائلين: «ربى يتمم بخير»، فيقوم برشهم بماء الزهر الذي وضع في مرش صنع من الفضة. وإلى جانب العادات والتقاليد، نجد كذلك التراث الغذائي فرغم أنه تواصل إلى اليوم، فإن العديدين لا يعلمون أن أصول العديد من المأكولات أندلسية، ولعل من بين هذه المأكولات التي ما زالت إلى اليوم تطبخ في تونس يمكن أن نذكر: القرص، حلويات الشبابك، كعك الورقة، المحلبية، المرقة الزعراء، الطاجين، الصمصا، الحلالم.

***

⏮ إضاءات تاريخية: حضارة الأمة في تنوع ثقافتها وبناء الإنسان وليس بالأموال والبترول، ولكما في هذا مثال.

ومن كل ما سبق، يمكن القول بأن الأندلسيين ساهموا بصفة فاعلة في إعادة التوازن للبلاد التونسية مطلع القرن السابع عشر، خاصة على الصعيد الاقتصادي. كما أنهم أثروا الجانب الحضاري للبلاد. إن هذا الجانب في تونس وكافة بلدان الاستقبال في حاجة للمزيد من الوعي به وتنميته، باعتبار أن ثراء الأمم لا يقاس فقط بما تملكه من أموال في البنوك، أو ثروات في باطن الأرض، بل كذلك بما تحويه مجتمعاتها من تنوع واختلاف ثقافي. فمن هنا نتعلم حكمة لواقعنا: الثقافة هي تأثير الدين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي. الثقافة معناها الفن الذي يكون به الإنسان إنسانا، أما الحضارة فتعني فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة الثقافة

هي الخلق المستمر للذات أما الحضارة فهي التغيير المستمر للعالم وهذا هو تضاد: الإنسان والشيء الإنسانية والشيئية. «علي عزت بيجوفيتش».

❊ ❊ ❊

أثر الأندلسيين الحضاري في المجتمع الجزائري:

⏮ عبقرية الأندلسي وحضارته وبصمته في كل مكان يذهب إليه:

ساهم الأندلسيون في مجال العمران بالجزائر. ففي مجال هندسة المياه عمل الأندلسيون بإتقان، وجلبوا الماء للجزائر العاصمة بواسطة قنوات خاصة كانت من بقايا عهد الرومان، فسخروها بمعرفتهم وخبرتهم لجريان الماء من أجل سقاية وتوفير الماء للعاصمة. وقد نسب هذا المشروع إلى مهندس كان يدعى موسى. ولقد خرج مشروع الماء للعاصمة إلى حيز الوجود عام 16101611م في عهد مصطفى كوسا باشا، وظل هذا المشروع إلى القرن الثامن عشر؛ حيث قام مهندس أندلسي آخر يدعى (كاستيو) باكتشاف منبع للماء في هضبة قرب حصن الإمبراطور، بضواحي المدينة؛ فقام بعرض مشروع إيصال الماء إلى المدينة بواسطة نحو مائة صنبور داخل المدار الحضري. ولقد لقي مشروعه الاستحسان والموافقة من طرف حاكم المدينة ثم نفذ، وتم إيصال ضواحي المدينة التي كان يقطنها الأندلسيون بعدما كانوا يستعملون أواني الفخار (الخوابي) لجلب وادخار الماء، حيث إنه لم يكن الماء العذب يوجد في المدينة إلا في الآبار التي كانت تبعد عن المدينة مسافة نصف فرسخ، فوفر المشروع الراحة لأهل المدينة.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: حقائق تاريخية البحر المتوسط ما بين سيطرة العثمانيين ومهارة الأندلسيين الحربية وحقيقة واقعية في حاضرنا.

كان البحر الأبيض المتوسط في القرنين الساس عشر والسابع عشر الميلاديين عبارة عن حد فاصل بين الإسلام والمسيحية، وكانت حركة القرصنة

مزدهرة بين الجانبين، فلعب الأندلسيون دورًا هاما في هذه العملية؛ حيث إن خير الدين (باربا روسا) الحاكم من قبل الخليفة العثماني استلم في عام 1570م خطابًا من الخليفة العثماني موجه للأندلسيين أثناء ثورتهم في غرناطة، يحثهم فيه على الدفاع عن الإسلام، وحث الحاكم على مساعدتهم وإمداد يد العون إليهم بكل ما يحتاجونه، وإرسال سائر الأسلحة والمؤن، لما أظهروه من إخلاصهم لدينهم الإسلامي.

كما كان الأندلسيون يشكلون العمود الفقري للجيش الجزائري، وقد كانوا فنيين في الشؤون الحربية، وخاصة في سلاح البارود. كما كان للأندلسيين خبرة في مجال القرصنة والملاحة البحرية التجارية، وقد سهل عليهم ذلك لمعرفتهم الجيدة بجغرافية الأندلس وأحوال البحر. وكانوا خبراء في صناعة السفن، ويستدل على ذلك «مرسى الجزائر» وهي منطلق القرصنة والتجارة البحرية، وكذلك مركز «شرشيل» للأغراض البحرية، وصناعة السفن، وكان هذا المركز مأهولًا بالأندلسيين أكثر من غيره.

فتعلم هنا حقيقية واقعية: يمثل البحر المتوسط أهمية استراتيجية وحدًا فاصلًا دومًا بين الشرق والغرب، ساحة صراع حقيقية لما يمتلكه من أهمية في الثروات والموقع، فيعرف الغرب ذلك جيدًا، فيريد تحويل هذا الصراع بين المسلمين وبعضهم البعض، بدل من أن يكون الصراع بينه وبين المسلمين، وهذا ما نراه الآن في صراع القوة الإسلامية فيما بينها حول البحر المتوسط والغاز، ونرى الصهاينة والغرب من يشعلون فتيل الفتنة بين الدول الإسلامية حول هذا الموضوع، فبعد الصراع بين الأخوة سيكون الجميع خاسر، والرابح الوحيد عندما يدخل ليحل الخلاف والصراع بينهم يكون الصهاينة والغرب رابحين السيطرة والثروة، فهل من معتبر، فالتاريخ يعيد نفسه، فهل من أصحاب عقول تقرأ وتعي ما يحاك بها من فكر الشياطين.

***

في المجال الزراعي والطبي: كان للأندلسيين دور كبير في الجزائر؛ حيث أدخلوا إليها أنواعًا كثيرة من الفواكه والبواكر، وكذلك بعض المنتجات الزراعية الأمريكية الأصل، وأقاموا مزارع عدة بالقرب من المدن بقصد مدها بالمواد الغذائية الضرورية، وعملوا على سقي تلك المزارع بخبرتهم في هندسة توزيع المياه التي أتوا بها من الأندلس.

لقد كان الأندلسيون في الجزائر ممسكين بجلّ قطاعات الاقتصاد، وكانوا يتقنون جيدًا عدة صناعات، فاشتهروا على الخصوص في صناعة «النسيج الحرير الحلي السجاد»، وكان لذلك؛ تأثيرًا إيجابيًا على الرواج الاقتصادي بالعاصمة الجزائرية، فقد كان منهم أرباب شركات ومقاولات وغيرها. وقد انتقلت صناعة الحرير من غرناطة إلى الجزائر، وكان الأندلسيون هم المختصين بها، ويقال إنها انتقلت من الجزائر إلى إيطاليا، كما امتهنت هذه الصناعة النساء الأندلسيات المهاجرات.

كانت الأسر الأندلسية متحدة فيما بينها مؤازرة لبعضها البعض، تمد يد العون لمن أراد أداء فريضة الحج. فرغم وجود صعوبات في أول الأمر للاندماج مع الأسر الجزائرية، تمكنوا من التأقلم، فقد كانت لديهم في أول الأمر بعض العادات التي لم تلق تفهمًا من طرف الجزائريين الذين كانوا يعتبرونها عادات نصرانية، كمسألة ختان الأطفال التي كان بعض الأندلسيين يخشون القيام منها، رغم كونهم يقومون بشعائرهم الدينية الإسلامية على ما يرام ويشيدون المساجد والحمامات، ويؤدون المناسك كلها على أحسن وجه.

كما كان الأندلسيون خبراء في الطب والجراحة، فنقلوا خبرتهم إلى الجزائر ومنهم «خابيير جابر»، والجراح «غارسيا دياس». كان الطبيب خابيير من بلنسية، وقيل إنه عند مغادرته مدينته بيع؛ لأن تجارة الرقيق كانت رائجة في القرن السادس عشر، وخاصة بين أسرى الحَرب أو في عمليات القرصنة. أما الجراح «غارسيا دياس»، فأصلة من مدينة طليطلة.

الأندلسيون والمجال التجاري: قدر لأبناء الجالية الذين استقروا بالجزائر في العهد العثماني أن يكون لهم دور المشاركة الفعالة، وكان ميدان التجارة أبرز أوجه هذه المشاركة، حيث امتدت المتاجر الأندلسية في مدينة الجزائر، وخاصة في الشارع الممتد ما بين عزون إلى باب أواد والمتفتح على حومة الأسواق الرئيسية أسفل المدينة. كانت الأسواق في مدينة الجزائر العثمانية، تتمركز في شارعين: ففي الشارع الأول نجد كلا من سوق الكتان، وسوق الزيت، وسوق الشمع، وسوق الفكاهين، وسوق الحرارية، وسوق الصباغين، وسوق الحديد، وسوق الشمع، وسوق الضارين. وفي الشارع الثاني نجد سوق السمن، وسوق القيسارية. وبهذه الأسواق كانت تنتشر المقاهي والحمامات والفنادق.

عندما اتسع نشاط هؤلاء التجار الأندلسيين، وبخاصة تجارة بيع الأسرى المسيحيين وتمويل مشاريع الجهاد البحري، الحيوية والهامة، والتي ظلت لمدة طويلة موردًا هاما للرزق ومصدرًا للثروة، وعاملًا حاسًما في تنشيط الحركة الاقتصادية بالجزائر، كما كانت حكرًا على أفراد الإدارة العثمانية.

لقد تميز الثغريون العناصر الأكثر تحالفًا ونشاطًا مع السلطة الحاكمة من بين مختلف الفئات الأخرى التي تكوّن الجالية الأندلسية، وذلك لنوعية النشاط الممارس، وتمركزهم بمدينة الجزائر قاعدة الحكم العثماني. فالثغريون استفادوا من مداخيل القرصنة، وبيع الأسرى وجعلوا من تجارة الرقيق بضاعة وتجارة مربحة على حد تعبير أحد الباحثين الغربيين؛ لأنهم عاملوا الأسرى الإسبان بسوء وقسوة.

وتشير الدراسات إلى أن عدد المسيحيين الذين كانوا يباعون في أسواق مدينة الجزائر في أعوام 1520 – 1660م كان يتراوح بين خمسمائة ألف وستمائة ألف، كما توجد قصص عن سوء معاملة القساوسة من قبل الأندلسيين، وكان هؤلاء يعملون في تجارة الفداء والتي كانت مظهرًا هاما من مظاهر مجموع اقتصاد الجزائر.

والحقيقة أن المتتبع لدور التجار الأندلسيين وخاصة في مدينة الجزائر، واستثمار أموالهم في عمليات القرصنة (غنائم الجهاد البحري)، يعجب لهذا الدور الذي لعبوه في المجال التجاري، حيث اشتهروا بتحصيلهم للضرائب ومساعدتهم للأتراك في تنظيم موارد الخزينة العامة.

وقد نرى أن الجزائر شجعت القرصنة، خاصة وقد كانت تدر عليها غنائم ثمينة، بفضل الأندلسيين، الذين أتقن معظمهم اللغة الإسبانية، وكانوا أكثر الفئات علمًا بدخائل الصراع السياسي والعسكري بالبحر الأبيض المتوسط.

هكذا أصبح للأندلسيين فائض مالي كبير، وكان لا بد من البحث عن ميادين أخرى جانب عملهم التجاري كاستثمار فائض رأسمالهم فيها، وكانوا حريصين كل الحرص على أن هذه المجالات الاستثمارية التي تعطي لهم ربحًا. ويمكن اعتبار أن هذه الفئة التجارية، طبقًا لاتساع نشاطها المالي وبفضل خبرتها التجارية، أصبحت تمثل النخبة المدبرة لشؤون القرصنة والنخاسة ومبادلة الأسرى في الجزائر العثمانية.

***

⏮ إضاءات تاريخية: عندما يعطيك الله فلا تنس حق الله فيما أعطاك، فدوما لا يشعر بقيمة العطاء إلا من حرم منه، ولا يشعر بالحرمان إلا من فقد وذاقه، لذلك؛ تعلم أهل الأندلس بعد نكبتهم في الأندلس، فعندما ذاقوا الثراء في المهجر أعطوا؛ لأنهم عرفوا قيمة العطاء، فلك في ذلك مثال:

ومن الأمور المتعلقة بثراء الأندلسيين في مدينة الجزائر وتجب الإشارة إليها، أن كثيرًا منهم، إلى جانب استثمارهم للعقارات، قاموا بوقف الكثير منها، إما على أنفسهم حيال حياتهم ثم على ذريتهم من بعدهم، أو على أوجه البر وطلبة العلم، أو على فقراء الأندلس وفقراء الحرمين. ولقد جاءت هذه الأعمال رغبة في اجتناب مضرات الزمن، ولتخوف الأندلسيين من مصادرة السلطات لتلك الأملاك.

فتعلم من هنا: في الإسلام خلق الله الإنسان ليكون خليفته في الأرض، وفي الحضارة الغربية ليس الإنسان إلا حيوانًا متطورًا. «مصطفى السباعي». وأيضًا نتعلم كما قال: القتال أيضًا حضارة، حين يكون ضد الذين يريدون هدم الحضارة. «حنا مينه».

***

الأندلسيون والحياة الاجتماعية: إن الباحث في تاريخ الجزائر الاجتماعي في العهد العثماني، وفي إطار النظم الاجتماعية السائدة آنذاك، لا يمكنه إغفال الدور الكبير الذي لعبته الجالية الأندلسية في الحياة الاجتماعية بالجزائر، حيث إن اشتغال الأندلسيين بالعمل التجاري والحرف المهنية وطلب العلم والتدريس، مكّنهم من ربط علاقات واسعة وقوية بمختلف شرائح وطوائف المجتمع الجزائري في العهد العثماني. وهكذا فقد اشتهرت العائلات الأندلسية باشتغال أفرادها بالتجارة والصنائع، مثل ابن رامول، وابن هني، وابن زوان، وبرحال وابن تشيكو، وابن الكبابطي، وابن الشاهد، وابن عمار، وخوجة.

ولقد وصف «دي تاسي» الجالية الأندلسية بطبقة الأغنياء في مجتمع الجزائر، فهم يسكنون المدن ويقيمون في منازل كبرى، ويملكون الثروة، ويتعاطون التجارة، وخاصة تجارة الفداء.

إن حساسية البعد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي بين أهل الأندلس والطبقات الاجتماعية المكونة لمجتمع الجزائر، كانت من العوامل التي دفعت بأغنياء الجالية إلى تأسيس جمعية أشرفت على إقامة مسجد وزاوية ومدرسة، وذلك في شهر المحرم (1033هـ/ 1624م)، وكانت هذه الجمعية الأندلسية مكونة من: محمد الأبلي، وإبراهيم بن محمد بوساحل، والمعلم موسى، ومحمد شلالة، ومحمد بن العنجدون، ومحمد السميح، وعلي بن عمر، ويحيى الخياط. وحبس أغنياء الأندلس على ذلك أوقافًا داخل مدينة الجزائر وخارجها لتنفق على شؤون العبادة وتقديم العون لفقرائهم، وكانت هذه الأوقاف تشمل العديد من

الأملاك العقارية والأراضي الزراعية، حيث جعلوا محمد الأبلي مشرفًا عليها، وقد أصبح وكيل أوقاف الأندلس.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: عدو الخير والنهضة دومًا يتمثل في الظلم والاستبداد، ولك في ذلك مثال.

على أن أوقاف أهل الأندلس ما لبثت أن اضمحلت وتلاشت وتناقص مردودها، ولم يعد يستفيد منها في عام 1837 سوى 71 فردًا ينتسبون إلى أفراد الجالية الأندلسية، كما تعرضت زاوية أهل الأندلس للهدم من طرف الإدارة الفرنسية سنة 1843م. ويرجع السبب في تلاشي العنصر الأندلسي بمدن الجزائر إلى ضعف نشاط أفراده في الميدان المالي في أواخر العهد العثماني نتيجة مضايقة واستبداد الحكام الأتراك وقادة الجيش. فلنتعلم هنا حقيقة وندركها بل يجب محاربتها: الفساد جريمة خطيرة يمكن أن تقوّض التنمية الاجتماعية والاقتصادية في جميع المجتمعات. ولا يوجد بلد أو منطقة أو مجتمع محصن. فتعلم من هنا: أن التقدم والحضارة هما نتيجة جهود العبقرية، لا نتيجة ثرثرة الأكثرية. «هتلر».

❊ ❊ ❊

أثر الأندلسيين في المجتمع المغربي:

اندمج الأندلسيون في البداية كطبقة اجتماعية من أصل أجنبي (مع اليهود والمسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام والأجانب الموجودين بشكل مؤقت). والواضح أنه من بين كل هؤلاء (الأجانب) سيكون الأندلسيون المُهجرون الأقرب إلى أهل المغرب؛ نظرًا لروابط الدين والثقافة بين معظم أبناء وأحفاد المهاجرين؛ فمن ولدوا في المغرب لن يختلفوا كثيرًا عن بقية سكان المغرب، هكذا استقر الأندلسيون في المجتمع المغربي وأثروا في سياسته الداخلية.

❊ ❊ ❊

إضاءات تاريخية: كيف توظف المهاجر وتستفاد منه وتضرب به عدوك وتصنع من فكره حضارة عندما يكون صاحب قضية وهدف، هكذا علمتنا السياسة الخارجية من أحداث التاريخ.

إن هدف المغرب في «السياسة الخارجية» كان مشابهًا لهدف بقية الدول المغاربية بمواجهة عدوان المسيحيين الإسبان والبرتغاليين. لهذا؛ تبنى المغرب سياسة تضامن مع بلاد العالم الإسلامي حتى استانبول، خاصة عن طريق مساعدة الأندلسيين في إسبانيا وتسهيل إقامتهم في بلاد المغرب، وتوعيتهم بأن واجبهم الأول في وطنهم الجديد هو حمايته من المسيحيين. ومن هنا، نفهم السبب في توطنهم في المناطق الساحلية التي كانت الخط الأول في مواجهة الخطر في الموانئ القليلة التي كانت لا تزال في يد السلطات (سلا والمعمودة وتطوان)، وهو نفس ما حدث في بلاد المغرب الأخرى، حيث تم توطين الأندلسيين في الموانئ أيضًا (موستا، غانم، وشرحبيل، والجزائر، وبجارية، وعنابة، وبنزرت، وتونس، وطرابلس، ودرنة)، ولعل هذا يفسر أيضًا إلحاق الأندلسيين بالقوات البرية والبحرية كعنصر ضروري لتدعيم الوضع السياسي للمغرب؛ وهو نفس الشيء الذي اتبعه ونفذه السلطان أحمد المنصور واستغل النشاط البحري والعسكري وساعدوه في الجيش وفي الضغط على أعدائه. إن هذا هو السبب في أن المغرب عهد إلى الأندلسيين بدور مهم في النشاط البحري الخارجي، فتعلم: الحضارة هي فن الإيمان بأنه يمكنك أن تبني على ثوابتك بناءً شامخًا عزيزًا. « أحمد خيري العمري».

***

لقد فرضت الهجمات المسيحية المتلاحقة وجود سياسية خارجية موحدة في بلاد المغرب العربي. ورغم اختلاف الموقع الجغرافي بينها؛ استمر المغرب في اتخاذ عواصمه في المدن الداخلية وليس على السواحل؛ وهو نفس ما فعلته الجزائر وتونس وطرابلس نظرًا لعلاقتها باستانبول. لكن المغرب سيواصل محاولته لاسترداد الموانئ، وسيدخل معارك نتائجها متغيرة ضد الإسبان والبرتغاليين.

وقد أضفى الأشراف السعديون في القرن السادس عشر، والعلويون في القرن السابع، وبمساعدة الجماعات الدينية، على السياسة الخارجية المغربية طابعًا وطنيا ودينيا مناهضًا للمسيحية، يتفق مع الشعور السياسي والديني للأندلسيين.

وساهم الأندلسيون في شتى الميادين، حيث صارت الأسواق مليئة بمنتجاتهم الصناعية والفنية، وطبقوا كذلك طرقهم الخاصة في ميدان التجارة؛ وازدهرت الأماكن التي نزلوا بها؛ وانتعشت المبادلات التجارية مع الخارج عن طريق البحر الذي كانوا خبراء بشؤونه. وقد ساعدهم في هذا إتقانهم اللغات الأجنبية، خاصة الإسبانية والبرتغالية، سيما وأن علاقتهم بالإسبانيين والبرتغاليين كانت لا تزال حديثة العهد.

الجانب الاقتصادي: يعد هذا العامل أهم العوامل التي كانت وراء الصراعات التي نشبت بين الأندلسيين المهاجرين والسكان المحليين؛ فمثلًا عند استقرار «المنظري» بتطوان يعود لأن «سكان القبائل المجاورة لتطوانقد استاءوا من بناء هذه المدينة بدعوى أن أرضها تقع في بلادهم، وأن مرافقها هي الأخرى مراعٍ لماشيتهم، وأن بناءها وعمارتها يضيقان عليهم بمصالحهم».

وفي منطقة المصب كان الصراع بين الأندلسيين والهوناتشوس حول أحقية اقتسام موارد البناء. أما فيما يخص الصراع بين الأندلسيين والسلاويين فهو لنفس الأسباب، فقد كانت مدينة سلا مركزًا تجاريا هاما خاصة بعد الاهتمام الذي أولته لها السلطة المرينية على حساب رباط الفتح، وقد كان للتجارة أثرها البليغ على الحياة الاقتصادية في سلا منذ أواسط القرن الثاني عشر على الأقل، وتحديدًا بفضل تجارة الذهب الذي كانت تجلبه إليها القوافل التجارية من السودان الذي تمت غالبية تجارته مع الجمهوريات الإيطالية، خاصة الجنوبية التي تردد أبناؤها على الميناء للحصول على هذه المادة لحاجتهم المُلحة لضرب عملة ذهبية على غرار العملة الإسلامية والبيزنطية. وهناك مواد أخرى صدرها الميناء في اتجاه أوروبا كالكتان والنيلة والقطن والحبوب والفواكه الجافة ومواد أخرى، مثل الملف

والقرمز ومسحوق الدباغة.

إلا أن استقرار الأندلسيين في الضفة الجنوبية للمصب نتج عنه تحول في الموازين شمال وجنوب المصب لصالح الجنوب؛ فقد أصبحت الرباط تستقطب التجار الأوروبيين؛ لأن الجهاد البحري في هذه الفترة أصبح المتحكم في ربط العلاقات الدبلوماسية والتجارية، حيث كانت أوروبا في حاجة لافتكاك أسراها، كما كان المجاهدون في حاجة لشراء الأسلحة والعتاد لمواصلة عملياتهم الجهادية. أضف إلى ذلك أن الأندلسيين كانوا لا يستطيعون بيع جميع بضائعهم المغتنمة بالمغرب؛ مما حدا بهم للبحث عن أسواق خارجية، فوجدوا ضالتهم في الجمهوريات الإيطالية الصغيرة، كجنوة وبزة وليفورن.

وهكذا نلاحظ أن أندلسيي الرباط أصبحوا المتحكمين في التجارة لاحتكارهم للجهاد البحري الذي أرغم الأوروبيين على طلب ود هؤلاء لتفادي شرهم وتجنب سفنهم ضرباتهم القوية. أما فاس فإن الصراع الذي وقع بين اللمطيين والأندلسيين فأساسه كان اقتصاديا، فانتهب اللمطيون القسارية وحوانيت العطارين، ووقعت الحرب بين الأندلسيين واللمطين؛ بسبب ذلك ثمانية أيام.

***

⏮ إضاءات تاريخية: كيف تحول طاقات المُهجرين واللاجئين أصحاب الحضارة والفكر إذا لجأوا إليك، فكيف تحولهم إلى طاقة فعالة ومساهمة في المجتمع بدلًا من أن يكونوا عبئا وتشتكي منهم ليل نهار، فلك الحل من واقع التاريخ.

لم يبق الأندلسيون المُهجرون بعيدين عن شؤون المغرب الداخلية؛ فقد كان همهم الاندماج في المجتمع المغربي ونسيان المحن التي مروا بها، الشيء الذي جعلهم يعملون بإخلاص في جل ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية. أدى هذا الأمر في بعض الأحيان إلى اعتماد السلطة المركزية عليهم؛ لخبرتهم المتطورة

التي أتوا بها من أوروبا التي كانت في أوج نهضتها. لقد تمت تجربتهم في عمل صعب وضخم، حتى يبقوا تحت سيطرة السلطة الحاكمة، واتقاء لما قد يصدر عنهم من أعمال تخل بالنظام العام والانضمام إلى عناصر مناوئة للسلطان. من هنا قام المنصور السعدي بتكوين فرقة من الأندلسيين وضمها إلى جيشه لفتح السودان «كان يطلق على الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية»، فساهموا في ذلك مساهمة فعالة.

ففي عام 1591م أرسل المنصور السعدي حملة عسكرية إلى السودان، تألفت من فرقة أندلسية وفرقة من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام تحت قيادة الأندلسي «جواد باشاه» الذي كان نصرانيا في صغره ثم أسلم. وتم النصر للمنصور وأصبح نفوذه يصل إلى تخوم الصحراء؛ وتدفقت على المغرب الأموال والذهب والعبيد، كما أخذ المغرب يروج منتجاته هناك، بالإضافة إلى أن المنصور ارتاح من منافسيه الذين كان يخشاهم، وحصل على توازن عسكري مع دول البحر المتوسط، خاصة الإسبان الذين كانوا قد انتصروا على العثمانيين في موقعة (ليبانتو) فأصبح الإسبان والبرتغاليون مقيدين في المناطق التي كانوا يحتلونها في الشواطئ المغربية.

فلنتعلم هنا حكمة: نأوي إلى الخلوة، ليس بسبب بعض الأحزان الشخصية، كعدم رضانا عن ظروف الحاضر السياسية والاجتماعية، بل لأننا نريد من وراء خلوتنا أن نوفر طاقات سوف تحتاج إليها الحضارة ذات يوم لا محالة. نحن أنفسنا رأس مال نحاول الحفاظ عليه، لكن بإخفائه كما كان يحدث في العصور الخطيرة. «**فريدريك نيتشه**». ولذلك؛ الحضارة العظيمة لا تهرب من الشر والجريمة العظيمة، بل يجب أن تتصدى لهم وتحولهم إلى طاقات إيجابية وفتوحات عظيمة وتستغل حماستهم في صنع الأشياء العظيمة بدلًا من صنع المآسي والأهوال العظيمة والشكوى.

***

الجانب الاجتماعي: أصبح الأندلسيون المتأخرون يعاملون معاملة سيئة حتى من قبل المغاربة؛ لأنهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق النصارى، وكانوا يتعاطون الخمر ويأكلون لحم الخنزير ونساؤهم تخرجن سافرات؛ الشيء الذي لم يرق للمغاربة، فعاملوهم بسوء وفتور، بخلاف المهاجرين الأولين الذين كانوا على حالتهم الإسلامية الصرفة، فلم يعانوا ما عانى الأواخر، وخاصة أنه كان من بينهم علماء أجلاء استفاد منهم المغرب «محمد بن علي الدكالي: الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين».

كان الاختلاف في السلوك بين الفئتين هو السبب في نشوء هذا النفور، وكتب محمد الدكالي واصفًا أهل سلا: «كانوا على غاية تامة من المحافظة على مكارم الأخلاق وحسن الشيم واتباع السنة والورع التام في المأكل والمشرب والقناعة بالإقلال وعدم الافتخار بالجاه والمال». بعدها حمل الأندلسيون معهم العادات والتقاليد المكتسبة من إسبانيا، وحملوا معهم سلوكًا دينيا معينًا نتج عن ممارسة القمع عليهم لسنوات طويلة من محاكم التفتيش، وهو سلوك يعتمد أساسًا على الجوهر لا المظهر؛ لأن هذا الأخير موضوع أساسًا لإيهام الإسبان بأنهم مسيحيون، وهذا ما جعلهم موضع شك من لدن السكان المحليين حيث أصبحوا ينعتونهم بنصارى قشتالة.

لقد كان للوضعية التي عاشها المغرب في بداية القرن السابع عشر الميلادي آثارها البالغة في جعل الاندماج الأندلسي في المجتمع المغربي يتسم بالصعوبة؛ مما أدى لانعزال هذه الأقلية في مناطق معينة. لكن بالرغم من ذلك استمر تأثيرهم بحكم إرثهم الثقافي والمتحضر، خاصة على المستوى الاجتماعي. فأين تجلى ذلك؟ وما هي مجالات تأثيرهم على المجتمع المغربي؟

تأثير الأندلسيين في الميادين العلمية والثقافية والفنية: إذا كانت أوروبا نفسها استفادت من التقدم العلمي والثقافي والفني للأندلسيين في القرون الوسطى، فإن المغرب تأثر كثيرًا بعد هجرة الأندلسيين إليه بما كانوا يحملونه معهم من معرفة في ميادين شتى. يتجلى من هذا أن الإشعاع الحضاري والإرث الثقافي الأندلسي

وصل إلى القرن العشرين، وقد يتواصل على امتداد قرون مقبلة. وقد احتفظ المغرب بالقسط الوافر من هذا الإرث، فطبع الأندلسي في المغرب بصمات واضحة في جل ميادين الحياة.

التراث اللغوي والأدبي والعلمي: يعتبر التأثير اللغوي من أبرز عمليات التواصل بين العنصر المغربي والأندلسي، واحتفظت المصادر الأندلسية خاصة بإشارات تصف فصاحة الأندلسيين. يقول ابن الخطيب: «وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غرب كثير، وتغلب عليه الإمالة». إن النص على قصره وضآلة حجمه يقدم لنا معطيات في غاية الأهمية، تتمثل في سيادة اللغة العربية وذيوعها دون منازع، وهذا ما يؤكد أنها كانت لغة التواصل الاجتماعي والمعرفي حتى إن السلطة المرينية نهجت سياسة التعريب خاصة في مجال الدين، حيث كانت الخطب تلقى بالبربرية في عهد الموحدين. ثم يشير النص إلى تسرب الغرب إلى هذه اللغة، أي الأسماء والمصطلحات التي تنتمي إلى لغات ولهجات العناصر البشرية المتنوعة، مما يدل على التلاحم والتمازج بين هذه العناصر.

لكن الأمر تغير بعد سقوط غرناطة، وأصبحت اللغة العربية في تراجع لتزايد المصطلحات الإسبانية الدخيلة، وتفاقم الأمر بمنع السلطة الإسبانية تداولها، فأصبح لزامًا على المسلمين الأندلسيين الكتابة والحديث بالقشتالية، كما يقر بذلك الفقيه عيسى بن جابر في القرن الخامس عشر الميلادي ذاكرًا الأسباب التي دفعته إلى كتابة مجموعة من الكتب في الفقه والسنة باللغة الإسبانية، وكتب: «إن مسلمي قشتالة، بسبب خضوعهم الكبير، وبسبب الضرائب العالية، والعناء المفرط.. ضاعت منهم الممتلكات والمدارس واللغة العربية. ونظرًا إلى هذه الخصائص طلب مني أصدقائي بكل عطف وإلحاح كبير منهم، خصوصًا الموزعين الكرماء، والتمسوا مني باستعطاف بالغ أن أجمع باللغة الرومانسية كتابًا مختصرًا حول فقهنا والسنة، وكذا كل ما يحتاج المسلم الصالح ويعمل به، وهكذا لم يكن لي بد إلا أن أقبل هذا الطلب».

ولقد عبر الأندلسيون عن أسفهم الصريح لاستعمالهم اللغة الإسبانية لشرح تعاليم الإسلام الذي لا يمكن شرحه إلا باللغة العربية. يقول أحدهم: «لا أحد من بني قومنا يعرف اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، ولا يفهمون حقائق الدين ولا يدركون سموه الحقيقي دون اللجوء لشرحها بلغة أجنبية، كلغة هؤلاء الكلاب المسيحيين طغاتنا ومضطهدينا، دمرهم الله. لهذا أطلب المعذرة لمن يقرأ ما كتب بالقلوب، علمًا أن نيتي ما هي إلا فتح طريق النجاة للمؤمنين المسلمين، حتى ولو كان باستعمال هذه الوسيلة الحقيرة والدنيئة».

كما أعرب أندلسي موريسكي آخر عن ذلك بأسف وكتب: «لكونه مكتوبًا بالحرف المسيحي يطلب ويلتمس ألا تحط قيمته لاستعماله ذلك الحرف، بل على العكس، يجب الرفع من شأنه؛ لأن وجوده مكتوبًا بهذه الطريقة يظهر جليا للمسلمين الذين يعرفون قراءة الحرف المسيحي ولا يعرفون قراءة حرف المسلمين، وقد أكد النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – أن أحسن اللغات تلك التي تفهم».

وجد الأندلسيون صعوبة في الاندماج؛ بسبب جهلهم للغة العربية خاصة أولئك الذين توجهوا إلى تونس، وهو ما جعل القائمين على أمورهم الدينية من بني قومهم يلجأون إلى تعليمهم الدين الإسلامي باللغة والحروف التي كانوا يعرفونها، وقد استفتى شاعر أندلسي مجهول الاسم في ذلك أحد الفقهاء الذين استقبلوهم وسهلوا مقامهم بهذه الأراضي، وهو الصالح سيدي بولكايز؛ لأنه تخوف من عدم ملاءَمة تعاليم الإسلام مع كتابة أموره بالحروف الإسبانية، وقد أجاب الفقيه بالإيجاب والرضى، واعتبر أنه عمل مقبول.

أما عربية الأندلسيين المُهجرين فلا تختلف كثيرًا عن الدارجة المغربية، فخصائصها الصوتية تكون في بعض الأحيان الحد الأوسط في التطور من العربية الفصحى إلى العربية الدارجة المغربية على المستوى الصوتي وأحيانا نجد أن بعض الأشكال ما زال الاحتفاظ بها في المغرب كعصر (العربية الفصحى) وعصر (الأعجمية) في تطوان ونواحي أخرى من الشمال المغربي.

وعمومًا كان التأثير اللغوي الأندلسي للمُهجّرين واضحًا، وخاصة تسرب مجموعة من الكلمات الإسبانية إلى العربية المغربية. وقد زاد من هذا الأمر انتشار عمليات الترجمة، خاصة من اللغة الإسبانية إلى العربية والتي تزعمها الشهاب الحجري بترجمته لمجموعة من المؤلفات من بينها كتاب «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع». ومن حسن الحظ أن هذه الترجمة تمت بتعاون بين المؤلف والمُعرب الذي كان كلما أشكل عليه شيء في النص الإسباني، يرجع إلى المؤلف ليستوضحه، ثم يثبت الترجمة طبق تفسيره، ثم الترجمة الثانية تمثلت في الرسالة الزكوطية، وتهتم ببعض الأمور الفلكية، وترجمها هي الأخرى عن الإسبانية.

هذا وقد تضمنت بعض الكتابات المغربية إبان هذه الفترة وبعدها العديد من المصطلحات والكلمات الإسبانية، ونخص بالذكر كتب الرحلات التي كانت وجهة أصحابها شبه جزيرة أيبيريا مثل رحلة محمد بن عبد الوهاب الغساني «رحلة الوزير في افتكاك الأسير»، ورحلة ابن عثمان المكناسي «الإكسير في فكاك الأسير»، وتضمنتا مصطلحات وكلمات إسبانية. ويمكن أن نتحدث عن تأثيرات أدبية أندلسية في الشعر المغربي (في ديوان الحايك) وهو أندلسي من تطوان عاش في القرن الثامن عشر. أما ابن عمر الرباطي فكان من كبار الفقهاء وشاعرًا مشهورًا من أصل أندلسي موريسكي، ومات في الجزيرة العربية عام 1827م. وقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة العلاقة بين الرواية الشفوية التطوانية ومسرحيات العصر الذهبي الإسباني.

***

⏮ إضاءات تاريخية: أهمية اللغة العربية والعقيدة والتاريخ في صنع الحضارة للأمة.

نتج عن الاضطهاد المستمر للغة العربية ظهور ما أصبح يسمى حاليًا بالأدب الأعجمي. وقد ظل هذا الزخم الهائل من التراث الأندلسي وخصوصًا الموريسكى مجهولًا حتى نهاية القرن العشرين، حيث تم اكتشافه من قبل باحثين إسبان. ولذلك؛ نهضة أي أمة تتمثل في الحفاظ على عقيدتها وتاريخها ولغتها، إذا فقدت

هذه العناصر أصحب أمة بلا هوية ولا ثقافة ولا طعم، ومن حسن حظ هذه الأمة الإسلامية، أنها تتفق في الثلاث فمن هنا لديها المقومات التي تصنع حضارة سريعة وتعيد الأمجاد، ولكن نجح المستعمر لفهمه قوة هذا الاتفاق الرباني بيننا، فقام ودمّر اللغة العربية وفرض لغته على البلدان العربية التي استعمرها حتى يقطع التواصل بين أفراد هذه الأمة، ثم شوه التاريخ ومفاهيم الخلافة والوحدة والرموز وجعلنا نشكك في كل شيء ونخلق منهما قضايا خلافية بدلًا من أن نخلق منهم وحدتنا وعزتنا بتاريخنا الناصع وأبطالنا العظماء، ثم خلق المذاهب والأيدولوجيات، وساهم في نشر المذاهب التي تنادي بين التشدد والتنطع والتساهل في الدين، فضاعت وسطية بين التشدد والتفريط وسطية وجمال هذا الدين، والسمة التي اختارها الله لنا بأن جعلنا أمة وسطا، ومن هنا خلق حروبا مذهبية ودينية في المنطقة، وهي من أصعب أنواع الحروب، والتي تحتاج إلى مدد زمنية حتى تنطفئ، فخسرت الأمة وحدتها عندما تركت دينها ومنهجه، وسلمت الأمر لجاهلها والسيف لجَبَانها والأمر لِلصّها، فكل يوم يغرف الاستعمار الثروات من أرضها إلى يومنا هذا، وهي تغرف في وحل الجدال المذهبي والخلاف والفرقة، فتزداد جهلا ويزداد المستعمر ثروة وحكما وسيادة إلى يومنا هذا، فهل من معتبر من التاريخ، فالغرب يعرف قوة اللغة العربية، فيقول أحد مفكريه: حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر في القرون الوسطى، وكانت اللغة العربية أعظم اللغات خلال هذه العصور، فلقد كتبت بها المؤلفات القيمة شديدة الأصالة، وكان على أي باحث يريد أن يلم بثقافة العصر أن يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل ذلك الكثير من غير العرب. «**جورج سارتون**».

فَلْنَبْنِ: فهل من واعٍ يصنع جيلا يفتخر بلغته العربية الذي استبدلها المستعمر ويفتخر بتاريخه الذي شوّهه المستعمر عن طريق نخب مزيفة، ويفتخر بعقيدته التي يريد المستعمر الحالي والماضي أن يجعله يتخلى عنها؟

***

ومن بين الأندلسيين الذين ساهموا في إثراء الميدان العلمي والثقافي نذكر الغراف في نهاية القرن السابع عشر، ويوسف الحكيم الذي كان متضلعًا في العلوم الطبية وعلم التنجيم والفلسفة؛ وقام بترجمة مبادئ علم الفلك. كما اشتهر أيضًا في مجال الترجمة الخياري بيخرانو (الحجري)؛ واشتهر أيضًا خوان ألفونسو أراغون، وكان في الأصل مسيحيا، وكتب قصيدة ضد النصرانية بمدينة تطوان. ونجد كذلك محمد الوزير، وهو أندلسي من باسطران، كتب في عهد السلطان مولاي زيدان ضد القانون المسيحي باللغة القشتالية. كما اشتهر كثير من الأندلسيين في عدة ميادين علمية كرئيس الأطباء على إبراهيم الأندلسي، الذي كتب مواضيع شعرية عن عدة فواكه وطبيعتها وعلاقتها بطب العيون وعن نباتات طبية وفوائدها. وكان من أشهر المنجمين الأندلسيين وتوخ بمراكش عام 1613م. ونال أيضًا أحمد بن سيو الأندلسي الذي أقام بفاس والذي كتب لصديقه الخياري تكهنات في علم التنجيم. وهناك أيضًا محمد بن علي الشاطبي من مدينة شاطبة بالأندلس، وكان أستاذا وباحثًا في علم الزراعة والصيد.

ومن بين الميادين التي أبدع فيها الأندلسيون أيام ازدهار الأندلس ميدان الموسيقى؛ وما موسيقى الآلة المتداولة اليوم في المغرب إلا امتداد للإرث الحضاري الرفيع الذي نقله الأندلسيون الذين هاجروا إلى المغرب. ورغم امتزاج هذا الفن بالفن المغربي إلا أن معالمه واضحة، وما زال يدرس في المعاهد الموسيقية بالمغرب، وتؤديها كثير من الفرق الموسيقية المختصة؛ حيث إن الموسيقى الأندلسية عاطفية من حيث الإيقاع والأغنية التي تصاحبها. ونجد أن كثيرًا من نصوصها تشير إلى الأندلس (الفردوس المفقودة) أرض المتعة والجمال. كما أن موسيقى الأندلس العربية موسيقى الخيال، والعرب يحلمون بشكل أندلسي عندما يسمعون هذه الموسيقى الشعبية التراثية التي تختلف عن أنواع أخرى من الموسيقى المغربية.

ومن الآثار الواضحة في المغرب؛ العمارة الإسبانية التي أدخلها الأندلسيون الموريسكيون في القرن السابع عشر؛ حيث وصلت أخبار من رجل فرنسي؛ يذكر

أن الرباط التي يسكنها الأندلسيون بها نباتات تشبه النباتات الإسبانية لكن بدون زجاج، ويشهد على ذلك بنية مدينة الرباط نفسها؛ حيث إنها مكونة من شوارع مستقيمة على شكل شبكة وهو يختلف عن النظام العمراني بالمغرب ويتفق مع النظم العمرانية للمدن التي أقام بها الأندلسيون بالمغرب. وهناك النقوش في البيوت، مثل كتابة شعار ملوك بني نصر الذي نحت على ضريح الملك محمد الخامس في الرباط. إن بعض هذه النقوش أندلسية من حيث الموضوع والخط. ومع أن الخط المغربي في المخطوطات والنقوش يختلف عن الخط الأندلسي، فإن هذه الخطوط جميعها تعد ميراثًا للفن الأندلسي.

كما دخلت أزياء من أصل إسباني للمغرب، وإن كانت قد شهدت تطورًا فيما بعد، ومن بينها ملابس العرائس التي يظهر فيها الأثر الإسباني من حيث تطريزها.

وهناك بقايا أو آثـار أدبية أندلسية في إسبانيا وفي المغرب؛ تتمثل في المخطوطات العربية ذات الأصل المغربي والموجودة حاليًا في مكتبة ويرسان لودينتو بالأسكوريال، وهذه المخطوطات عبارة عن مكتبة سلطان المغرب التي استولى عليها قراصنة فرنسيون، ثم استولى عليها قراصنة إسبان في القرن السادس عشر؛ وتتضمن مخطوطات عربية عن الأندلس حملها الأندلسيون إلى المغرب. ولا يبدو أن الذين حملوها إلى المغرب كانوا موريسكيين في القرن السادس عشر، بل أندلسيين ممن هاجروا إلى المغرب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وهذه المخطوطات دليل على التراث الأندلسي في المغرب، كما اهتم الأندلسيون بتأسيس المكتبات كمكتبة القصبة بالرباط؛ وقد ترك بهذه المكتبة البحري والعسكري والتاجر عبد الله الأندلسي والمعروف بالقصري مصحفًا للقرآن الكريم خَطّيًا أتى به من الإسكندرية في طريق عودته من الديار المقدسة بعد أداء فريضة الحج. وقد اشتهر بعض الأندلسيين بفن الخط، وكانوا خطاطين ماهرين كمحمد العدي الأندلسي بفاس هذه بعض الإشارات لتأثير الأندلسيين بالمغرب في عديد من المجالات.

***

⏮ إضاءات تاريخية: حقائق للتاريخ كيف سرق الغرب تراث العرب ولماذا؟

يقال إن القراصنة الفرنسيين لم يستولوا على كتب مولاي زيدان، بل كانت وديعة لديهم، أما الذين استولوا عليها فهم قراصنة إسبان واقتادوها إلى سواحل إسبانيا. وقد بذل ملوك المغرب كل ما في وسعهم لاستعادة الكتب، لكن جهودهم لم تكل بالنجاح وما زالت موجودة في مكتبة الأسكوربال، وهكذا سرقت العديد من الآثار والكتب ونقلت إلى متاحف أوروبا والغرب ليهموا الأجيال أن لديهم حضارة، بل هم سرقوه عند استعمارهم للبلاد أو عن طريق الفسدة والوكلاء إلى الآن ليصنعوا حضارة مزيفة بمجهود وعبق تاريخ الغير.

فلنتعلم من هنا شيئا: الحضارة والتمدن ليست شيئا يسهل تحقيقه على الإطلاق.. هناك طريقتان فقط حيث يمكن للرجل بلوغهما، الأولى هي بأن يكون مثقفا، والثانية بأن يكون فاسدا. «**أوسكار وايلد**».

***

أثر الأندلسيين على الدولة العثمانية وولاياتها:

كان هناك الأندلسيون في استانبول قبل عملية الطرد الكبير، حيث استطاع الأندلسيون الأثرياء أن يصلوا عاصمة الدولة العثمانية عبر ميناء «سان خوان دي لوث» أو عبر «مارسيليا». وهكذا نزح كثير من الأندلسيين الدولة العثمانية، حيث ذكر دبلوماسيون فرنسيون وهولنديون وبنادقة تقارير منفصلة عن الأندلسيين في استانبول، وذكروا أن الأندلسيين كانوا يشكلون جالية كبيرة ومؤثرة في المدينة. وعند نزوح الأندلسيين إلى أراضي الدولة العثمانية منحتهم أراضي للإقامة والفلاحة، فأسسوا قرى ازدهرت فيها الحركة التجارية والاقتصادية والفلاحية، إلا أن دور الأندلسيين لم يكن أساسيا في أراضي البلقان والدولة العثمانية كما كان في شمال أفريقيا؛ حيث لعبوا دورًا طلائعيا في شتى الميادين.

***

إضاءات تاريخية: حقائق تاريخية دور الدولة العثمانية في فضية الأندلس كأنه دور تركيا في قضية سوريا.

إذا أردت أن تفهم دور الدولة العثمانية وما قدمت للأندلس، فيمكن أن تفهمه عندما تدقق في الأحداث الآن، وخصوصًا موقف تركيا من سوريا والمُهجرين السوريين إلى أراضيها، ففي الماضي كان المسلمون في الأندلس أيام حربهم ضد النصارى يعلقون آمالًا على العثمانيين في مساعدتهم في كفاحهم بالأندلس، خاصة مملكة غرناطة، بعد انتصار العثمانيين على البيزنطيين وفتحهم القسطنطينية عام 1453م على يد محمد الفاتح، كما كان العثمانيون يعتمدون على الأندلسيين في ميدان التجسس على الإسبان، سيما وأن الدولة العثمانية وإسبانيا كانتا قوتين في ذلك العصر؛ الأولى في الشرق، والثانية في الغرب، وكان الصراع بينهما على أشده، ووقعت معارك كثيرة بينهما، خاصة في البحر، ومنها معركة حدثت في أيام كارلوس الخامس قرب الجزائر عام 1541م. كما قامت الدولة العثمانية بمساعدة مجاهدي الأندلس سنة 1568م أثناء اندلاع ثورة غرناطة الكبرى «البشرات». لكن مساعدة الدولة العثمانية للأندلسيين لم تكن بالشكل الذي يمكن أن يقلب الموازين لصالح الثوار، وبالتالي لم تحقق النتائج التي كانت متوقعة من مساندة العثمانيين. وعند العرض لهذه النقطة ستجد الحال الآن مشابهًا لمساندة تركيا للسوريا الثورية والضغوط الدولية على تركيا عندما وقفت وتحدث واستقبلت السوريين في أراضيها في حين هناك صمت عربي، ورغم أن الأغلبية الآن ترى أن تركيا لم تقدم الكثير لسوريا حتى تساهم في نجاح الثورة ضد النظام الاستبدادي، رغم أنه الأولى أن يقدم العرب الأموال وكل شيء لنجاح ثورة أهل سوريا، كأنه التاريخ يعيد نفسه وقضاياه، ولكن بمسميات مختلفة.

أما النقطة الثانية: ساعد العثمانيون الأندلسيين على الإقامة بدولتهم ماديا ومعنويا، حيث منحوهم حرية العمل والتنقل، وقد جعل الأندلسيون استانبول طريقًا للهجرة إلى داخل أوروبا كفرنسا وإيطاليا، وقاموا بإيفاد بعثة منهم إلى بعض

ملوك أوروبا يستعطفوهم للسماح لهم بالمرور بأراضيهم، ومن هؤلاء (جاكوب الأول ملك إنجلترا وإسكتلندا، والوصية على عرش فرنسا ماري دي دي ميدتشي)، وقد قام الأميرال جليل باشا بزيارة للمغرب للتفاوض مع المسؤولين حول موضوع الأندلسيين المُهجرين، كما قامت بعثة برئاسة على سليمان بزيارة بلجراد، فاستقبلها الوزير مراد باشا، وبحثا موضوع هجرة الأندلسيين المُهجرين في اتجاه بلاد البقان التي كانت تحت النفوذ العثماني، عندما نسمع هذا الكلام نشعر كأننا نراه اليوم، حيث استقبلت تركيا السوريين ومنحتهم الإقامات على أرضها للعمل وللعيش وفتحت لهم المجالات المختلفة للاندماج والمساهمة في المجتمع التركي واقتصاد تركيا، حيث يعيش فيها بين 3 إلى 5 مليون مهاجر سوري على أرض تركيا، فحين أن العديد من بلاد العرب أغلقت الأبواب في وجههم. وفي الأخير، نلوم على تركيا وسياستها، وأيضًا نجد من يتفاوض باسم الثوار وسوريا في جنيف ومحادثات الأستانة (تركيا)، وتقف في وجه نظام بشار، فأنا هنا لست منحازا لأي طرف ولكن أنقل الماضي وأربطه بحاضر نراه جميعًا رأي العين، فعلينا أن نقول ما لنا وما علينا ونضغط على الجرح حتى نشفى ونعرف من أين الألم.

فلنتعلم: نكون منصفين في سرد الحقائق، ننقد على دراية وعلم؛ لأن للكلمة وزنا ثقيلا إما أن تبني وإما أن تهدم، فلنتعلم أيضًا، لقد كشفت التجارب طيلة الخمسين سنة الماضية، أن المجتمعات التي بدأت من نقطة عقائدية وتحركت بعد أن حققت وعيها الفردي والاجتماعي، وقفت اليوم في صف القدرات التي تصنع الحضارة العلمية. «**على شريعتي**».

***

وأيضًا كان هناك وجود للأندلسيين في الشام، حيث تحتل الشام (سوريا الكبرى) مساحة واسعة من الوطن العربي، تشمل سوريا والأردن ولبنان وفلسطين. ويشير المقري إلى كل هذه المنطقة كأماكن استوطنت فيها مجموعات أندلسية. إن ذكر كل أدنة (Adana) وطرابلس في وثيقة عثمانية يؤكد ما يذكره

مؤرخ معاصر لعملية الطرد، وهناك حديث عن توطين الأندلسيين في الشام لنشر نظامهم في ري الأراضي الزراعية، ومن المعلوم أيضًا حديث عن مرور الأندلسيين، واستيطانهم في مدن كانت تعتبر مراكز للمعرفة وذات أهمية دينية مثل القدس.

وأيضًا كان هناك وجود للأندلسيين في الأراضي الليبية، حيث تشغل أراضي ليبيا الحالية ما كان يعرف باسم ولاية طرابلس الغرب، وقد استقبلت طرابلس وضواحيها عددًا من الأندلسيين. لقد تحدث البعض عن عائلات فرنسية وصلت إلى طرابلس في منتصف القرن السابع عشر؛ لكي تعتنق الإسلام، ويظن «توربيت ديلوف» أن تلك العائلات كانت أندلسية وأقامت في فرنسا بعد طردها من إسبانيا، ثم قررت الرحيل والعيش في بلد إسلامي، كذا كان بعض الوجود الأندلسي في ليبيا. وهناك نص لقسيس فرنسي كان عبدًا لأندلسي من ضواحي طرابلس، وكان الأندلسي يعامل العبد معاملة طيبة، وعرض عليه أن يزوجه ابنته إذا أسلم، وحكى له عن أصله الإسباني. ويبدو أن أندلسيِّ ليبيا كانوا تابعين لشيخ الأندلسيين في تونس، وهذا ما فهمه البعض من نص مصطفى كاردیناس الذي دافع عن مصالح أندلسيين من طرابلس في تونس. وينسب إلى الأندلسيين المهاجرين إدخال الموسيقى الأندلسية إلى جبال جنوب العاصمة، وهو مكان آهل بالسكان ويحمي العاصمة من رياح الصحراء، وتنسب الحكايات الشعبية أيضًا إلى بعض العائلات الأندلسية التي استوطنت درنة على الحدود مع مصر، وعملت على تشييد مسجد رائع له 24 قبة.

***

⏮ إضاءات تاريخية: العبرة من المأساة ما بين الأدب والتاريخ.

« فيما تفكر يا شهاب الدين؟ لدي إحساس بأننا، نحن الموريسكيين، اللعنة التي أصابت الأمة الإسلامية.

كيف ذلك؟

مع كل الوهن الذي يُرى على دار الإسلام، سيضطهد أقوام آخرون ويقتلون ويطردون من ديارهم، ظلمًا مثلنا، ولن يكون لهم سند يعتمدون عليه». (من رواية «الموريسكي» للكاتب المغربي «**حسن أوريد**»).

يقول درويش؛ في ختام قصيدته (أحد عشر كوكبًا على آخر المشهد الأندلسي): هل كانت الأندلس ههنا أم هناك؟ على الأرض.. أم في القصيدة؟ وغفل درويش أنه ربما تكون الأندلس وحضارته هناك في إسبانيا.. ولكنها في قلوبنا! فهي دروس وواقع في حاضرنا اليوم، مشاهدها ومآسيها كأننا نراها اليوم ونعيشها بكل تفاصيلها وأحداثها، ولكن بثياب الآخر وروح التكنولوجيا، ولكن ستظل أحدثها دروس وعبر وعلم وحضارة لمن يريد أن يتعلم ويعتبر من الأخطاء وينهض.

فلنتعلم: إن حضارة الإنسان وتاريخه ومستقبله.. رهن كلمة صدق وصحيفة صدق وشعار صدق.. فبالحق نعيش، وليس بالخبز وحده أبدا. «مصطفى محمود».

ومن هنا: التاريخ هو تراث الأمة وكنزها، وهو مقياس عظمتها في بابي الحضارة والثقافة، وهو ديوانها الذي تحتفظ فيه بذاكرتها، وهو مغترف العبر والعظات لأحداثها، وهو بيان لسيرة عظمائها، وهو ماضيها الذي تستند إليه لحاضر أفضل ومستقبل أجلّ. وهو دراسة أحوال الماضين من الأمم والشعوب الأخرى. وهو وعاء الخبرة البشرية. «محمد موسى الشريف».

***

ثالثًا: أثر الأندلسيين في أوروبا ونهضة الغرب.

⏮ تمهيد:

تركت الحضارة الإسلامية في الأندلس آثارًا كبيرةً في مجموع الحياة الثقافية والعلمية الأوروبية مع أثرها الأكبر على المستوى العقائدي الإسلامي، فضلًا عن الأمور الإدارية والسياسية والعسكرية والحضارية والفنية، وهنا لا بد من

ذكر الحركة النشطة للترجمة من العربية التي كانت لغة العلم والحضارة والثقافة في القرون الوسطى المظلمة أوروبيا، حيث برزت في ظل الحضارة الإسلامية في الأندلس مراكز كبرى في حركة الترجمة كطليطلة وإشبيلية، وتأثرت اللغة اللاتينية بمفردات لا تحصى من اللغة العربية مع تعلم عدد الكبير من الطلاب الأوروبيين لأصول اللغة العربية، كما دخلت العلوم من خلال هؤلاء الطلاب إلى إيطاليا وصقلية وعموم أوروبا عبر فرنسا التي كانت معبر الثقافة العربية والإسلامية إلى الشعوب الأوروبية، وهي التي تأثرت بشكل الكبير في فن العمارة الإسلامية، ويتضح ذلك جليًا في طريقة بناء كثير من كنائس المدن الفرنسية.

أما على المستوى الإسلامي، فقد كانت الأندلس سببًا من أسباب تعرف العرب والمسلمين على العقلية الأوروبية المختلفة عن الطبيعة الرومانية، حيث عرف العرب في الأندلس شعوب الفاندال والنورمان والجرمان والفايكنغ، وكان من أثر الأندلس على العالم الإسلامي أن خلفت إرثًا أدبيًا وفنيًا وعلميًا عظيمًا، وبقيت بعد سقوطها جرحًا وحزنًا مؤلمًا يردد المسلمين قصصه على مر التاريخ بأشعارهم وكتاباتهم حين يزورون مدنها وقصورها التي تعيد لهم ذكرى ذلك الفردوس المفقود.

الأندلس أول نموذج التسامح بين الأديان والأجناس في أوروبا.

في عهد الدولة الأموية كان هناك توجهٌ في هذه الحقبة إلى مزيد من التوسعات الإسلامية، حيث شهدت الشعوب تبادلًا ثقافيًا وتعاونًا بين المسلمين والمسيحيين واليهود الذين دفعوا ضريبة توفير الحماية «الجزية»، ورغم سقوط الخلافة في الشرق، فإن أحد أحفادها وهو عبد الرحمن الداخل استطاع أن يكوّن دولة في الغرب ومقره الأندلس، واتخذ دار الخلافة في قرطبة، وصارت قرطبة منارة للتعليم، وواحدة من المراكز الثقافية والاقتصادية الرائدة في أوروبا، وجميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط والعالم الإسلامي.

وبفضل علماء المسلمين وعلماء الأندلس الذين ساهموا في نقل إنجازاتهم وابتكاراتهم واختراعاتهم إلى أوروبا، حيث شهدت الأندلس تقدمًا في علم المثلثات والرياضة على أيدي جابر بن حيان، وفي الطب والجراحة على أيدي أبي القاسم الزهراوي، وفي علم الصيدلة على أيدي ابن زهر، وغيرها من المجالات، حتى أصبحت الأندلس وقرطبة مركزًا رئيسيًا لتعليم وتنوير أوروبا وجميع أنحاء دول البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى أنها كانت ممرًا للثقافة والعلوم بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي.

وكانت الأندلس طوال عدة قرون تحت الحكم الإسلامي بمثابة قلب الحكم الإسلامي، وجاء الاستقرار في إسبانيا مع تأسيس السلالة الأموية الأندلسية، التي استمرت من (756 – 1031)، ويعود الفضل إلى الأمير عبد الرحمن الذي أسس إمارة قرطبة، وغالبًا ما توصف الفترة الإسلامية في إسبانيا بأنها العصر الذهبي للتعلم وتنوير أوروبا، حيث تم تأسيس المكتبات والكليات والحمامات العامة والأدب والشعر، كما توصف الفترة التي تم فيها فتح الأندلس بأنها فترة التسامح بين الأديان والانسجام الديني والعرقي بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

وخلال فترة الحكم الإسلامي، كثير من المسيحيين في إسبانيا استوعبوا الثقافة الإسلامية وتعلموا العربية، لدرجة أن بعض النساء المسيحيات أطلقن على أطفالهن بعض الأسماء الإسلامية، فضلًا عن ارتدائهن الحجاب.

لكن أدت الخلافات الكثيرة بين الحكام المسلمين إلى ضعف الحكم، وفقدان السيطرة على مجريات الأمور السياسية والاجتماعية، وتدهور وضع المسلمين في إسبانيا بشكل كبير في منتصف القرن الحادي عشر، حيث وقعت ثورات داخلية من قبل المسيحيين، والتي انتهت بسقوط وانهيار هيمنة المسلمين على إسبانيا والأندلس في عام 1492.

***

إضاءات تاريخية: حضارة الأندلس في عيون وكتابات المؤرخين عندما كنا أمة أنجزت حضارة وعلمت الأوروبيين الكتابة والقراءة وقتما كان الجهل يملأ نحاء أوروبا.

إن إسبانيا أنتجت حضارة عظيمة متقدمة بفارق كبير عن بقية أوروبا، حيث جعل المسلمون الأندلس تحت حكمهم مركزًا للتعلم والمعرفة، وكان يدرس المسلمون للإسبان القراءة والكتابة، والرياضيات واللغة العربية والقرآن الكريم، والحديث الشريف والعلوم والطب والفلك والملاحة، ونتيجة لذلك؛ قدمت الأندلس عددًا كبيرًا من عمالقة الفكر والفلاسفة والأطباء والعلماء والقضاة والفنانين.

كان يوجد بمدينة قرطبة خلال القرن العاشر الميلادي حوالي 600 مسجد و900 حمام عام؛ بسبب حاجة المسلمين إلى الغسل استعدادًا للصلاة، كما زادت المكتبات والمؤسسات البحثية بسرعة في إسبانيا، في حين ظلت بقية أوروبا أمية تعاني الجهل والفقر، وأنتج العلماء العرب موسوعات في الطب، وعلم الفلك، وعلم النفس، وعلم الحيوان، وعلم الأحياء، وعلم النبات والكيمياء والفيزياء، والرياضيات والجبر والهندسة، وعلم المثلثات وغيرها، بالإضافة إلى ازدهار ولاية توليدو؛ بسبب حكم المسلمين لها، وأصبحت مهد التعلم ومركزًا للتفاعل بين المسلمين والمسيحيين واليهود .»د. فتحي أبو سيف، أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس«.

***

إن الأندلس كانت مركزًا للتنوير في الغرب ودول أوروبا، حيث سافر الباحثون الغربيون إلى الأندلس وصقلية لتعلم اللغة العربية، فضلًا عن ترجمة كتب ومجلدات ومؤلفات العلماء العرب إلى اللغة اللاتينية، بالإضافة إلى تعلم كيفية تطور المسلمين في الصناعة، حيث أنتج المسلمون القطن والورق والملح والحرير والفلفل والطوابع والساعات والصابون والخرائط، بالإضافة إلى أكثر

من 200 من أدوات الجراحة لعلاج الأمراض، وبالتالي، فإن ظهور الحضارة الإسلامية في إسبانيا كان عتبة رئيسية وراء النهضة الأوروبية خلال فترة وجود المسلمين في إسبانيا.

ونهضة العمارة في الأندلس وصلت إلى أن الحرفيين المسلمين طبقوا مهاراتهم الرائعة في فنون العمارة للمساجد والقصور، سواء في قصر الحمراء أو مسجد قرطبة الكبير، حيث يعتبران من التحف المعمارية الرائعة والشهيرة الموجودة في إسبانيا حتى يومنا هذا، ومع ذلك لا يوجد الكثير من العمارة الإسلامية المتبقية في إسبانيا؛ لأنها دمرت بعد سقوط الأندلس، وتحولت المساجد العظيمة إلى كنائس كمسجد قرطبة.

وفي ظل الحضارة الإسلامية في الأندلس، كان التسامح قاعدة، والتعصب استثناء ويتضح ذلك من خلال ثلاث محطات من التاريخ الأندلسي، هي تعايش مشترك، وحرية المعتقد، وثقافة متسامحة تقوم على الاختلاف والتنوع. يبرز التعايش المشترك على الرغم من أنف الفقهاء في الجوار وفي التعامل وفي التعاون على قضاء بعض الحاجات، وفي الزواج؛ وتتجلى حرية المعتقد في وجود الكنائس والبيع والقضاء الخاص... وتظهر الثقافة المتسامحة في بروز كبار العلماء من أهل الكتاب وخصوصا اليهود منهم. ونجد أن التعايش الاجتماعي المشترك، وتلك الحرية في المعتقد، وذلك الاختلاف والتنوع في الثقافة جعلت الأندلس أنموذجا لحوار الحضارات وتعايشها.

إن تعايش سكان الأندلس كان معيشة تسامح حقيقية، إذ كانوا يتلاقون في مجالس العلم وفي سبل العيش في الأسواق وفي الجوار بالسكن وفي تشابه الأثاث والطبخ، وكانوا يقفون، أحيانا، أمام عدالة واحدة، ويتشاركون في اللغة (واللغات) والأعياد... وبالإجمال، فقد كان هناك تداخل وتمازج، وبالإجمال، فقد كان هناك تداخل وتمازج فيه الخصوصيات الدينية والعرقية، وتوارت فيه الأنانية والعصبية؛ مما جعل من الأندلس مجتمعا يحتذى به.

وحرص العرب على الوفاء بعهودهم لأهل الذمة حتى في الحالات التي كان يبدو للمسلمين أنهم خدعوا فيها، وقد وفّى العرب رغم ذلك، فقال الرازي: (فمضوا (العرب) على الوفاء لهم وكان الوفاء عادتهم).

والحقيقة أن العرب الأولين كانوا يتعاملون بتسامح كريم صادر عن إيمان العرب برسالتهم الإنسانية التي كان لها أثرها الكبير في اجتذاب أهل الذمة إلى الإسلام وإقناعهم بعدالة الدولة العربية، وهذا هو السر في إقبال أهل الذمة على الدخول بأعداد كبيرة في الإسلام، وأدى ذلك إلى دخول كثير من الكلمات الإسلامية واستعمالها بألفاظها العربية من قبل سكان الأندلس مثل كلمة الله Alah.

إذا نظرت إلى الحضارة الأندلسية باعتبارها نتاجا مركبا لمجتمع مركب يتكون من العرب والبربر والقوط وبني إسرائيل والأفارقة والصقالبة؛ وكانت هذه البنية الاجتماعية متعايشة متسامحة أحيانا ومتنافرة متناحرة أحيانا أخرى تبعا لمقتضيات الأحوال وأوضاع الفاعلين في المجتمع الأندلسي، فقد كانت هناك طبقات عليا تمارس السياسة وتدير المجتمع، وكان هناك فقهاء يدركون مقاصد الشريعة، وكان يقابلها طبقات من الغوغاء والدهماء تتبع كل ناعق، وفقهاء يحملون أسفارا لا يدركون مغازيها ومراميها. كما كان هناك يهود ومسيحيون متعلمون راضون عن أوضاعهم في ظل دولة الإسلام وشريعته، وكان هناك منهم من يناوئ الإسلام جهرا أو سرا فيواجهون بما تواجه به الغوغاء بمقتضى ما أنزل الله على رسوله (ص). لكن كان التعقل والتبصر والتدبير السياسي الحصيف يتغلب، فيسود التوافق في المجتمع.

لكن بعض البحوث ارتأت أن التسامح والتعايش والتساكن بين مختلف الأعراق في المجتمع الأندلسي، وأن العلاقة مع الدول المسيحية مرت بحقبتين: ما قبل سقوط طليطلة وما بعد سقوط طليطلة؛ ما قبل سقوط طليطلة اتسم بالتسامح داخليا وخارجيا، وأما ما بعد سقوط طليطلة فقد بدأ التعصب وشيوع أفكار صليبية تهيئ لغزو بيت المقدس.

في ظل هذا السياق التاريخي والعدو المتربص من أجل الاسترداد والمتطلع إلى الاحتلال كان لا بد من ظهور نزعات شرعية بالحكم الإسلامي إلى عهد السلف كما فعل المرابطون. وهذه الإشارات إلى السياق التاريخي القريب والبعيد تجعل الأطروحات المتهجمة على المرابطين والموحدين غير واردة.

❊ ❊ ❊

⏮ إضاءات تاريخية: وشهد مفكرو الغرب على مدنية الإسلام وهمجية الغرب عندما كنا أمة.

إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من اللاشيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لفريدة من نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأملين كيف حدث هذا؟! وكيف أمكن لشعب لم يمثل من قبل دورا حضاريا أو سياسيا يذكر، أن يقف مع الإغريق في فترة وجيزة على قدم المساواة؟ «زيغريد هونكه في كتابها القيم: (شمس الله تسطع على الغرب)». كما يقول ليوبولد **وايس**: حسب المسلمين أنهم كانوا مثالًا للكمال البشري، بينما كنا مثالًا للهمجية، لسنا نبالغ إذ قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يدشن في مدن أوروبا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، وحسب المسلمين أنهم كانوا مثالًا للكمال البشري، بينما كنا مثالًا للهمجية. هكذا كنا في يوم ما عندما تسامحنا مع أنفسنا ومع غيرنا، عندما كنا أصحاب أخلاق مع بعضنا البعض ومع غيرنا، فبنينا حضارة وعلمنا الإنسانية العلم والنهضة، وعندما عودنا لعصابيتنا ولهوانا، أصبحت الهمجية فينا والتقدم فيهم، فهل من معتبر.

❊ ❊ ❊

فضل الحضارة الإسلامية على نهضة أوروبا:

إن الحضارة العربية التي نشأت في الأندلس، وازدهرت لم تقف عند حدود الأندلس فاستمرت العلاقات الاقتصادية والثقافية والحضارية بين الأندلس وأروبا وبينها وبين الشرق وبيزنطة، ولم تنقطع رغم وقوع حروب بحرية وبرية طويلة، فالتبادل التجاري بين إسبانيا العربية وبين الشرق وبيزنطة تظل مستمرًا، وعن هذه الطرق انتقل التراث الحضاري العربي في العصور الوسطى إلى أوروبا، ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حالة أوروبا حينما أدخلوا الحضارة إليها.

***

⏮ إضاءات تاريخية: عن حال أوروبا ووضعها العلمي والفكري وعن أثر الأندلس فيها، فتذكر أنك من نسل حضارة علمت الدنيا العلم والأخلاق وكيف يكون الإنسان إنسانا.

يحدثنا أحد مفكري الغرب **جوستاف لوبون** في كتابه «حضارة العرب»، فيقول: إذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد وما بعده، حيث كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًا رأينا أن مراكز الثقافة في أوروبا كانت أبراجًا يسكنها سنيورات (حيوانات مفترسة) متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وإن أكثر الرجال معرفة كانوا من الرهبان المساكين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين بخشوع، ودامت همجية أوروبا حتى القرن الحادي عشر حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم، ولم تكن الحروب الصليبية سببًا في إدخال العلوم إلى أوروبا، كما يردد على العموم، وإنما دخلت العلوم أوروبا من إسبانيا وصقلية وإيطاليا، وذلك أن مكتبًا للمترجمين في طليطلة بدأ منذ سنة 1130م بنقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون،

ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة، فقد تدفقت العلوم العربية على أوروبا من خلال الأندلس بعد أن فتح العرب الطريق عبر جبال ألبرت إلى فرنسا وإيطاليا، حيث عبر العلم والفلسفة العربيان من خلال رأس الجسر الثقافي الذي أقيم في شبه جزيرة أيبيريا إلى أوروبا، ستظل حاضرة الأندلس علامة بارزة، ويظل العلم والفكر هو المسار السليم للنهضة

فاعلم وتذكر دومًا: لولا فتح العرب للأندلس ووجودهم فيها لما انتقلت الحضارة إلى أوروبا قبل نصف قرن آخر، ولكن من سيعلمنا اليوم ويعود بنا إلى أمجادنا غير الذي سرنا عليه فتملكنا قصور الروم والفرس، فهو منهج القرآن وسيرة خير البشر محمد – صلى الله عليه وسلم – ، فتمسكوا بها وربوا الأجيال عليهم، حتى نجعل كلمة الله هي العليا ونستعيد بها كرامتنا ونرحم صغيرنا من ذل العدو، فلا نجاة ولا وصول ولا حضارة إلا بقضية أمة وعقيدة، ففيهما كل شيء.

***

وظهر التأثير العربي في فن العمارة في الأندلس وأوروبا، فكان الطراز السائد قبل تحرير إسبانيا هو الطراز القوطي، ولكن أقيمت في الأندلس في القرن الثالث عشر والرابع عشر المدن والمساجد والقصور على الطرز العربية مما يدفعنا على الإقرار أن الغرب اقتبس أصول فن عمارته من العرب، إذ ليس هناك من مشابهة بين الطراز العربي والطراز القوطي، وأن تأثير فن العمارة العربية واضح في كثير من الكنائس الفرنسية ككنيسة مدينة (ماغلون) 1178م، التي كانت ذات صلات بالشرق، وكنيسة (كانده) وكنيسة (غاماش)... إلخ.

وألمح **مسيو شارل بلان** إلى ما اقتبسه الأوروبيون من العرب في فن العمارة بقوله: أرى من غير مبالغة فيما لأمة من التأثير في أمة أخرى، وذلك خلافًا لما يسار عليه اليوم أن الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه الفن العربي من المشربيات، وشرفة المـآذن، أدخلوا إلى فرنسا المراقب والجواسق والأبراج

والأطناف والسياجات التي استخدمت كثيرًا في العمارات المدنية والحربية في القرون الوسطى.

* * *

تذكر وتعلم دومًا: فن العمارة هي المرآة التي تنعكس عليها ثقافات الشعوب ونهضتها وتطورها «فكتور هوجو». وتعلم: الحضارة تبنيها الأفعال ويهدمها الانفعال.

* * *

لقد كان للاستقرار السياسي والاجتماعي، والرفاء الاقتصادي والتقدم العلمي والعمراني أثره الكبير في نشاط وازدهار التجارة في الأندلس، وأدى الاتصال التجاري بين الشرق والغرب وبين الأندلس وأوروبا إلى دخول مفردات وألفاظ عربية كثيرة وأسماء منتجات وسلع تجارية ومكاييل ومقاييس وأوزان وعملات كانت تستعمل في التجارة إلى اللغة الفرنسية واللغات الأوروبية مثل السوقSouk، ميناءCabar، فنارFanal، سمسارCemcal، دكانDogana، الديوان (الكمرك) Aduoma، مخزن Magozzia، معرفة (شركة تجارية) Maond، مخاطرة Moatra، التعريفة Tarifa، المناداة (المزايدة) Almoneda، ومن الألفاظ الأخرى التي كانت تستعمل في التجارة العملات والمقاييس والمكاييل والأوزان مثل: دينارDinar، درهم Adorme، السكة Ceea، قنطارKantar، قيراط Corat، مثقال Molacal، عشرAchour، أردب Ardib، القفيز abis، المد Almud، الرطل Arreelde، الربعة Arrab.

وعلى الرغم من وجود عدد هائل من الكلمات العربية في اللغة الإنجليزية واللغات الأوروبية الأخرى في مجالات العلوم المختلفة، إلا أننا نرى أن عدد هذه الكلمات في العلوم الرياضية قليل جدًا، ولا يعني هذا أن العرب لم يؤثروا كثيرًا على أوروبا في مجال العلوم الرياضية ولكن العكس صحيح، إلا أن معظم الكتابة

في هذه العلوم يعتمد على الرموز والأحرف بالإضافة إلى أن الأرقام الأوروبية الحالية مأخوذة أصلًا عن طريق العرب وما زالت تسمى بالأرقام العربية ومثلًا على ذلك: الجبر Algebra، الخوارزمي (المقصود به الحساب) Algursime، المقابلة Almohabel، المجسطي Cipher، الصفر Cipher ، وكلمة الصفر العربية تدل على انتقال طريقة الحساب العربي واستعمالها من قبل الأوروبيين.

وازدهر علم الهيئة (الفلك) عند العرب في الأندلس لحاجتهم إليه في تحديد القبلة وتعيين أوقات الصلاة، وقد تطور هذا العلم إلى دراسة حركات النجوم، وظهور حركة التنجيم، واخترعوا الساعات الشمسية لمعرفة الأوقات، فقد صنع عباس بن فرناس أول آلة (وهي نوع مبتكر من الساعات).

ويبدو من مجرد النظر في المصطلحات الفلكية العديدة ذات الأصل العربي يدلنا على أن الغرب مدين لما قام به العرب من دراسات فلكية؛ لأن معظم هذه الأسماء قد تركت في الوقت الحاضر واستعيض عنها بأسماء غيرها ومن هذه الأسماء العذارىAdara ، السها Alcor، الجنب Algenib، الفكة Alphacca، الجبهة Algieba، عرش الجوزاء Arsh، بنات نعش Benatnasch، السرطان Cancer، الكلب الأكبر CamisMa,or، الكلب الأصغر Camis Minor، ذنب الدواجن Deneb Eldolphinas ، ذنب الجدي Deneb Elokab، ذنب العقاب Daneb Elkab، النصل Elnasl، الراعي التنين Etanin، فم الحوت Famu Lhout، رأس الأسد Res Al Asad، رأس الثعبان Res toban، سعد الملك Saod Al Melik، سعد السعود Saod Saoud، العذراء Virgo، الطائر Altair، قرن الثور Tauri، السموات59]amwet[..

ولمس الأوروبيون بشكل جلي الجهود العلمية البارزة التي بذلها عرب الأندلس في علم الكيمياء فوصلت إليهم ثروة كبيرة من المعرفة والحقائق، والتجارب والنظريات العلمية، فأخذ طلاب الغرب يقبلون على دراستها وترجمتها إلى لغاتهم فحفزت فيهم روح البحث والشغف باستقراء الحقائق وتتبعها، فزاد اطلاعهم

على هذا النتاج العلمي الخصب، واعتمدوا الأدلة والبراهين في قضايا العلوم الطبيعية، فبدأت أوروبا بحوثها في هذا المجال على أساس واقعي سليم وبناء نظري منسق، وكان ذلك بفضل الانطلاق العربي في البحث العلمي والابتكار.

وهذه ثمة كلمات عربية مستعملة في اللغات الأوروبية في حقل الكيمياء تدل على جهود العرب في هذا العلم عند الغربيين الكيمياء Alchemy، الكمل Alcuhal، زرنيخ Arsenic، بورق Barax، الإكسير Elixir، قرمز Kermes، كبريت Kibruit، اللانبيق Linbick، نفط Naphta، عطر Attar، الزئبق Assoguc، قطران caudran، بنج Bang، سموم Simouim [61].

ولم يقتصر الأندلسيون على العلوم العملية، بل كانت لهم دراسات في علوم أخرى كالفيزياء، وعلم العقاقير، والزراعة (علم الفلاحة) والذي أبدعوا فيه وصنفوا التصاميم المشهورة، مسجلين ما توصلت إليه تجاربهم في النباتات والتربة، ويعد عباس بن فرناس القرطبي واحدًا من عباقرة العرب المسلمين الذين استطاعوا تحقيق أروع الكشوفات في ميادين العلوم التجريبية وأن يمهدوا باكتشافاتهم العظيمة الطريق للأجيال اللاحقة من علماء العصر الحديث.

وأثمرت جهود العرب في تطوير علم الطب وتأثرت ثقافة الغرب الطبية تأثرًا عميقًا بما اقتبسه من العرب في هذا المضمار.

والعرب أول من مارسوا عمليات الجراحة في العالم إطلاقًا، ووضعوا المؤلفات فيها وفي طرقها، والأمراض التي يجب استئصالها والآلات والأدوات التي تستعملوهم أول من اكتشفوا وسائل التخدير، وأنشأوا المستشفيات، وقسموها قسمين: قسم للرجال والنساء، وقسموا كل قسم إلى أقسام على حسب المرض، وأقاموا المعازل لعزل المرضى المصابين بأمراض معدية بل إن للمسلمين الفضل في إنشاء المستشفيات المتنقلة.

وأنجبت الأندلس أشهر جراح عربي هو أبو القاسم الزهراوي سنة 427هـ/ 1035م فكان طبيبًا خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، وله تصانيف في

الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بـ(الزهراوي) ومن مؤلفاته الأخرى كتاب (التصريف) ويذكر الدوميلي أنه (أشهر أطباء الأندلس وأعظم أطباء المسلمين أيضًا.. وكان أعظم الجراحين. وكتابه (التصريف) عبارة عن دائرة معارف طبية كبيرة، ويمكن أن يميز، وفي هذا الكتاب قسم في الطب وقسم في الصيدلة وقسم في الجراحة، طبع في ثلاثة أجزاء حصلت على أعلى درجات التقدير في أوروبا وترجم إلى العبرية واللاتينية والإنجليزية، وأعيد طبع النص العربي في الهند سنة 1908، والزهراوي أول من ربط الشرايين واستأصل حصى المثانة في النساء عن طريق المهبل وأول من أوقف النزيف ونجح في عملية شق القصبة الهوائية، وبحث في التهاب المفاصل، واكتشف آلة لتوسيع باب الرحم للعمليات ولقب بـ(أبو الجراحة).

تحفل كتب التراث والتاريخ بأسماء العديد من علماء النبات والعقاقير الصيدلانية الذين عاشوا في الأندلس، وتركوا كتبًا قيمة في النباتات وصناعة الأدوية والعقاقير زاد عددهم على 150 عالما، وقد استعملت كتبهم قرونًا عدة كدستور للصيادلة وبكلماتها العربية في حقل النبات والصيدلة في أوروبا.

إن التراث العربي الزراعي ظهر بصورة واضحة في جنوب أوروبا، فقد أدخل العرب في إسبانيا وأوروبا بعض النباتات الجديدة، وعددًا من أساليب الري، وأهم النباتات التي أدخلها العرب وظهرت في لهجات أسبانيا وصقلية وأوروبا الغربية بأسماء تكشف أصالتها العربية مثل: الريحان Arroyon، الخزامي Alhuzema، الموز Banane، نارنج Naronga، الزعفران Azafran، ليمون Liom، البرقوف Albericaguo، الزيتون A Coton، باذنجا Berenjena، البرقوف Albericaguo، القطن Coton، والرز Riz، وقصب السكر Sugra، والقهوة Cafe.

وقد أمدت كتب الجغرافيين العرب بأسماء هذه النباتات، ووسائل الري التي أدخلها العرب إلى إسبانيا ومنها شاع إلى أوروبا، ومن أساليب الري (قنوات الري والنواعير) التي تعتمد على قوة تيار الماء المعروفة باسمها العربي (الشادوق)

والقنوات هي مجاري المياه تحت الأرض يتكون عن طريق الربط بين سلسلة من الآبار، ويستخدم في استنباط موارد المياه الجوفية ونقلها مسافات شاسعة، فكلمة (مجريط) في الإسبانية مشتق من الاسم العربي (مجرى) وهذا الاسم يتعلق بهذه الممرات الإسلامية. وقد أسهمت أساليب الري التي أخذت عن العرب بشكل هام في تكثيف الزراعة في إسبانيا وفي جنوب أوروبا، واستعملت الألفاظ العربية الدالة على السقاية أيضًا مثل: الساقية Aceqiua، الناعورة Naria، السد Azud، البركة Alburca.

***

إضاءات تاريخية: أسوأ يوم في التاريخ.

أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي. «حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مائتي سنة، وعمق ذلك التقدم أمرًا يدعو إلى الذهول حقًا، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضًا أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمائة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يول كل من العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثًا على العلم، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية». «أناتول فرانس في كتابه (الحياة الجميلة).

تعلم: الحضارة الأصيلة لا تنبت إلا في حقل النفوس المهذبة الأبية، ولا تنبثق إلا من صميم الروح المطلقة، الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان، ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة، «عبد الحميد الثاني».

***

ازدهرت الحياة الاجتماعية في الأندلس بظهور المدارس الموسيقية، فقد شاع الغناء الحجازي والموسيقى الحجازية، وانتقل هذا الفن إلى الأندلس عن طريق الجواري والمغنيات والمغنين، ولعبت الموسيقى العربية دورها في الأندلس، فالمدرسة الموسيقية التي أسسها زرياب وأبناؤه وبناته وجواريه كان لها تأثير كبير في الحياة الاجتماعية، وعرف الأوروبيون في لغتهم أسماء كثير من الآلات الموسيقية العربية واستعملوها بألفاظها العربية، مثل: القانون Kanoan، الطبل Timbal، النقارة Naker، القيثارة Cuitar، الرباب Rebee، والعود Luth.

وقد أثرت الأغنية الشعبية العربية في الشعر الأوروبي باسم الشعر البروفنسي الذي كان ينشده المتروبادور أي (المغنون المتجولون) في جنوب فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها من البلدان الأوروبية، واستحدثوا فنًا آخر سموه (الزجل) وجاءوا فيه بالغرائب، وهذه الطريقة الزجلية هي فن العامة بالأندلس، وهم ينظمونه في سائر البحور الخمسة عشر بالعامية.

وأدخل العرب بعض صناعات المشرق العربي إلى الأندلس ومنها انتقلت إلى أوروبا خاصة صناعة السجاد، وبعض أنواع الأقمشة التي عرفت بأسمائها العربية فالقماش المعروف باسم (موسلين) نسبة إلى الموصل، والعتابي Tabby نسبة إلى حي عتابي ببغداد، وأطلس والخميل Camiel، وموهير Mohair وأصله في العربية مخير.

واهتم الأندلسيون بالتاريخ واعتبروه علمًا له أصوله، ومن المؤرخين الأندلسيين أحمد بن محمد الرازي، وابن حيان القرطبي، وابن الخطيب فقد ألفوا في تاريخ المدن والتاريخ العام وفي التراجم، فقد ألف علي بن أحمد بن حزم كتاب (جمهرة أنساب العرب).

وكان للعرب في الأندلس نصيب وافر في علم الجغرافية، فمنهم من له مصنفات في الجغرافية على درجة عالية من الأهمية، منهم أبو العباس أحمد بن

عمر بن أنس العذري في كتابه (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك). وقد نشر الدكتور عبد العزيز الأهواني في مدريد عام 1965 جزءًا من هذا الكتاب تحت عنوان «نصوص عن الأندلس». الذي يعد واحدًا من أهم كتب جغرافية الأندلس وتاريخها وخطط مدنها. ومن جغرافييّ الأندلس أيضًا أحمد بن محمد الرازي المتوفي سنة 334هـ، وله عدة مؤلفات في هذا المجال من أشهرها كتاب (مسالك الأندلس) الذي يدور معظمه حول صفة الأندلس، ولكن من المؤسف أن معظم هذا الكتاب فُقد، ولم يصلنا إلا جزء يسير منه فقط. وممن اشتهر من الجغرافيين أيضًا الإدريسي الذي عمل خارطة دائرية للعالم. وصنع هيئة للعالم على شكل كرة من الفضة رسم عليها أقاليم العالم وبحاره ومدنه المهمة، ومن الرحالة الجغرافيين ابن جبير في كتابه (الرحلة) وابن بطوطة في كتابه (نزهة المشتاق) فقد جاب آسيا الصغرى وآسيا الوسطى والهند والصين وأفريقيا ووصف جميع هذه الدول.

وعني العرب في الأندلس بالدراسات الفلسفية، فنقلوا إلى الغرب فلسفة اليونان وما أضافوا إليها، وكانت من أكبر مشكلاتهم الفلسفية محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، وأكبر فلاسفتهم ابن رشد المشهور بشروحه لفلسفة أرسطو، وقد أثرت تأثيرًا قويًا في أوروبا، وأشهر كتبه كتاب (تهافت التهافت) رد به على الإمام الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة). ومن فلاسفة الأندلس أيضًا ابن ماجه وابن طفيل صاحب قصة حي بن يقظان التي ترجمت إلى اللاتينية والهولندية ونقلت إلى أكثر اللغات الأوروبية.

***

إضاءات تاريخية: المسلمون عباقرة الشرق إذا تملك الدين من روحهم وقلوبهم، فمهما حاول الأدب الأوروبي إخفاء مآثر المسلمين سيظل هذا التأثير واضحًا لكل واعٍ ومفكر.

«المسلمون عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم

تولوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالة وعمقًا، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته «معجزة العلم العربي»، « **جورج سارتون**».

«ينبغي أن أنعي على الطريقة التي تحايل بها الأدب الأوروبي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا! إن الجور المبني على الحقد الديني، والغرور الوطني لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، «**المستشرق درايبر**».

تعلم وتذكر: إن أفضل ما توصف به الحضارة الإسلامية أنها حضارة نص، لذلك؛ قال أحد المفكرين: الخائفون من الإبداع قد يبنون مدنًا، ولكنهم لا يستطيعون أن يبنوا حضارة. «ياسر حارب».

***

ولم يكن اهتمام العرب بعلم الحيوان أقل من اهتمامهم بالعلوم الأخرى التي أبدعوا في دراستها، فقد برز العديد من العلماء العرب الذين ألفوا في حياة الحيوان، ووضعوا المؤلفات والمصنفات الكثيرة حولها خاصة وأن الحيوانات جزء مهم من حياة الإنسان سواء أكان من الناحية الاقتصادية أو الجمالية، فذكروا أنواعها من وحشية وأليفة، وطيور، وحشرات، وأسماك، ووصفوها وصفًا دقيقًا، وبينوا أشكالها وصفاتها وطبائعها. فانتقلت أسماء كثير من الحيوانات والطيور والأسماك بألفاظها العربية إلى أوروبا وأفريقيا وآسيا، إضافة إلى التي ما زالت تستعمل بألفاظها العربية حتى الوقت الحاضر في اللغات الأوروبية.

ومن أسماء هذه الحيوانات: الحصان Alizan، الغزال Algaasele، الطير Altair، كلب Cleb، دب Dub، زرافة Cirafo، صقر Sakre، الغول A gol، الفيل Fau، يربوع Grbo، ببغاء Papge، وحيد القرن Aboukorn [96]، إبرة (أنثى وحيد القرن) Abafa، بكر (الجمل الصغير) Albacore، آيل (نوع من الغزلان) Ariel، ضبع Dabuh، فندى (نوع من الفئران) gundi، حرذون (نوع من السمالي)

Haudim، الحر (نوع من الطيور) Alhorre ، العقرب Alacran [97]، وغيرهم العديد من أسماء الحيوانات التي ما زالت تستعمل أسماؤها في أوروبا.

لقد كان تأثير العرب الخلقي على الأندلس وعلى أوروبا كبير جدًا، فقد أشار لوبون ما ذكره سبوباونلي في كتابه عن القرآن بقوله: (أسفرت تجارب العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سبوراتنا الغليظة في القرون الوسطى، وتعلم فرساننا أسمى العواطف وأنبلها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئًا من شجاعتهم، ويقول أيضًا: كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم، فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم، وأن العرب هذبوا البرابرة بتأثيرهم الخلقي، وأنهم هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا متمدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون.

***

⏮ إضاءات تاريخية: انتعاش العالم الغربي سببه مؤلفات المسلمين.

إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربي أوروبا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك. ويقول في مكان آخر: «إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية، «تومبسون».

تذكر وتعلم: أجدادنا جعلوا العالم يتحدث عنا وتركوا لنا تراثا استغله غيرنا وصنع حضارة، ونحن أهملناه وصنعنا جدالا وعلما بلا قراءة ووعي، فصرنا حديث العالم في الجهل، أيليق بنا نعلم الدنيا كلها ولا نتعلم، فاصنع لذتك بصمة وساهم في نهضة هذه الأمة، فإنها تحتاج للكبير وللصغير حتى تعيد مجدا وعلما فُقدا، وحاضر مؤلم بعد أن كان الماضي زاهرًا بالعلم والحضارة، فكن أنت الأمل والمستقبل وتعلم كيف تضع بصمتك وتنجز حضارة لأمتك ولذاتك وللأجيال.

***

إن التراث العربي الإسلامي في النواحي العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية قد انتشر سياسيًا وحضاريًا وحربيًا في جنوب أوروبا وغربها وأسس العرب مراكز لحضارتهم فيها، وقد نبغ في هذه المراكز مترجمون نقلوا جوانب مهمة من التراث العربي الإسلامي إلى لغاتهم، فكانت طليطلة وإشبيلية وغرناطة وقرطبة من أشهر مراكز الترجمة عن العربية، فكانت في إشبيلية كلية عربية لاتينية تعني بترجمة كتب الفلسفة العربية، وقد أثرت فلسفة ابن رشد بصورة خاصة في الغرب وولدت حركات ثورية على تعاليم الكنيسة. وأصبحت هذه الكتب مراجع معتمدة في جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر.

***

⏮ إضاءات تاريخية: الأندلس سبق أوروبا في الاندماج والتسامح المجتمعي ومن ثم بناء الحضارة.

قد يكون جيدًا أن واقع التركيبة السكانية فسّر التسامح الديني المميز الموجود في سور القرآن، التسامح الديني المميز الذي يمارسه المسلمون في إسبانيا، خلال القرن الأول من فتح أيبيريا، كان المسلمون نوعا متميزا في بحر من المسيحيين، وبعد أن كانوا نحو عشرة الآلاف صاروا ستة ملايين من المسلمين الآخرين، بالتأكيد حث هذا على ممارسة ضبط النفس وعدم استفزاز لا مبرر له مقاومةً من السكان الأصليين، ولا ينبغي أن يكون من المستغرب أن الأمويين جعلوا الاستخدام الاستراتيجي لليهود، ورحب السكان الأصليون بالعرب المنقذين لهم من سياسة ووحشية القوط الغربيين «ووحشية التحويل الديني القسري ومصادرة الممتلكات».

ومع ذلك، بدأت باعتبارها سياسة تقوم على أشخاص سرعان ما أصبحت حضارة تقوم على التعاون الهرمي، يحكم المسلمون دائمًا من موقع قوة لا يمكن تعويضه وبامتياز، للتأكد، فرضت قيود قانونية على الذميين، وتقييد بناء الكنائس،

والعرض العام المسيحي والاحتفالات اليهودية، والاستخدام المحظور للسيوف والسروج لغير المسلمين، فرضوا قواعد اللباس، كانت الأندلس مجتمعًا غير عنصري؛ حيث كان جميع الرجال متساويين (ناهيك عن النساء)، ومع ذلك، هذه الرموز القانونية والكمالية، والفروق الاجتماعية الحادة والقاسية، لم تعتدل مع مرور الوقت.

بشكل ملحوظ، بعد 200 سنة من طارق بن زياد وبعد الغزاة البربريين ال 7000 الذين أبحروا من المغرب في 710، كاد سكان أيبيريا أن يصبحوا جميعًا مسلمين تقريبًا 70 ٪ من خلال اعتناق الإسلام دينًا، وبحلول القرن الحادي عشر، يمكن القول: إن المجتمع الأندلسي حقق العمران، والكونية، والدينامية التجارية والخدمة العامة بجدارة، والترابط الداخلي بين مختلف أجزاءه العرقية والدينية، وقاد بالتالي إلى التعددية الثقافية، كسمة حداثية واضحة جدا، وأوضح مما تحقق في الآونة الأخيرة من القرن العشرين في شمال أوروبا.

تذكر: لسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يدشن في مدن أوروبا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، وحسب المسلمين أنهم كانوا مثالًا للكمال البشري، بينما كنا مثالًا للهمجية. «ليوبولد وايس».

***

وقد حاول بعض الأوروبيين التقليل من شأن العرب في نهضة أوروبا وازدهارها وهم ينسون مثلًا أن الإدريسي والخازن قد سبقا نيوتن في القول بالجاذبية، وأن ابن النفيس قد سبق (هارفي) إلى كشف الدورة الدموية، وأن ابن مسكويه قد سبق (دارون) في القول بالتطور، وابن خلدون قد سبق (لامارك) في القول في أثر البيئة على الأحياء، وأن ابن سينا قد سبق علماء الغرب في الطب والمعادن والنبات والحيوان، وأن ابن يونس وابن حمزة قد مهدوا كثيرًا بكشوفهما

إلى معرفة اللوغاريتمات وحساب التكامل والتفاضل، وأن الخوارزمي أول من ألف في الحساب والجبر بطريقة علمية منظمة، وأول من استعمل الأرقام في الحساب وللدلالة على عظم التراث العلمي العربي ما خلفوه في خزائن الكتب الموجودة في العالم والمحفوظ منها أسماؤهم في فهارس الكتب لتثبيت مدى عظم الحضارة العربية في مختلف صنوف العلم والمعرفة، وبذلك فقد كان للحضارة العربية الإسلامية فضل جليل على أوروبا، وكانت عاملًا مهمًا في نهضتها.

***

إضاءات تاريخية: الأندلس وظلام أوروبا.

ديفيد لويس في كتاب البوتقة يقول: كانت الأندلس اقتصاد السوق النقدية القائمة على التجارة العالمية والزراعة المحلية وتزويد المراكز الحضرية، وسادت الأعراف المدينة، كانت لديها كونية تغذي محو الأمية بالقرآن، كانت أوروبا الجرمانية اقتصادا منفصلًا عن مصفوفة التجارة العظيمة التي امتدت من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، منظمة مجتمعية تستند بنفسها على النظام الطبقي المتجمد فيها نظام حكم وراثي للمحاربين «المحميين» التابعين لطبقة التجار، والفلاحين الذين بحاجة للحاجات الروحية التي تخدمها الطبقة الكهنوتية مع السلطة الحصرية للتوسط بين المسيحيين وإلههم، بالإضافة إلى ذلك، بلغة المسيحيين: معظمهم أميين لا يفهمون ولا يقرأون.

تعلم واعتبر وانهض: والآن لا يعترفون بنا ولا بنهضتنا ولا فضل حضارتنا عليهم حتى من باب الشكر، فهذا وضع طبيعي، فإن السيادة للأقوى، وأن اللغة التي تسود هي لغة العلم ففي العصور الوسطى سادت العربية العالم كما تسود الإنجليزية العالم الآن، دومًا يكتب التاريخ المنتصر، والأقوى في كل كافة المجالات هو من يفرض شروط حضاراته ويتحكم في ضعاف العقل والنفوس، ويتحكم حتى في فكرهم وقوتهم، للأسف نحن في القاع وهما في القمة، ولكن كم قال

الخطاب: نحن أمة تمرض ولا تموت، لعل الأمل يأتي ويخرج نبت وجيل يهدم كل أركان الفساد وكل جحر للشياطين، ومن ثم يبدأ البناء؛ لأن السمكة دومًا تفسد من رأسها، فنحن متفائلون ولدينا كثير من الأمل، بأننا سنعيد أمجاد الأندلس من جديد، وننشر العدل والتسامح في ربوع الأرض رغم ما عانيناه عندما تحكموا بالحضارة، ولكن ديننا وحضارتنا علمتنا أننا نخاطب الإنسان وعقله وتوقظ فيه إنسانيته وجمالها، أما حضارتهم الحديثة توقظ شهوة وغرائز الإنسان، فأصبحت نهضة تشبه قانون الحيوانات والغابة، فالفرق بين حضارة الإسلام وحضارتهم بأن حضارة الإسلام تخاطب روح الإنسان ليعلو وإنما حضارتهم الحديث تخاطب غريزة الإنسان ليستعبد.

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع:

المصادر:

- ابن بسام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق: إحسان عباس، ق2، م2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1975.

- ابن حيان: **من نصوص كتاب المتين**، جمعه عبد الله محمد جمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1997.

- ابن عذارى: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج 3، تحقيق: ج. س. كولان، وليفي بروفنسال، ط2، بيروت 1998.

- ابن الخطيب: **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط 2، دار المكشوف الطبعة 1956م.

- الغساني (أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي الغساني المتوفي 250هـ): **رحلة الوزير في افتكاك الأسير**، نشر وتعليق ألفريد البستاني، منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو، تطوتن 1940.

- محمد بن الطيب القادري المتوفى 1187هـ: **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق: محمد حجي، أحمد توفيق، دار المغرب للترجمة والنشر، الراط 1977، ج1.

- محمد بن عثمان المكناسي: **الإكسير في فكاك الأسير**، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط 1965.

- محمد بن عسكر الشفشاوني (المتوفي 986هـ 1578م): **دوحة الناشر**

لمحاسن من كان بالغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، ط2، مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977.

- محمد بن محمد بن الحاج بن علي الدكالي (المتوفي 1364هـ 1945م): **الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين**، تحقيق: مصطفى بو شعرة، منشورات الخزانة الصبيحية، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط 1986.

- المنتصر القفصي: **نور الأرماش في مناقب القشاش**، تحقيق: لطفي عيسى، حسين بوجرة، المكتبة العتيقة، تونس 1998.

- الوزان الحسن بن محمد - المتوفى 1552م: **وصف إفريقيا**، تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1.

المراجع العربية:

- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1981، ج1.

- أحمد الطاهري: **الطب والفلاحة في الأندلس بين الحكمة والتجريب**، ط1، كلية الآداب المحمدية، الدار البيضاء 1997.

- أحمد عبد الرزاق: **الحضارة الإسلامية**، جـ1، القاهرة 199.

- حسام محمد عبد المعطي: **العائلة والثروة - البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2008.

- الحسن السائح: **الحضارة المغربية: البداية والاستمرار**، منشورات عكاظ، الرباط 2000.

- **الطاهر أحمد مكي**: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1993.

- حسن مراد: **تاريخ العرب في الأندلس**، دار الفرجاني للنشر، القاهرة 1984.

- حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، ط3، القاهرة، 1997.

- حنيفي هلايلي: **أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي**، دار الهدى، الجزائر2010.

- ـــــــــــــ : **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط1، دار الهدى، الجزائر 2008.

- الحسن اليوسي: **المحاضرات في اللغة والأدب**، تحقيق محمد حجي، محمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ج 1.

- الناصري أبو العباس أحمد: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب البيضاء 1954، ج3.

- ناصر الدين السعيدوني: **النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1500 - 1830)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1979.

- ـــــــــــــ : **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصرة)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ج2.

- ـــــــــــــ : **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1984.

- شكيب بن جفري: **موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر ما بين سنتي 1571م و1573م**، في أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية: الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة (1492 - 1992)، زغوان، ديسمبر 1991، سيرمدي 1993، ط1 ج2.

- عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية وقضية الموريسكين الأندلسين، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكين زغوان، تونس 1989م.

- ـــــــــــــــ : **تأثيرات الموريسكيين الأندلسيين في المجتمع المغاربي إيالة تونس نموذجًا**، كتاب العربي الكويتي - حوار المشارقة والمغاربة، ج1، الطبعة الأولى - مجلة العربي الكويتي،2006.

- ـــــــــــــــ : **تطور موقف سلطات إيالة تونس تجاه الموريسكيين على ضوء فرمان جديد للسلطان العثماني**، ورد في دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي، زغوان، مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1993.

- عبد الحكيم القفصي سلامة: **نظرة حول بعض الحرفيين والمهنيين الأندلسيين والأتراك بالإيالة التونسية أثناء القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية، ورد في الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني**، تقديم عبدالجليل التميمي، تونس، منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات، ج2.

- عبد الحميد سعد زغلول: «**الأثر المغربى والأندلسي في المجتمع السكندري في العصور الإسلامية الوسطى**»، ضمن مجموعة محاضرات ألقيت في ندوة علمية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية في إبريل1973 بالتعاون مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة الإسكندرية 1975م.

- محمد رزوق: **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 17**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991.

- محمد الطمار: **تلمسان عبر العصور**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م، ط1.

- محمد قشتيلو: **الموريسكيون في الأندلس وخارجها**، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ط1، الرباط المغرب 2008.

- محمد عبد الحميد العبادي: **المجمل في تاريخ الأندلس**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.ت).

- محمود مكي: **تاريخ الأندلس السياسي** (92897هـ/ 7111492م)، نشر بكتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، جـ1، ط1، بيروت 1998.

- مولاي أحمد الكامون هاشم السقلي: **التأثير المورسكي في المغرب**، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المغرب 2010.

المراجع المترجمة:

- أغناطيوس يوليانوفيتش: **تاريخ الأدب الجغرافي**، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة أيفور بلباف، ق1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987.

- براون كينث: **موجز تاريخ سلا**، ترجمة: محمد حبيدة أناس لعلو، منشورات أمل، الدار البيضاء 2001.

- دومنيغيث أورتيث - برنارد فينسينت: **تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية**، ترجمة: عبد العال صالح، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2007.

- دوزي: **ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام**، ترجمة: كامل كيلاني، ط1، القاهرة 1993.

- روجي كواندرو: **قراصنة سلا**، ترجمة: محمد محمود، مطبعة أمنية، الرباط 1991.

- غيرمو غوتاليس بوستو: **المنظري الغرناطي مؤسس تطوان**، ترجمة: ممدوح البسناوي، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة 2007.

- ـــــــــــــــ: **الموريسكيون في المغرب**، ترجمة: مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، ص178 الطبعة الأولى 2005.

- غوستاف لوبون: **حضارة العرب**: ترجمه إلى العربية: عادل زعيتر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1883.

- ليفي بروفنسال: **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة: ذوقان قرقوط، مكتبة دار الحياة، بيروت لبنان.

- ليونارد باتريك هارفي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية: بيروت 1999.

- ميكيل دى إيبالثا: **الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى**، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، القاهرة 2005، ص341.

- وولف جون ب: **الجزائر وأوروبا**: ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

- المراجع الأجنبية:

- Fathia Skhiri، « **deux couverture de Testour**، **In Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie préparé par M De Epalza et R Petit**، Grafica international، Madrid، Direction general de relaciones، culturales، 1972، p317 - 334.

- Muhamad Al Annabi، **« la chéchia tunisienne »**، **In Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie** »، préparé par M De Epalza et R Petit، Grafica international، Madrid، Direction général de relaciones culturales، 1973، p306 .

- J.Revault، **«Aspects de l'élément andalous sur les palais et demeures de Tunis »**، **In Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie** »، préparé par M De Epalza et R Petit، Grafica international، Madrid Direction general de relaciones culturales، 1972، p92.

- المقالات العلمية:

- حوار حول النهضة الأوروبية والأندلس: توماس لويس: شبكة الألوكة.

- يوسف نكادي: دور الأندلس في انتقال الإسلام من المغرب إلى جنوب أوروبا، شبكة الألوكة.

- إيمان محمود محمد صالح: العوامل المؤثرة في الفكر التاريخي في عصر ملوك الطوائف، شبكة الألوكة.

- الحضارة لإسلامية في الأندلس وأوروبا: موقع سطور.

الخاتمة:

شكر هذه النعمة التي إن سلطت عليها قوى البشر فضحتها، ورجحتها، ورأينا سر اللطائف الخفية كيف سريانه في الوجود، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلهية والجود، وقلنا: إنما هو الفتح الأول شُفع بثانٍ، وقواعد الدين الحنيف أيدت من صنع الله – تعالى – ببنيان، اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة، ومِننك الوافرة، إنك ولينا في الدنيا والآخرة، انتهى.

هكذا تحدث مؤرخ الأندلس عن الفتح، وعظمة ونعمة الفتح الإسلامي، ويعبر عن فرحة المسلمين عن هذا الفتح العظيم وشكروا الله عليه وعلى نعمه، فزادهم الله وأتاهم خير هذه البلاد وصنعوا حضارة وعصرا ذهبيا.

ولكن عندما زادت النعم، ونسوا الله، وتتبعوا الشهوات وحب الهوى، ودخل الترف والغنى على كل حي وباب، أصيبوا بالوهن كما نحن اليوم، انتشرت المعاصي في كل مكان، وزادت الفتن، وتفرق كل جمع بجمعه، ونادوا على النصارى ليستقووا بهم على بعضهم البعض، كأنه حالنا اليوم، فعندما تركوا الشكر وتركوا القضية، سلط الله عليهم أنفسهم، وجعل كلمة العدو عليهم العليا وكلمتهم هما السفلى، بعد أن أناروا أوروبا بحضارتهم وعلمهم، فعندما أتبعوا الهوى وسبل الشيطان، نزل عليهم العدو من كل صوب وضعفت هممهم الغارقة في الملذات وحب الدنيا، حتى سقطوا جميعًا، عندما تركوا المصحف والسيف والأخلاق – كحالنا اليوم – تنزلت عليهم الهزائم من كل صوب، نزع الله المهابة من قلوب عدوهم، ونزل الوهن في قلوبهم، فكانت النتيجة، ذلًا من بعد عزة، وضعفًا من بعد قوة، فهل من معتبر؟

كأن حالهم الأمس هو حالنا اليوم وواقعنا، فيحكي لنا، مآسي السقوط مؤرخ

غرناطة ابن الخطيب فيقول:

ومن إنشاء لسان الدين – رحمة الله تعالى – من أخرى مما يتعلق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته:

وإن تشوفتم إلى أحوال هذا القطر ومن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين، فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تيارًا، ونكابر بحرًا زخارًا، ونتوقع – إلا إن وقى الله تعالى – خطوبًا كبارًا، ونمد اليد إلى الله – تعالى – انتصارًا، ونلجأ إليه اضطرارًا، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعدادًا به واستظهارًا، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطارًا، وينشئ ربح روح الله طيبة معطارًا، فإن القُمّس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع، ومخالفته لا تستطيع، رمى هذه الأمة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لا يسد طريقها، ولا يحصى فريقها، التفت على أخي صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله، وتبلغه أمله، ويكون الكل يدًا واحدة على المسلمين، ومناصبة هذا الدين، واستئصال شأفة المؤمنين، وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد، ولا عرفها نجد ولا وهد، وقد اقتحموا الحدود القريبة، والله – تعالى – ولي هذه الأمة الغريبة، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يقوي الضعيف، ويدرأ الخطب المخيف، ورجونا أن نكون ممن قال الله – تعالى – فيهم: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (آل عمران: 173).

وعند الحديث عن الأندلسيين يتناول شعبا كاملا كان أرفع شعوب الأرض حضارة وأقدرها على الاستمرار وسط كل الظروف السلبية التي فرضوا بعضها على أنفسهم أو قدمها احتلال الأخوة في الإسلام، أو جاءت نتيجة تدفق أمم أوروبية من الورعين المجاهدين أو المرتزقة الذين أعمت ثروة الأندلس أبصارهم، وحول الجشع خوفهم إلى قوة.

ورب قائل أن تناحر الأندلسيين ونزعة حكامهم للاحتفاظ بملكهم،

بغض النظر عن السبل، هو السبب في سقوط الأندلس وتبدد شعبها؛ وقائل أن الأندلس قامت كيانا غريبا عن محيطه فكانت جزيرة وسط بحر لم يكن يحتمل دينا غير النصرانية أو شعبا غير الأوروبيين؛ وقائل أن انفصال الأندلس عن بقية الوطن العربي حمل إليها بذور الفناء، أو أن تلك الدولة ما كانت لتستمر قوية بعد أن ضعف الوطن العربي وتناهشته الشعوبية والمؤامرة وتكالب أعداؤه عليه من كل جانب، وربما زعم آخرون أن الأندلسيين أخفقوا؛ لأنهم كانوا مستعمرين، وكان عليهم الجلاء عندما توفر لشمال النصراني العزم على طردهم، أو أن الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبيرية كان تجربة نمت وتقوت واستمرت وأنجزت، ثم هبطت وخارت قواها عندما تخلت عن الأسس التي قامت عليها.

ولكن لماذا استمرت السيطرة الإسلامية على الدولة العثمانية والقسطنطينية وزالت عن الأندلس، لماذا يكون الجرمان أهل البلاد الأصليين، وهم لم يمكثوا في الأندلس ثلث عمر سيرة الأندلسيين في شبه الجزيرة؟

وهي مجرد أسئلة لن تعيد الأندلس ولن تلم شمل أهلها، ولكنها تساهم في رسم صورة المأساة التي لم يعرف الوطن العربي مأساة بحجمها من قبل، وقد لا يعرف مأساة مشابهة لو تنبه المخلصون اليوم، واختلاف الأسئلة والإجابات لا ينفي حقيقة واضحة وهي أن الأندلس العربية الإسلامية تقوضت، كما سبق وتقوضت كل الممالك والإمبراطوريات التي عرفها العالم منذ أقدم العصور، فلم يكن هناك مخطط للفتح العربي، ولم يكن هناك مخطط مسبق لانحساره عن الأندلس أو بلاد فارس وغيرها من المناطق والأمم التي خضعت في فترة من تاريخها للسلطة العربية الإسلامية، وإذا كانت الإجابة عن سبب صعود دون غيره صعبة، فإن العثور على إجابة عن سبب هبوطه أكثر صعوبة.

غير أن بعض الشعوب تضع السيف جانبا في مرحلة من مراحل تطورها لتبني الحضارة، وحين يتوقف زخم الاندفاعة الأولى يحدث التوقف، ثم الانحسار، فيكثر الفساد وتسترخي الأجسام والهمم، ويستشري الضعف وتزداد بساتين

النارنج وهي عند ابن خلدون إحدى سمات الهبوط، وحين تفتقد الحضارة إلى الوقود الذي تحتاج إليه لمتابعة نموها فإنها تنقلب على ذاتها وتلتهم نفسها قطعة قطعة، وتعطي أعداءها فرصة النمو وابتلاع ما تبقى منها، ويتعجل هذه النهاية انفراد الحكام بالسلطة واضطهادهم لشعوبهم فيفقدوا مقومات الاستمرار وينغمسوا في الرذيلة والتفسخ.

هذه قصة الأندلس مليئة بأخبار الانتصارات والهزائم وعظمة الحضارة، مليئة بالعبر والدروس ومليئة بالنور والظلام، بالصلاح والفساد، ومليئة بالعلم وفي آخره جهل، علمت الدنيا كلها معنى الحضارة والتنوير والحداثة، حتى ما زال الكل يشهد بمفكريها، ولكم في ابن رشد وابن خلدون مثال، ولكن هي قصة وانتهت، ولكن في الحقيقة ما زال لها فصول وواقعنا الآن أهم امتداد لفصولها، فإما أن نعتبر ونأخذ الدرس من أحداث الأندلس بإيجابياتها وسلبياتها ونتعلم، حتى لا نسقط كل يوم سقوطا جديدا كسقوط ملوك الطوائف، وإما أن نعي ونتعلم ونأخذ العبرة ونكون كعصور بنى أمية، كعبد الرحمن الداخل ومنصور الحاجب، ونبنى مثلهم عصرًا ذهبيًا بعلم وحضارة وقوة سيف، فأرعبوا عدوهم علمًا وقوة بانتصاراتهم الدائمة عليهم، هكذا السياسة، لا مكان فيها للضعيف ولا للجاهل.

انتهيت من أحداث الأندلس، حاولت إسقاط واقعها وأحداثها على يومنا وقضايانا الشخصية والعامة، حتى لا نسقط بل لكي نربي جيلا جديدا يعرف للتاريخ أهمية، ويتعلم تعليمًا حقيقيًا، ونقتل سردية التاريخ وأرقامه وأشخاصه وأحداثه من هذا النوع المملة التي تحاوط الإنسان، وتجعله يحفظ أكثر مما يفهم عندما يريد أن يقرأ ويعي، فتكون النتيجة أن يفقد الطريق وسط زحمة الأحداث والأرقام، ولا يجد جدوى فيترك التاريخ ولا يستفاد فيظل الحال كما هو عليه ولا تجديد في المجال، فحاولنا جاهدين عرض قصة من أهم قصص التاريخ، وقتلنا فيها السردية المملة، وجعلنا فيها العبرة والتذكر والتعلم والغرض من القصة، وساعدنا القارئ وشاركناه التفكير سويًا حتى نتعلم جميعًا، حاولنا أن نقدم شيئا

جديدا في المجال وللأمة الإسلامية، ونضع بصمتنا في وعي وبناء جيل جديد، فإن وُفقنا فمن الله، وإن لم نوفق فيكفينا شرف المحاولة، بل سنظل نحاول حتى يكتب الله لنا النجاح في ترك بصمة حقيقية في مجال التاريخ، حيث إنه بوابة الوعي والفكر ومفسر الحال والمرآة للمستقبل، وعلم يبلع السياسة ويفهم الإنسان خبياها، فلذلك؛ سنحاول من أجل بناء أمة واعية وجيل مفكر يفهم واقعه ويبني مستقبله ويهدم أركان الفساد ويعرف عدوه.

فالخطأ مني ومن الشيطان إن وجد تقصير، والله الموفق وإليه السبيل، ولا تنسونا ولا تنسوا والدي – رحمه الله – وكل من قام بجهد في إخراج هذا العمل من الدعاء، سائلين الله لكم النفع والإفادة والعلم ولنا السداد والتوفيق.

المؤلف: عبد اللطيف عبد الغني مشرف، 17 – 12 – 2019م الموافق يوم الثلاثاء – بورصة – تركيا.

فهرس الموضوعات

الإهداء 5
تمهيد 7

الفصل الأول

(الأندلس) ما بين (الدولة الأموية) وملوك الطوائف 21
خلاصة الفصل الأول 62
أهم مصادر ومراجع الفصل الأول 65

الفصل الثاني

الأندلس وآخر فصول السقوط «سقوط غرناطة» 68
خلاصة الفصل الثاني ونتائج أهم أحداثه: 129
المصادر والمراجع: 131

الفصل الثالث

أحوال المسلمين في الأندلس بعد السقوط الأخير ما بين التنصير
ومحاكم التفتيش والثورة الكبري 136
ملخص الفصل الثالث: 198
المصادر والمراجع: 200

الفصل الرابع

الحضارة الإسلامية في الأندلس، جسر التواصل بين الشرق والغرب 205

المصادر والمراجع: 275

الخاتمة: 282